إطلالة على التراث

تأليف
عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء الثاني

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ / ١٩٩٤م

إطلالة على التراث

الجزء الثاني

تأليف
عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الرياض - الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ

٨١٠,٨ الخـويطـر، عبدالعزيز بن عبد الله.
٦٣٦خ إطـلالة على التراث / عبدالعـزيز بن عبدالله بن علي الخـويطـر.
– ط ١. – الرياض: ع. ع. الخويطر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
مج ٢؛ ٤٠٨ ص؛ ١٤,٥ × ٢١ سم.
ردمك: ٣ – ١١٥ – ٢٧ – ٩٩٦٠ (مج ٢)
٥ – ١١٤ – ٢٧ – ٩٩٦٠ (المجموعة)
١ – الأدب العربي – مجموعات ٢ – الحكايات العربية
٣ – السعودية – المقالات العربية
أ – العنـــوان..

رقم الايداع: ١٤/٠٥٧٥
ردمك: ٣ – ١١٥ – ٢٧ – ٩٩٦٠ (مج ٢)
٥ – ١١٤ – ٢٧ – ٩٩٦٠ (المجموعة)

مقدمة

هذا هو الجزء الثاني من كتاب «إطلالة على التّراث» ، وهو مثل سابقه من المقالات التي سبق أن نشرت في صحيفة عكاظ ، حسب تواريخها المبيّنة فيها ؛ وكل مقالة تلمس جانباً من جوانب تراثنا ، وتكشف عن بعض ما به من نقط مضيئة ؛ في الاطلاع عليها ما يساعد على معرفة قيمة هذا التراث ، وما يحتوي عليه من أمور تصبح عند معرفتها ، والغوص على كنهها ، مصدر فخر لأجيالنا المتلاحقة .

وما جاء في هذه المقالات من قصص ونوادر ما هي إلا قليل من كثير مما تزخر به كتب الأدب والتاريخ مما تركه الأجداد من تراث يصور حياتهم بافراحها وأتراحها ، حروبها وسلمها ، غناها وفقرها ، قوتها وضعفها ، قدرتها وعجزها ، نموها وانكماشها ، ويصور أمورهم المادية والعقلية .

والمعالجة التي لمست هذه القصص والنوادر والأخبار نظرة شخصية ، انطلقت من تدبر وتبصر

ومقارنة وموازنة ، وهدفت إلى أن تضع بعض المعالم التي بها قد يُعرف الصحيح من هذا التراث من المختلق ، والأصيل من الدخيل ، والواقع من المتخيّل ، فإن لم تُقبل هذه المعالجة بكاملها فلعلّ بعضها يحظى بالقبول ، ولعل فيها ما يحفز على الالتفات المتواتر المتتابع للعودة بجد وإصرار إلى التراث ، وتدبره ، والتمعن بما فيه ، والاستفادة مما يحتوى عليه من درر وجواهر ، تُعرض للجيل الصاعد بطرق تجذبه نحوه ، وتغريه بالعودة إليه ، ومهادنته ومسالمته ، وإعطائه الحيّز اللائق به ، من وقت القارئ الحديث .

والجزء الثاني هذا سار على نهج الجزء الأول ، وحذا حذوه في التنوع ، والتزم طريقه في محاولة الابتعاد عما يملل القارئ ، أو ينفره . فأرجو أن ينفع الله به ، وأن يكون مكملاً لما سبقه ، وممهداً لما سيلحقه .

وبالله التوفيق . . . .

عبدالعزيز الخويطر

معلومات تهتز(*)

يكثر التزوير في كتابة التاريخ لسبب أو آخر، بعض التزوير متعمد، وبعضه يأتي عن غفلة وجهل، وبحسن نيّة، والمتعمد قد يكون لهدف غير نبيل، كأن يكون لكسب محرم مادي أو معنوي أو لدفع أمر مقر. وتكاد الأهداف والأغراض وراء المتعمد لا تحصى؛ فبعضها قد يكون سياسياً، وبعضها قبلياً، وبعضها عنصرياً، وبعضها دينياً، وبعضها لكسب مال، وبعضها لكسب جاه، وبعضها لتغطية نقيصة، وبعضها لتثبيت فضيلة غير مستحقة.

وكتب التاريخ ملأى بالحقائق المزورة، والمعلومات المضللة، والأمور المختلقة، والدعاوي الكاذبة. وبعض هذا التزوير مما يسهل كشفه، وإبراز عناصر التزوير فيه، وبعضه متقن الوضع مما

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٤٧٩) في ١١/١/١٤١٣هـ الموافق ١١/٧/١٩٩٢م.

يصعب الوصول إلى كشف الزيف فيه . والحقائق كلما مر عليها الزمن ، وتطاولت عليها الأيام ، صعب اكتشاف الوضع فيها ؛ لأن المؤرخ الحديث قد لا تتجمع لديه الحقائق التي يمكن بها أن يقارن ويتثبت ، وغالباً ما تبهت صورة الإطار العام للصورة الاجتماعية ، فيتعمى الأمر ، ويتكثف الظلام ؛ فكلما ابتعد زمن الحقائق المزيفة إذن ضعف التصور للأمر بإجماله وعمومه ، وتعسرت مقارنة مايدخل تحته من مفردات الأمر مما قد يدل على بعض الأجزاء المهتزّة ، أو الباهتة ، في الصورة العامة .

والأرقام والتواريخ ، ومقارنة بعضها ببعض ، من الأدوات المسعفة للمؤرخ المحقق ، ومن الوسائل المنجدة له عند الحاجة ، وأحيانا تكون هي الحكم الفاصل في اقرار الحقائق ، ونبذ الدخيل . بها يستطيع الناقد أن يطمئن إلى ما شك فيه ، ثم توصل فيه إلى رأي . وفائدتها له تشبه فائدتها للمحامي وللقاضي ، فيها يجدان ضالتهما ، هذا في

تبرئة موكله ، وهذا في الحكم بالبراءة أو الإدانة .

وهنـاك وسـائـل أخـرى لكشف الـزيف والتدليس ، إذا تتبعت أدت عملا جليلا للناقد في معـرفـة معـدن ما يختـبره ، ولكنها تحتاج إلى ذهن ثاقب ، وبصيرة متأنية ، وفكر صاف عميق ، وإذا كان العصر بمجموعهِ يعطي ميدانا واسعا للناقد ، وإطاراً عاماً مهمّا ، وبوتقة صادقة للمتحري ، وبه يزن ما يمر به من معلومات تاريخية ، فإن أخذ دقائق الأمور ، وتدبرها ، ومقارنة بعضها ببعض يدخل في المجال الرئيسي للتثبت تمهيداً للقبول أو الرفض .

وكان آباؤنا في العصور الأولى يقظين متنبهين ، لكثـرة ما رأوا من التـزوير ، وانتشار أسبابه ، وما عانـوا من تدليس الحقائق وتشعبها واتقان دسها . وكانوا حريصين على التثبت والتأكد قبل القبول أو الرفض . وقد كان لهم فضل كبير في كشف باطل بعض ما دُسّ على التاريخ على أنه واقع وحقيقي ، وفي نبش زيف ما نصب على أنه صدق ، وهو مين واختـلاق ، وعين الكذب وقلبه . ولعل ما يأتي به

التدليس أحيانا من كسب مادي عظيم ، أو علو في الجاه ، أو من فائدة فائقة ، يلفت النظر إليه ، ويكون مدعاة للشك فيه ، ويستوجب الوقوف والتحري ، وآباؤنا أقرب الناس إلى زمنهم ، وأعرف الناس ببواطن أمورهم ، وأكثر منا غيرة على تاريخ زمنهم . وكانوا بالمرصاد لكل من تسول له نفسه أن يدخل في التاريخ ما ليس منه ، أو يدس في سرده ما ليس حقيقيا ولا واقعا . ولعل مجرد معرفة يقظتهم كانت سببا في منع إقدام المدلسين على التدليس .

ولعل مثلا واحداً من جهودهم يعطي فكرة عن مدى فضلهم في غربلة التاريخ ، والوقوف بحزم ويقظة أمام ما يحاك خلف ظهورهم في هذا المجال :

«كان قد أظهر بعض اليهود كتابا ، وادعى أنه كتاب رسول الله ﷺ باسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادات الصحابة ، وأنه خط عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - فعرضه رئيس الرؤساء على أبي بكر الخطيب ، فقال هذا مزور . فقيل له من أين لك ذلك؟ قال : في الكتاب شهادة معاوية بن

أبي سفيان ، ومعاوية أسلم يوم الفتح ، وخيبر كانت في سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ، وكان قد مات يوم الخندق في سنة خمس . فاستحسن ذلك منه » . [1]

الداهية الذي زور الكتاب لا بد أنه أعد العدة جيداً لذلك ، فقلد خط عليّ - رضي الله عنه - باتقان ، وزور منهجه في الكتابة ، ولا بد أنه استقرأ كتب النبي ﷺ وعهوده ، وعرف طريقته فيها وخطته : بدأها وختامها وصلب الخطاب وفحواه ، وعرف أن كتبه ﷺ تحتوي على أسماء شهود من أصحابه ، فوضع في الكتاب المزور أسماء مَنْ وَزْنُه ثقيل بينهم - كما يقول التعبير الدارج - ولكنه بُلي بناقد باقعة ، ومحقق نابه ، وعالم بالتاريخ جليل ، هو أبو بكر الخطيب ، الذي أنار الله بصيرته ، وسدد سهمه ، وفتح عليه بما أوصله ، بسهولة ويسر ، إلى كشف التزوير وموقعه . وقد لعبت الأرقام والتواريخ دورها في مساعدته على هذا الكشف ،

(١) معجم الأدباء ٤/١٨ .

وكانت من القوة بحيث أشبعت واقنعت. وبهذا قطعت جهيزة قول كل خطيب إلا هذا الخطيب!! ولم ينتبه المزور لهذا المنزلق الذي انحدر إليه، وغاب عن ذهنه ما نقط في ذهن الخطيب من أول وهلة رأى فيها النص. وصدق المثل العامي الذي يقول: «كل ملزق يطيح».

وعلى ذكر التزوير عليه ﷺ في كتبه، لا يزال هناك طامعون في ترويج بعض الصور المزورة عما كتبه للمقوقس وغيره من الملوك. ويظهر بين آن وآخر شيء من هذا مكتوباً على جلد غزال، يحاول أصحابه إتقان الصنعة فيه، من جعل الجلد يظهر بمظهر قديم، مع محاولة إتقان الخط، ولكن العلماء الخيرين يبطلون جهود هؤلاء، ويكشفون زيفهم وزيغهم، ويقفون لهم بالمرصاد. والطمع المادي في هذا هو الدافع للمحاولات المستميتة في هذا المجال. ولا أظن أن مثل هذه المحاولات سوف تنتهي ما دام هناك طامعون، يعميهم الجشع عن الاستقامة، والمحافظة على أمانة التاريخ.

شعاب الحيرة(*)

يقرأ أحدنا نصاً فيجده طريفاً فيعجب به ، ولكن ثقافته وتجربته في الحياة توجب عليه أحيانا ألا يوغل في الثقة بالنص ، وأن يكتفي فقط بالنظر إليه على أنه طريف ومسلٍّ ، ولكنه في الوقت نفسه لا يجزم بعدم صحته ، وتأخذه الحيرة أمام النص ، يقلبه على وجوه عدة ، يقول عنه إن هذا السبك المتقن للخبر قلّ أن يحدث في الحقيقة والواقع ، وهذا يوجب الشك فيه ، ولكن احتمال حدوثه وارد ، إذ أن حدوث مثله ليس معجزاً ، ولا مستحيلا .

وكلما زاد الإعجاب بنص فيه مداخل للشك زاد الألم لعدم وجود ما يؤكد ما إذا كان صحيحا أو مركباً ، ويتمنى المرء أحياناً أن الشك لم يتطرق إلى ذهنه أصلا ، وأنه لم يتعلم على دراسة النصوص ، وتعريضها لبوتقة النقد ، ففي هذا راحة للبال ،

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٤٨٦) في ١٨/١/١٤١٣هـ الموافق ١٨/٧/١٩٩٢م .

وطمأنينة للنفس . ومن النصوص التي أجد أن هذا ينطبق عليها النص التالي :

لما قال الفرزدق بيته :

إن الذي سمك السماء بنى لنا
بيتا دعائمه أعزّ وأطول

قال بعض الحاضرين : أعز وأطول من ماذا ؟ فأخذ الفرزق يجيل الفكر فيما قيل ، فوافق ذلك الوقت رفع المؤذن للأذان ، فلما قال المؤذن : «الله أكبر» ، رفع الفرزدق رأسه ، ونظر إلى المتسائل ، وقال له : يا فلان ، أكبر من ماذا ؟[1]

الفرزدق شاعر مُجيد ، مشهود له في زمنه بذلك ، وبأنه فطحل من فطاحل الشعراء ، ولا تأتي حصيلة جيدة مثل التي رويت عنه إلا من شخص عقليته متميزة ، وذكاؤه سابغ ، وبديهته قارحة ، وهذا يجعل القارئ للقصة لا يستغرب سرعة بديهة الفرزدق عندما سمع الأذان ، ووجد أن فيه الجواب الشافي

---

(١) معجم الأدباء ١/ ٩٠ .

لما سِئل عنه، وتكرر الأذان خمس مرات باليوم، ومن مؤذنين متعددين يجعل حدوث الفرصة غير مستبعد ولا مستغرب.

ولكن هناك ظل يحول بين هذه الحقيقة وقبولها، فيأتي في الذهن أن القاصّ أراد أن يزيد في الإثارة، ولم يكفه أن يرد الفرزدق من مخزونه من المعلومات، فيذكِّر المتسائل بالأذان، وما فيه من «أفعل التفضيل» الذي لم يلحق به ما يفضله، ولكن جعل الملاحظة تُبدى عند رفع الأذان، وفي أول جملة منه، فأصبح الأمر كأنه إنقاذ من الله للفرزدق، وإسعاف له، ورحمة به. وهذا ما أعطى القصة جزءاً من طرافتها، وأوجب تدوينها، وتداولها، ولكنه في الوقت نفسه رمى ظلا على القصة بكاملها.

وأمثال ذلك كثير في الأدب العربي، يشعر الإنسان أحيانا أن القائل فكر في الأمر، ووصل فيه إلى ما يشبه اللغز، فصاغه في صيغة سؤال، ثم جاء بالجواب؛ وقد يكون الأصل في الفكرة الجواب

نفسه ، وركب عليه السؤال ، وألبس لباس اللغز ، ليبدو طريفاً ، وملفتاً للنظر . ويكون هذا الأمر أحيانا أُتي به لتقرير حكمة تكونت ، أو سبك حجة عرضت ، فتلبس ثوب القصة ، لتكون مقبولة عند السامع ، ولتثبت في أذهان الناس وتنتشر بينهم وتتداول .

يقف الإنسان الموقف نفسه الذي وقفه مع القصة السابقة عندما يقرأ القصة الآتية :

«حكي أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى ، فقال له : أطال الله بقاءك ، وأقرّ عينك ، وجعل يومي قبل يومك . والله إنه ليسرني ما يسرك ، فأَحْسنَ إليه ، وأجازه على دعائه ، وأمر له بصلة . ولم يعرف لحن كلامه ؛ فإنه كان دعاءًا عليه ، لأن معنى : «أطال الله بقاءك» ، لوقوع المنفعة للمسلمين لأداء الجزية ، و «أقر عينك» معناه : يسكن له حركتها ، فإذا سكنت عن الحركة عميت ، و «جعل يومي قبل يومك» أي جعل يومي الذي أدخل فيه الجنة قبل يومك الذي تدخل فيه

النـار ، وأما قوله : «يسرني ما يسرك ، فإن العافية تسره كما تسر الكافر» .[1]

الافتعـال في هذه القطعة ظاهر ، والابتسار في الـتركيب والتعليـل يجعلهـا أقـرب إلى السخـرية والرفض ، وليس فيها من الطرافة إلا النزر القليل ؛ ومع هذا فهي تجد قبولا من كثير من الكتاب الذين يدرجون مثل هذا ضمن ما يدرجون في كتبهم مما يعتـبرونـه طريفاً . وهذه القصة تذكر بقصة المرأة البرمكية التي دعت للخليفة الرشيد بكلمات مماثلة فيهـا لحن وتـورية ، وظاهرها الدعاء له ، وباطنها الدعاء عليه ، وعرف الخليفة مرمى دعائها ، وغاب القصـد منه عن جلسائه ، حتى نبههم إلى القصد هارون الرشيد .

وقصة أخرى توحي بما قد يرجح الافتعال فيها ، وسبكت سبكاً يجعلها طريفة :

«حكي أن رجـلا كان شاعراً ، وكان له عدو ،

---

(١) الكشـكول ١ /٣٧٣ .

فبينما هو سائر في بعض الأيام، وإذا بعدوه إلى جانبه، فعلم أن عدوه قاتله لا محالة، فقال : يا هذا، أنا أعلم أن المنيّة قد حضرت، ولكن سألتك الله إذا أنت قتلتني إمض إلى داري، وقف بالباب ونادِ : (ألا أيها البنتان إن أباكما)، وكان للشاعر ابنتان، فلما سمعتا قول الرجل أجابتاه : (قتيل خذا بالثأر ممن أتاكما» .[1]

وتوسلتا إلى الأخذ بثأر أبيهما منه .

والمداخل على هذه القصة التي تبطلها - رغم طرافتها - واضحة، لا تحتاج إلى إيضاح أو بسط .

---

(١) الكشكول ١ / ٣٧٤ .

نتيجة الاختبار(*)

المظهر يؤخذ أحيانا - إذا صدق الحدس - دليلا على باطن صاحبه . وإذا كان تصرف المرء طبيعياً ، لا تكلف فيه ، فاحر بظاهره أن يكون مرآة صادقة لباطنه ، وصدى أمينا له . ولكن المرء قد يخادع ، فيلبس ظاهراً لباساً يخالف داخله ، ويتلون ظاهراً بما يباين باطنه . ويجهد ويتفنن في إتقان هذا التدليس ، بحيث يحتاج المتقصي إلى وقت وجهد لاكتشاف التزوير ، وفطنة نادرة للغوص على الحقيقة ، وحيلة بارعة ، وتجربة عميقة للتأكد مما عليه المدعي ، ومعرفة ما يخفيه بالغطاء الزائف . وانعدمت الثقة في بعض المجتمعات واستلزم الأمر الحذر واليقظة .

وقد مر بي اليوم قصتان في التراث ، احداهما ذهبت يميناً وحالف صاحبها النجاح في اختبار مدى

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٤٩٣) في ١٤١٣/١/٢٥هـ الموافق ١٩٩٢/٧/٢٥م .

تطابق الظاهر مع الباطن ، والأخرى أكدت نتيجة الاختبار السريع مدى زيف صاحبها ، واختلاف باطنه عن ظاهره ، الأولى حظى صاحبها بالجائزة الثمينة ، والأخرى منى صاحبها بالخيبة المهينة ، وكلا القصتين موضوعهما الحب ، والحب مزلق يحتاج من يتصدى لمعرفة صدق صاحبه فيه أو كذبه إلى ذكاء وبراعة وسياسة متقنة ، وإلى كبت العاطفة والتغلب عليها ، والتركيز على العقل . الأولى من القصتين أرت الفضيلة بكل مظاهرها ، وفي كل مراحلها ، وأكدت أن من سار في طريقها سار في طريق منير ، يهديه إلى هدفه الخير . والثانية مثلت الرذيلة ، وما تؤدي إليه من ضياع الهدف ، وفشل القصد .

أما الأولى فهي عن خادم للامام علي - رضي الله عنه - يرويها صاحب كتاب «سراج الملوك» ، فيقول :

رُوي أن جارية لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كانت تتصرف في حوائجه ، فكلما خرجت

تصدى لها خياط كان بقرب دار عليّ، ويقول لها : والله إني أحبك في الله تعالى . فلما كثر منه ذلك شكته إلى عليّ. فقال لها عليّ : إذا قال لك مرة أخرى فقولي له : والله إني لأحبك ، فما الذي تريد؟ فقال لها ذلك . وقالت له : وأنا أحبك فيه . فقال لها : إصبري، وأصبر، حتى «يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» . فرجعت الجارية، وأخبرت مولاها، فدعا الخياط، فوجد أمره على الصحة، فوهبها له مع نفقة يستعين بها .[1]

لقد رأى عليّ - رضي الله عنه - بثاقب فكره، ونور الإيمان في قلبه، أن الرجل صادق فيما أبداه؛ لأنه ارتكز في أمره على آية من القرآن، دليل فقه ودين . والفقه والدين لا يجتمعان في قلب واحد مع الفسق والفجور .

أما القصة الثانية فهي ما رواه صاحب «محاضرات الأدباء» :

---

(١) سرح العيون ٢٩٧ .

قال رجـل لامرأة : قد أخذت بمجامع قلبي ، فلست أستحسن سواك . فقالت : إن لي أختا هي أحسن مني ، وهـا هي خلفي . فالتفت الـرجل . فقالت : ياكذاب ، تدعي هوانا ، وفيك فضل لسوانا .[1]

وأشهـد أن سرعة البديهة ، وحسن التصرف ، وإتقان الاختبار ، على ما فيه من قصر واختصار ، تدل على عقـل واتـزان . ولا أستبعد أن معها من العفـة ما يماثل العقل والاتزان . ويسجل العنصر النسائي الشاب هنا رجحانا على العنصر الرجالي .

(١) محاضرات الأدباء ٢٦٨ .

شـــبوات الأقـــلام(*)

لا يكتب كاتب إلا والقلم أداته ، ولا يقرأ قارئ إلا ما قد كتب القلم ، ولا يستمع لمحاضرة إلا وكان القلم وسيـطاً في كتـابتهـا وإعدادها ؛ فالقلم مع الناس منذ أن دونوا المعلومات ومنذ أن نقلوها من مكان إلى مكان ، أو عزموا على تسجيل ما يريدون أن يحفظ ويبقى فلا يضيع . ولعله من المستحيل أن يحدد أحد متى خُط أول حرف ، أو يعلم علم اليقين متى بُري أول قلم ، أو ما هو أول قلم كُتب به ، أو ماذا كَتب هذا القلم ، أو من أي حبر استَقَى مادته . وقد يذهب المرء في حرصه مذاهب شتى ، يبعد فيها عن الحقيقة أو يقترب ، دون أن يدري مدى قربه منها أو بعده . وقد يتصور أو يحدس متأثراً بما يمليه زمنه ، ولكن يبقى اليقين أبعد ما يكون عن ذهن أي فرد .

(*) نشرت في صحيفـة عكـاظ بالعـدد (٩٥٠٠) في ١٤١٣/٢/٣هـ الموافق ١٩٩٢/٨/١م .

وعندما انتشر استعمال القلم ، وثبتت أهميته ، وتأكدت الحاجة إليه ، واستقرت في العقول فائدته ، وأصبح لا يستغنى عنه ، تعددت استعمالاته ، فلا بد أنه استعمل للكتابة على الورق ، كما كان عند الصينيين ، أو على الطين كما كان عند البابليين ، وعلى حجارة المعابد ، وعلى أسس المباني ، وعلى صفحات النصب ، كما كان عند المصريين القدامى وغيرهم ، وجُملت به المباني فيما بعد عند الأمم المتحضرة . وفي بعض هذه الحالات لعب الازميل دور القلم ، وأخذ اسمه ، وحل محله ، وقام بعمله باتقان ، وخط ما أريد تسجيله ؛ فثبتت به المعلومات على المباني والنصب والسدود ، فبقيت الكتابة ، وقاومت الزمن ، كما أريد لها أن تقاوم . وأطل علينا منها ما أفادنا ، وصافح أعيننا ما أمتعنا ، وأدهشنا ، وحرك أذهاننا ، ووصل حاضرنا بماضينا .

واختلفت البيئات تقدما وتأخراً في أقلامها وأنواعها ، فاقتصرت بيئات على البدائي منها :

خشبة مجردة تُبرى ، أو قصبة تُهيأ بالصورة التي تؤدي الغرض ، وتُوْصل إلى الهدف ، دون نظرة إلى الجمال أو الفن . وتفننت بيئات أخرى في المادة التي يختار منهـا القلم ، وطريقة بري سِنّه وشباته ، أما اليوم فتـدخـل إحـدى المكتبـات فتنبهر من كثرة أنواع الأقلام : اختلافا في الصنع ، وتنوعاً في الأهداف ، وتعدداً في الألوان : هذا رفيع ، وذاك متين ، وهذا طويـل ، وهذا قصير ؛ هذا أزرق ، وهذا أسود ، وهذا أحمر ، وهذا أخضر ؛ هذا حبره سائل ، وهذا حبره جاف ، وهذا قلم رصاص ، هذا حبره فيه ، وهـذا يمـلأ فيمتلئ ، ويكتب به فينضب حبره ، وهذا يستغنى عنه بعد أن ينضب حبره ، لأنه لا يقبل الملء . هذا مصنوع من ذهب ، وهذا من فضة ، وهـذا من خشب ، وهذا من ألياف كيماوية . هذا غالٍ وهذا رخيص ، هذا يمكن أن تمحى كتابته ، وهـذا يقـاوم المحو لثباته كما أريد له . والشركات تتسابق في تطوير منتجها سنوياً ، ففي هذا العام قد يختلف انتـاجهـا قليلا ، وقد يختلف كثيراً ، ولا بد

لكل جديد من ميزة جديدة .

كنت أظن إلى وقت قريب أن زمننا هو الزمن الذي تنوعت فيه الأقلام ، عما كانت عليه من تنوع اشتهر به العثمانيون ، ولكن تبين لي أن حضارتنا العربية ، منذ زمن العباسيين ، قد سبقت هذا الزمن ، وسبقت الغرب الذي أغرقنا بمصنوعاته من الأقلام المتنوعة . لقد كان لنا حضارة فَخْرُنا فيها أن الجانب العقلي والعلمي فيها مضيء . فلا غرو إذن أن يكون القلم - وهو أداة العقل والعلم والثقافة - قد حظي بالتفاتة راعية ، أحلته ما يستحقه من مقام .

عندما نقرأ ما ورد عن آبائنا ، والفن الذي أدخلوه على القلم في تطوره ، نتيجة إدراكهم لتعدد الاحتياج لاستعماله ، واختلاف الأغراض والأهداف التي مرت بها الكتابة ، ندرك مدى دقتهم في الاستجابة لمتطلبات زمنهم في الأمور الثقافية ، وعدم اكتفائهم بالكفاف في هذا ، وسعيهم الحثيث للتعمق في فن هذا «السن» السحري ، وتنويع

استعماله، والاكثار من أشكاله وأنواعه :

قال اسحق بن إبراهيم البربري :[1]

« . . . فلما رتب الأقلام، جعل أول الأقلام الثقال، فمنها : قلم الطومار، وهو أجلّها، يكتب في طومار تامّ (أي صفحة كاملة) بسعفة. وربما كتب بقلم، وكانت تنفذ الكتب إلى الملوك به.

ومن الأقلام : قلم الثلثين، وقلم السجلات، وقلم العهود، وقلم المؤامرات، وقلم الأمانات، وقلم الديباج، وقلم المدمّج، وقلم المرصّع، وقلم التشاجي.

فلما أنشأ ذو الرئاستين، الفضل بن سهل، اخترع قلما، وهو أحسن الأقلام، ويعرف بالرئاسي، ويتفرع إلى عدة أقلام، فمن ذلك :

قلم الرئاسي الكبير، قلم النصف من الرئاسي، قلم الثلث، قلم صغير النصف، قلم خفيف

---

(١) معجم الأدباء ٦/٦٠.

الثلث ، قلم المحقق ، قلم المنثور ، قلم العرشي ، قلم الرقاع ، قلم المكاتبات ، قلم غبار الحلبة ، قلم النرجس ، قلم البياض» .

ولا عجب أن ألف اسحق هذا كتــابـا سماه : «كتاب القلم» ، ورسالة في الخَط والكتابة . وإذا لم يكن هذا الكتــاب ، وهــذه الـرسالة ، قد وجدا ، فأرجو أن يعثر عليهما ، فلعل فيهما ما يلقي الضوء مفصلاً على هذا الجانب الطريف .

متعة الفكر(*)

متعة الفكر متعة لا تعدلها متعة ، فمتعة الأكل مثلا في ترقبه وقت الجوع ، وفي فترة أكله فعلا ، وهي متعة قصيرة ، ينهيها الأكل والشبع ، وقد يقلل منها ما يعكرها من تخمة أو مضايقة . وقس على ذلك كل شهية أو شهوة يتلذذ الفرد بالتطلع إليها ، ثم يتلذذ بالحصول عليها ، ثم تنتهي اللذة بعد ذلك ، وتتلاشى المتعة . أما المتعة التي لا تنتهي هي متعة الأفكار واجترارها ، فأنت بقدر ما تستعيدها تتمتع بمدلولها ، ومتعة الفكر هي في القول الحسن الجميل ، والقول الحق ، والقول العدل ، والقول الذي يجري مع المنطق ، فلا تجد عليه مدخلَ نقصٍ في عرف الناس ، أو مطعنا ينقص من توازنه عند العارفين . والمتعة في إحاطته وشموله إذا كان أمره يقتضي ذلك . لهذا يعيد الناس - وقت الراحة -

---

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٥٠٧) في ١٤١٣/٢/١٠هـ الموافق ١٩٩٢/٨/٨م .

ترداد الأشعار والأمثال والحكم ؛ لأن لها مثل هذه الطبيعة في تعدد جوانبها، وصدى معانيها، ومدلول ألفاظها، ومرمى أهدافها ؛ فهي صور صادقة يُؤتَى بها لتؤكد رأيا، أو تقوي حجة، أو تبهج سماراً، وهي ملجأ أحيانا للعزاء والسلوّ، وهي مسعفة للمُهنِّىء والمُبارِك.

مرّ هذا في ذهني وأنا أقرأ قول الشاعر محمد بن عبد الله بن عثيمين عندما سئل، وهو الشاعر الذي لا يعجزه القول، لماذا لم يكن له شعر في الهجاء، فقال:

الحمد لله، إنني لم أهج أحداً قط، مهما بلغ بي من الاساءة، وهل تظن أنني تركت الهجاء عجزاً؟ كلا، إن الشعر آلة وأداة يصرفها الشاعر كيف شاء من فنون الشعر وأغراضه. وهل من العسير على من يستطيع أن يقول: «عافاك الله» قول: «أخزاك الله» في نفس الوقت.[1]

(١) ديوان ابن عثيمين ١٦.

هذا يمثل خلقا ارتضاه ابن عثيمين لنفسه، وليس هو أول من قال مثل هذا، فقد سبقه إليه آخرون أقربهم إلى ذهني، وأيسرهم مرجعا أحيل إليه الآن هو ما ورد في كتاب «محاضرات الأدباء» عما قاله الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان للعجاج: «بلغني أنك لا تحسن أن تهجو». فقال: «من يقدر على تشييد أمكنة يمكنه إخرابها». فقال: «وما يمنعك من ذلك؟» قال: «إنّ لنا عزًّا يمنع من أن نُظلم، وحلما يمنع من أن نَظلم، فعلام الهجاء؟» فقال: «كلامك أشعر من شعرك».[1]

إن هذا لمنطق مستقيم، لا يُدخَل عليه، وقد حاول عبد الملك أن يرى إن كان العجاج يصنف ألفاظاً جميلة، دون معنى قوي يماثلها في الجودة، فتبين له أن الرجل ملء برديه، وأنه قد أقام كلماته على صرح قوي من المعاني. ومعانيه مضيئة يغذي

(١) محاضرات الأدباء ٤٢، تمام المتون ٩٦، مع بعض الاختلاف في الجمل. انظر أيضاً حديث مسلمة بن عبد الملك مع نصيب الشاعر. البيان ١/٢٠٧.

ضوء مصباحها خلق إسلامي مكين. هذا جعل هشاما يعطيه وساما يجعل قوله يعلو فوق شعره.

عندما تتمعن في مثل هذا القول، وتتبصر في هذا الموقف وأمثاله، تجد اللذة الفكرية التي ألمحت إليها في أول قولي. لقد تمتع بقراءة ذلك أجيال، وتلذذوا باستعادتها وتذكرها، وتمثلوا بها في حالات مرت بهم. قالوها ورددوها، وأعادوا القول والرواية. وهذا دليل على تعلقهم بها، وأمثالها من وجوه الأدب والفكر. ومن أحب شيئاً أكثر من ترداده وذكره.

الأركان الثلاثة(*)

عندمـا كنت أدرّس طلاب التاريخ في جامعة الملك سعود، قبل ثلاثين عاماً تقريباً، وكان أحد الجوانب في تدريسي لهم اعطاءهم فكرة عن البحث وطرقه. وقد طبع موجز عن ذلك في كتيب سميته «في طرق البحث»، ذكرت فيه الأسس المهمة في هذا العلم. وعند الحديث عن الطريقة في كتاب البحث قادني الحديث إلى ذكر الحقيقة التالية:

«البـاحث يدرك أن كل حقيقـة تقـريباً تخضع لمظاهـر ثلاثـة: أحـدهـا الحـادثة نفسها، وثانيها السبب في حدوثها، وثالثها نتيجة هذه الحادثة. على أن السبب قد يكـون حادثـة لسبب آخـر، تكون الحادثة السابقة نتيجة له، والنتيجة الأولى نفسها قد تكـون الحـادثـة ولها نتيجتها، في حين أن الحادثة الأولى تكون السبب، وهكذا يصبح الأمر متشابكاً

(*) نشرت في صحيفـة عكـاظ بالعـدد (٩٥١٤) في ١٧/٢/١٤١٣هـ الموافق ١٥/٨/١٩٩٢م.

تشـابـك الفتحـات في شبكـة الصياد ؛ كل فتحة متوقفة في نسجها على ما قبلها أو بعدها ؛ لهذا ما من معلومات يحصل عليها الباحث إلا وتوجب عليه أن يبحث عن سببهـا ونتيجتها ، حتى تظهر حقيقتها أمامه ماثلة لا يشوبها غموض»[1].

وقـد ظهـرت هذه النتيجـة أمـامي بعد معالجة النصـوص، والتـدبر فيها ؛ فضربت أمثلة على ما قلت توضح الفكرة عملياً . وهي فكرة طريفة عند محاولة الطالب تطبيقها على أي مثل يختاره ، تأخذه التجـربـة يمينـاً ويسـاراً ، وتقوده إلى الأمام وإلى الخلف ، في تجربــة بديعـة . وقـد استمـرأ بعض الـطلاب تجربتها ، فكان لهم فيها - كما فهمت - متعـة . بجـانب أنها أصبحت ميـزاناً دقيقاً لنجاح البحث ، وتوخي ربط الحقائق بأسبابها ، وبيان نتائجها .

وحتى وقت قريب لم أكن أعـرف أن مثل هذه

(١) في طرق البحث ٣٧ .

الفكرة قد مرت بذهن أحد غيري ، ممن لا بد أنه مرّ بمثل ما مررتُ به ، وعثر على ما عثرت عليه ، ووصل إلى المحطة التي وصلت إليها ، أو ما يقارب منها . حتى قرأت ما أورده صاحب كتاب : «أدب الدنيا والدين» حين قال :

«المعنى لا يخلو من ثلاثة أقسام : إما أن يكون مستقلاً بنفسه ، أو يكون مقدمة لغيره ، أو يكون نتيجة من غيره» .

والفكرتان إن قلت إنهما متقاربتان ، فأنت صادق ، وإن قلت : إنهما متباعدتان ، فأنت لم تعد الحقيقة . هو لم يربط بينها في أجزائها الثلاثة ، ولكنه عددها ، وأحاط بها . ولعل ما جعله يقف عند تعريفها وتحديدها أنه كان يتكلم عن المعنى أي معنى ، أما ما قلته فكان ينصب على الحقيقة التاريخية ، والهدف الحقيقي في الربط والاستنتاج .

والآن جاء دور تطبيق النظرية على واقع الحقائق

(١) أدب الدنيا والدين ٦٤ .

التاريخية ، أياً كان عصرها ، أو حجمها ، أو نوعها :

إحدى الحقائق التاريخية في العصور الإسلامية الوسطى : «قتل القائد الظاهر بيبرس للحاكم قطز في أول بدء عصر المماليك» .

هذه حادثة ، سببها خوف بيبرس بعد أن هَزم التتار ، هو وقطز ، من أن يقتله قطز - لما بينهما من عداوة - ، فبادر بيبرس بقتله ، ونتيجة لهذا تولى بيبرس الحكم .

ويمكن أن نتتبع الأمر وأسبابه في مراحل سابقة .

فكما قلنا : النتيجة هي تولي بيبرس الحكم والحادثة هي قتل بيبرس قطز والسبب هو خوف بيبرس من قطز وسبب الخوف معارضة بيبرس لقطز وسبب تلك المعارضة قتل قطز لرئيس بيبرس المسمى فارس الدين أقطاي ، تمهيداً لإضعاف فرقته العسكرية المسماة بالبحرية ، . وكانت قذاة في عين حاكم مصر .

وسبب سيطرة البحرية حسن اختيارهم وتدريبهم، وتقريبهم من سيدهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، آخر ملوك الأيوبيين الفاعلين. وبسبب انتصارهم على الصليبيين في المنصورة، وسطوتهم بعد ذلك.

وكل سبب من هذه الأسباب التي رأينا ما يتسلسل منها، يمكن أن يعتبر حادثة بالنسبة للنتيجة التي بعده، ونتيجة بالنسبة للحادثة التي قبله.

طرائف الجاحظ(*)

الجاحظ من الكتاب الذين كتبهم تجذب القارئ، وتسحره وتشدّه، لجمال أسلوبها، وطرافة محتواها، وما يأتي به فيها من مفاجآت للقارئ، نتيجة التحري - أحياناً - والتعمق، والاستقصاء والتجريب، وما يأتي من ذلك من حصيلة. ولا يعنينا هنا مدى صحة ما يذكر الجاحظ أنه وقع له، لغرابته، أو أنه اخترعه للتسلية والمتعة، مثل دعواه أنه نسي كنيته ثلاثة أيام، ولم يعرفها حتى سأل أهله عنها[1]. ولا ما ذكره من أنه طلب بعض أصدقائه في داره، فلم يجده، فقال لجاريته: إذا حضر مولاك فقولي له: إن الجاحظ كان بالباب. قالت: نعم: الجاحد بالباب. قال لها لا، قولي الحدقي. قالت: الحلقي. قال عليك بالأول[2].

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٥٢١) في ١٤١٣/٢/٢٤هـ الموافق ١٩٩٢/٨/٢٢م.

(١) نزهة الالباء ١٤٩.

(٢) محاضرات الأدباء ٢٩.

وإنما يعنينا أن الجاحظ يأتي بهذه الفكاهة عن نفسه، وكلها فيها معايب له ومناقص؛ فنسيانه لكنيته يدل على منتهى نقص الذاكرة وضعفها، وهذا عيب يجفل من إبرازه أي إنسان، وإن كان فيه فعلاً فإنه يجهد في إخفائه، لا أن يشهره، ويؤذّن به على رؤوس الأشهاد، وفي أعلى المنارات، ليسمعه الحاضر والبادي. ووصفه نفسه، في حديثه مع الجارية، بالحدقي، إبراز لعيب خَلقي فيه، كثير من الناس، إذا ابتلوا به، لا يحبون أن يوصفوا به، فما بالك بوصفهم هم أنفسهم به، كما فعل الجاحظ.

ومنتهى الأمر في هذا أو أقصاه، ما رواه الجاحظ من أن امرأة أتته، وقادته إلى صائغ، دون أن يعلم شيئاً عن الهدف، ولا ما الغرض، فلما وصلا عند صائغ في السوق، قالت المرأة للصائغ: «مثل هذا»، ثم انصرفت. فلما سأل الجاحظ الصائغ عن جلية الأمر، قال له: إنها أتت لي بخاتم، وطلبت مني أن أنقش عليه صورة الشيطان، فلما أخبرتها أني

لم أر شيطانا في حياتي حتى أنقش صورته ، قالت : أنا آتيك به ، فجاءت بك !

هذه القصـــة تروى عن الجـاحظ في عدد من الكتب ، ولم أكن أظن أن أحـداً يقـدم على رواية نقص فيه واستغفال ، مثلما أقـدم الجـاحظ على مثل هذا ، حتى قرأت قصـــة مماثلة في كتـــاب معجم الأدباء ، في ترجمة أحمد بن علي النسائي[1] مؤداها كما يلي :

«حدثني الشريف المذكور عن أبيه ، قال : كنت أنا والرشيد بن الزبير ، والفقيه سليمان الديلمي ، نجتمـع بالقـاهـرة في منـزل واحـد ، فغـاب عنـا الرشيد ، وطال انتظارنا له ، وكان ذلك في عنفوان شبابه ، وإبان صِباه ، وهبوب صَباه ؛ فجاءنا ، وقد مضى معظم النهار ؛ فقلنا له : ما أبطأ بك عنا ؟

فتبسم ، وقال : لا تسألوا عما جرى علي اليوم . فقلنـا : لا بدّ من ذلك ؛ فتمنّع ؛ وألححنا عليه ،

(١) معجم الأدباء ٤ / ٥٠ .

فقال : مررت اليوم بالموضع الفلاني ، وإذا امرأة شابة ، صبيحة الوجه ، وضيئة المنظر ، حُسانة الخلق ، ظريفة الشمائل . فلما رأتني نظرت إليّ نظر مطمع لي في نفسه ؛ فتوهمت أنني وقعت منها بموقع ، ونسيت نفسي ، وأشارت إليّ بطرفها ، فتبعتها ، وهي تدخل في سكة ، وتخرج من أخرى ، حتى دخلت داراً ، وأشارت إليّ ، فدخلت ، ورفعت النقاب عن وجه كالقمر في ليلة تمامه ، ثم صفقت بيديها منادية : ياست الدار ! فنزلت إليها طفلة كأنها فلقة قمر ، وقالت لها : «إن رجعت تبولين في الفراش تركنا سيدنا القاضي يأكلك» . ثم التفتت ، وقالت - لا أعدمنى الله إحسانه ، بفضل سيدنا القاضي - أدام الله عزه - فخرجت ، وأنا خزيان خجلاً ، لا أهتدي إلى الطريق[1] .

وهكذا عاقبة النيّة السيئة ، والتعلق بأذيال الرذيلة ، والانصياع لاستدراج الشيطان ، ولعله ،

(١) معجم الأدباء ٤/٥٨ .

وهـــو صغـير السن حينئـذ ، قد استفـاد من هذا الدرس ، وما جاءه من خجل وخزي ، قد يكون الله به حماه مما قد تكون عاقبته وخيمة ، دنياً ودينا .

وهذا في كشف ما جرى له ، تعدى الجاحظ فيما يرويه عن نفسه من نقائص، لا تخدش الدين ولا المروءة ، وصلتها به وبالدنيا ، ولا تتعدى إلى أمور الآخرة والخُلُق ، كما حدث للرشيد المذكور .

الامثال تتشاجر(*)

أحيـاناً لا يستطيع شخص متكلم أن يعبر عن قصـده، أو يُبِـين عن غرضـه، أو ينقل بوضوح الصورة التي يريد نقلها إلى مستمع مصغ، ويعجز عن نصب جسر يعبر عليه فكره إلى قبيله. تقصر الكلمات أحياناً عن الإيضاح، وتعجز الجمل عن أداء الغرض، فتتعذر إبانة الهدف، فيعمد المتكلم إلى الاستنجاد بما يعرفه من الامثال في هذا المجال، يستعـين بها على بيـان ما يريد بيانه، وإيضاح ما هدف إليه، أملاً في أن تفي بما لم تف به عباراته التي صاغها، وجمله التي ركبها، ورغبة منه في أن يضع أمـام المستمع أو القارىء حصيلة تجارب الماضين، زيـادة في الاقناع، وترسيخاً للفكرة، وتثبيتاً لها، وليتأكد من هذا فهو يختار الأمثال التي الصور فيها محسوسة ملموسة، تعتمد على المادة التي ترى بالعين

(*) نشرت في صحيفـة عكـاظ بالعـدد (٩٥٥٨) في ١٤١٣/٣/١هـ المـوافق ١٩٩٢/٨/٢٩م.

أو تلمس باليد أو تسمع بالأذن ، لا تلك التي تعتمد على الفكر ، وما يعتريه من خيال مجنح ، وتحليق مبعد .

لو حاول شخص أن يحث على عدم الـرد على السفيـه ، ويبـيّن فائـدة تجاهله ، والمنفعة من عدم مجاراته ، والبعد عن النزول إلى مستواه في البذاءة ، وتحـاشي الوقوف معه في صفّ السّفه ، أو النزول معه في خندق واحد من الرذيلة ، وحاول أن يشرح ما يأتي به التعقل من مردود ، والرزانة من سلامة ، والتغاضي من رفعة ، والحلم من محمدة ، لما استطاع أن يصـل إلى هدفـه بالجمـل المعتادة ، والأسلوب المتعـارف عليـه في النصـح والـوصايا ، ولكنه إذا استعـار مثلاً قاله رجل حكيم ، وعاقل سبر غور الحياة ، وجرب حلوها ومرّها ، وكان هذا المثل - كما قلنـا - محسـوسـاً ملموساً ، يعطي صورة لا يضل الفكـر معهـا فإن السهم يصيب المـرمى . في هذا المجال يمكنه أن يستعير المثل الآتي : «إذا عضّك

كلب هل تعضه»[1]؟ هذا المثل إذا تصورته تصاب بقشعـريرة ورعب، لو رأيته في الحلم لاستيقظت مذعوراً، ولملئت رعباً.

ولكن الرياح لا تأتي دائماً بما تشتهي السفن، فقد يُذكِّر مَثَلَك هذا شخصاً آخر يرى خلاف ما تراه، ويعتقد خلاف ما تعتقد، وينظر إلى الأمر من زاوية تبرر عنده المخالفة، وتوجب التضاد، فيرى الأخذ على يد السفيه، وردع المتجني وعدم التغاضي عن الأذى، حتى لا يستمـرىء المخـطىء الخـطأ، فيكـرره، ويستحلي الخطل، فيعيده، ويستمر في نشر أذاه، ومضـايقـة الآخرين، ظناً أن سكوتهم ضعف، وحلمهم خور، وتجاهلهم خوف، وعلى هذا فلا بد من اتخاذ خطوة حازمة توقف المتعدي عن حده، وتقضي على شره، ففي هذا ردع له، وعبرة لمن هو على شاكلتـه، ممن قد يتخذه قدوة ومثلا، رغم سوء ما فعـل، ونُبُـوّ ما أقـدم عليه. ويختار

---

(١) انظر محاضرات الأدباء لكامل القول: ١٥٦.

صاحب هذا الـرأي مثله محسوساً ملموساً أيضاً، ويحظى بالاقتناع من المستمع، هذا المثل يقول: «طأطئ رأسك وخذ النعل واقتل العقرب». فهو يحث على القضـاء عليهـا، ولـو اقتضى الأمر أن تطأطئ رأسـك، وتحني ظهـرك، وتمسـك بيـدك النظيفة الحذاء الذي قد تعرّض للتراب والأوساخ.

فهو يطلب أن يضحي المرء من أجل قتلها، ولا يكتفي بتحاشيها، والبعد عن طريقها لتمر، لأنها قد تعود في وقت هو عنها غافل، أو تؤذي غيره من أحبائه وهم على غير استعداد لها، أو غير متنبهين لها.

ووسيلة الاقناع في المثلين مادية، ومن هذا جاء جزء كبير من الاقناع، ولم يختلف إلا الزاوية التي اختـارهـا كل واحـد من صاحبي الـرأيين منطلقاً لرأيه، والوصول عن طريقها إلى الهدف المنشود.

ولعله من المناسب أن نعطي نموذجاً للاقناع عن طريق المنـطق والعقـل، والجمل الرصينة، فترى

الفرق بين الصورة والصورة، والنهج والنهج والزاوية والزاوية، في هذا النموذج نجد التماس جانب السلامة هو الراجح، واختيار فضيلة التسامح على المقاصة والمحاسبة، ومحاولة المحمدة بذلك، واطراح العناء والمكابدة:

ورد في مجالس ثعلب[1].

«بنى أبو نخيلة، وهو راجز، مداح لبني العباس، هجاء لبني أمية، داره فمرّ به خالد بن صفوان، فوقف عليه. فقال أبو نخيلة: يا ابن صفوان، كيف ترى؟ قال: رأيتك سألت إلحافاً، وأنفقت إسرافاً، وجعلت إحدى يديك سطحا، وملأت الأخرى سلحاً؛ فقلت من وضع في سطحي، وإلا رميته بسلحي. ثم مضى، فقيل له: ألا تهجوه؟ قال: إذاً يقف على المجالس سنة يصف أنفي لا يعيد حرفاً».

زاد صاحب الأغاني مع بعض الأختلاف:[2]

---

(١) ٢/٤١٦.

(٢) ٢٠/٣٦٢.

«إذاً والله يركب بغلتـــه ، ويـــطوف في مجالس البصرة ، ويصف ابنيتي (وقيل ابنتي) بما يعيبها ، وما عسى أن يضر الإنسان صفة ابنيته بما يعيبها سنة ثم لا يعيد فيها كلمة .

وفي معجم البلدان وردت الجملة : «إذن والله يركب بغلته ، ويطوف في مجالس البصرة ، ويصف ابنتي بما يعيبها»[1].

---

(١) ١١/٢٧ .

فكـرة نابيـة(*)

عنـدمـا تسيـطر فكرة ما على ذهن إنسان فإنها أحياناً تعميه عما فيها من جوانب تحمل نقصها أو نقضها ، فتأتي مخالفة لما ذهب إليه مؤلفها ، فإن كان أراد نفعاً فقد تأتي بضرر ، وإن هدف إلى كسب فقد توقع صاحبها في خسارة ، وإن قصد أن يَغلِب فقد يُغلَب من حيث لم يحتسب ، ويفاجأ بما لم يخطر له على بال ، ويأتيه الخلل من مأمنه ، وقد يطمح إلى أن يبيع فكرة على آخرين ، فتصبح بضاعته كاسدة ، وتـأتي مزجـاة ترد عليه ، وقد يؤمل أن ينشر فكرة طرأت له ، واستحسنها ، وظن أن الناس ، لحماسه لها ، وإعجابه بها ، سوف يصدقونها ويقبلونها ، فإذا هي تأتي وفيها ما يكشف زيفها ، ويبين تأليفها وتلفيقها .

وقد يجهل الناس مع مرور الزمن اسم مؤلفها ،

(*) نشرت في صحيفـة عكـاظ بالعـدد (٩٥٣٥) في ١٤١٣/٣/٨هـ المـوافق ١٩٩٢/٩/٥م .

ولكنهم ينبذونها عند النقد ، ويرفضونها عند التبصر ، وإن قبلها غير العارف أو المتدبر ، واستساغها غير المتعمق ، بصرف النظر عن المؤلف أو زمنه ، أو الكتاب الذي وردت فيه ، وفي القصة التالية ما يكشف فكرة طريفة جالت في ذهن شخص ، وألبسها ثوباً ظنه جميلاً ، وأخرجها إخراجاً ظنه حسناً ، وحبكها حبكاً ظنّه متقناً ، ولكن بريق الثوب لم يعم الناقد عن كشف الحقيقة ، والإخراج لم يحجب عن عين المتبصر الخلل ، والحبك تبين للمتدبر فيه ما وهن ووهى :

«لما حاصر خالد بن الوليد أهل الحيره . قال : ابعثوا رجلا من عقلائكم ، فبعثوا عبدالمسيح بن عمرو (بن بقيلة الغساني ، معمر من الدهاة له شعر وأخبار ، يقال إنه باني قصر الحيرة ، عاش في الجاهلية والإسلام ، وظل على النصرانية ، وتوفي نحو سنة ١٢هـ) . وكان نصرانياً ، فجاء ، فقال لخالد : أنعم صباحاً أيها الملك . فقال : قد أغْنانا الله عن تحيتك هذه ، فمن أين أقصى أثرك أيها

الشيــخ؟ قال : من ظهــر أبي . قال : فمن أين خرجت؟ قال : من بطن أمي . قال : فعلام أنت؟ قال : على الأرض. قال : ففـيم أنت؟ قال : في ثيابي . قال : أتعقل؟ قال : أي والله وأقيد . قال : ابن كم أنت؟ قال : ابن رجل واحد . قال خالد : ما رأيت كاليـوم ، أسـألـك الشيء وتنحـو غيره! فقال : ما أنبأتك إلا عما سألتني»[1] .

في غمـرة عرض هذا الحـوار الطريف المتخيّل نسي مؤلفـه مداخـل الاعـتراض المفتـوحة ، والتي يمكن أن يدخل عليه منها ؛ فيُنقض غزله ، ويُهدم بنَاؤه . ولن ندخل في تحقيق تاريخ وفاة عبدالمسيح ، وهل هو في عام (١٢) للهجرة ، وهل يتوافق هذا مع ما دوّن عن فتح الحـيرة ، وما جـرى حولها من حوادث ، فهـذا أمـر يأخذنا بعيداً ، ولكننا سوف نكتفي بالنظر في النص والظرف الحربي الذي ادّعى مؤلف القصة أنه وقع فيه :

---

(١) أخبار الظراف ٩٨ .

في ضوء ما نعـرفه عن خُلُق المسلمين في ذلك الوقت ، وبالذات قوّادهم ، فالظرف الحربي يجعل خالد بن الوليد في شغل عن مثل هذا التفكةّ . وهو إن طلب محادثـة شخص من المحـاصَرين فسـوف يطلب مقابلة شخص في موقع الحكم أو المدافعة عن المدينة ، أو من يمثلها ، حتى يفاوضه لما فيه صالح جنده من مكسب مع حقن الدماء ، وتقديم العذر في التبصير بما ينتظر المدينة من كارثة ، حتى يكون هناك عذر فيما بعد عن الملامة . ويجعل ممثل المدينة يَطَّلع - عرضـا - على ما قد يخيفهُ من قوة الجيش وتمـاسكه ، وما هو عليه من روح متوثبة ، وطاعة لقواده متناهية ، وما يظهر منه من تصميم ومثابرة . لا أن يدخل معه في جدل تافه عقيم ، لا فائدة منه ، ولا هدف يخدم الموقف ، جدل ينصبّ على التلاعب بالأسئلة والاجوبة ، ويجعل الأمر كله يظهر بمظهر أبعد ما يكون عن الجد ، وما تقتضيه هيبة الحصار والحرب .

وخالد وعبدالمسيح عربيان يتكلمان لغة واحدة ،

وأفكـارهمـا في فنـونها ومجاريها ومراميها تجريان في مجرى واحد . ولن يجرؤ عبدالمسيح أن يهزأ بخالد ، ويـطوح بالأجوبة يميناً ويساراً ، بعيداً عن مرمى الأسئلة الـطبيعي ، ومسارها الواضح . ولن يقبل خالد أن يستمر في هذا النسق لو بدأه عبدالمسيح . ولا بد له من الاحتفاظ بمقامه أمام قواده ورجاله . والمُتَصوَّر أن عبدالمسيح لو بدأ شيئاً من هذا النهج لنهره خالد نهرة تهز كيانه .

وخالد في موقف مثل هذا لا يطلب رؤية شيْخ هرم لمجرد التفرج عليه ، لأنه سمع عنه ، ولو أن طلبه للشيخ جاء بعد أخذ الحيرة لكان الحوار أقرب للقبول ، أما أن يأتي أثناء الحصار ، وبهذه الصفة ، وعـلى هذا النسق ، وبهذا الطول ، وهذا الاقتسار فغير معقول .

ونحن أولى بنا أن ننظر إلى خالد ، وردّه الجاد عنـدمـا سلم عليـه عبـدالمسيـح بتحية الجاهلية ، فحـرص خالـد الاّ يضيـع فرصةً يبيّن فيها تعاليم الإسلام ، وهذا لائق بخالد ، ومتماش مع الموقف ،

ولا بد أن عبدالمسيح أدرك من هذا جدية الموقف، وَوَزن قبيله، فتحدث بجد يؤكد ما سمع عنه خالد من عقل، والعقل يوجب أن يتقرب عبدالمسيح من خالد، فيأتي بالقول الليّن الذي يكسبه قلبه، لا أن يعمد إلى أسلوب هو أقرب إلى الهزل والسخرية، موقف يتنافى مع موقف خالد الحازم الجاد، الذي حرص على أن يثبته في أول خطوة من اللقاء.

إذاً فالمنتقد والمشكوك فيه هو بقية القصة، وللأسباب التي تقدمت، يضاف إليها ما يظهر لنا من تكلف مقتسر، وافتعال واضح، واستطراد ساذج في صياغة الأسئلة، وما جاء عليها من أجوبة، والتكلف في أهدافها ومراميها؛ فقول خالد: من أين أقصى أثرك؟ ظاهر فيه الافتعال، وضعف الهدف، إن لم يكن إنعدامه؛ لأنه ليس السؤال المعتاد طرحه - بدءاً - على القادم. وقوله: من أين خرجت؟ لا داعي له؛ لأنه يعرف - يقيناً - من أين خرج. وقوله: فعلام أنت؟ فغير مقبولة البتة؛ لأنها لا توصل إلى مفيد، فإن كان يقصد

حالهُ من النعمة ، فليس هذا وقت السؤال عن مثل هذا ، وإن كان السؤال عن الصحة ، فليس الخبر كالعيان ، وليس هكذا يصاغ السؤال عنها . والله أعلم أن الجواب ولد في ذهن مؤلف القصة قبل السؤال ، ولعل جاذبية اللفظ في الجواب أنست المؤلف الالتفات إلى المعنى ، وحجبت عن بصيرته نُبوّ الهدف . ومثل هذا السؤال والجواب تماماً قوله ففيم أنت ؟

ثم ما الموجب لقول خالد لعبدالمسيح أتعقل ؟ ألم يطلب أعقل من في الحيرة ؟ ثم هل هناك إهانة أبلغ من سؤال شيخ يعتبر من أعقل أهل بلدهِ عن عقله ، وهل يتوقع أن يؤكد عقله فيقول : نعم ، أو ينفيه ويقول : لا . ولكن معلومات المؤلف عن «العاقلة» و «القود» في الفقه أغرته بنحت سؤال لهما ، حتى لو كان النحت في صخر ! ثم إذا كان يريد أن يسأله عن عمره لماذا يبهم ويوهم بتعبير غير المعتاد ؟ ابن كم أنت ؟ ولكن الجواب هو المخطِّط للسؤال .

الفكرة في مجملها طريفة، ويبدو أنها تستهوي بعض الأدباء، ولهذا جاءت الفكرة نفسُها بصور مختلفة، وفي عصور مختلفة، وعلى ألسنة أشخاص متباينين، وفيها دائماً من التلاعب بالألفاظ ما يؤكد افتعالها واختلاقها. ولكنها مقبولة إذا عرف أن مؤلفها أراد أن يُرِيَ براعته في اللغة، وقدرته على عرض ثقافته فيها:

«قال المبرد: قال رجل لهشام بن عمر الفوطي: كم تعد؟ قال: من واحد إلى ألف ألف. قال: لم أرد هذا. قال: فما أردت؟ قال: كم تعد من السن؟ قال: اثنان وثلاثون: ستة عشر من أعلى، وستة عشر من أسفل. قال: لم أرد هذا. قال: فما أردت؟ قال: كم لك من السنين؟ قال: ما لي منها شيء، كلها لله - عزّ وجل - قال: فما سنك؟ قال: عظم، قال: فابن كم أنت؟ قال: ابن اثنين: أب وأم. قال: فكم أتى عليك؟ قال: لو أتى عليّ شيء لقتلني، قال: فكيف أقول؟ قال: قل: كم

مضى من عمرك ؟[1]

كل هذه الأسئلة عن السن والقصـــة تُرِي أن المسؤول لم يعرف ما المطلوب ، ولكن في الحقيقة هو يعرف المطلوب ، ولعله عرفه من أول سؤال ، بدليل أن السـائل لما احتار طلب النجدة من المسؤول ، فأسرع لنجدته ، وهبّ لانقاذه ، فدلّه على الصيغة التي تأتي بالجواب المطلوب ! !

(١) أخبار الظراف ٩٨ .

خيال مجنح(*)

يبدو أنها كانت عادة يجري عليها بعض الأدباء في عصور الأدب المزدهرة تلك التي كانوا يؤلفون فيها قصصًا يحمّلونها بعض الأفكار التي تجول في أذهانهم، ويريدون لها الانتشار والذيوع . وهي أفكار تولّدت نتيجة تفكير عميق ، أو جاءت عن طريق الصدفة ، أو الملاحظة العابرة . وهذه الأفكار تحمل رأياً سياسياً أو دينياً أو اجتماعياً أو أدبياً . ويرون أن هذه الطريقة أضمن للقبول والبقاء ، وأسرع في الانتشار وأثبت في التبليغ ، وأقل جلبا للاعتراض والنقد ، مما لو جاؤا بالفكرة في صورة حقيقية مجردة .

وزيادة في ضمان الوصول إلى الهدف يلصقونها بآخرين ممن لهم قيمة في نظر المجتمع ، واعتبارٌ في عين القارئ، وأذن السامع . ويختارون لكل غرض

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٥٤٢) في ١٥/٣/١٤١٣هـ الموافق ١٢/٩/١٩٩٢م .

الشخص المناسب، وأحيانا يختارون العصر أو الزمن، أما المسرح فسهل اختياره، وإقامة متطلبات القصة فيه.

ويزيد الاقتناع بنهجهم هذا النهج، واختيارهم هذا الأسلوب، ما يمرّ على الناظر في التراث من قصص تؤكد هذا. وقد لاحظت أن من العناصر الملازمة لهذا الأسلوب أن تطعّم القصة بالطرافة والفكاهة، إن لم تعتمد عليها كلية. فهل ياترى أن هذا فعلاً مقصود - كما يتراءى لنا - وهل فعلاً أنه هدف رئيس، حتى تكون الفكرة - على جناح القصة الفكهة - أقرب لاجتذاب الناس، وأصلح للتداول في المجالس والمنتديات، والاقتباس في الكتب والرسائل. وهذا يساعد على انتشارها وشيوعها، ويؤكده.

ومدخل الشك في أنها وقعت حقيقة يأتي من عدة طرق أولها الاتقان المتناهي الذي لا يسمح به الارتجال، إذا كان الأمر فيه مفاجأة، وتوحي جوانبه

في أنــه محبر ومهيــأ، وليس ابن وقتـه، أو وحي ساعتـه. وثـانيها أن القول لا يلائم من قيل على لسـانه، رغم حرص المؤلف على إتقان الإلباس، وسدّ مداخل الخلل. وثالث الجوانب التي يأتي منها الشك الاستطراد الذي لا يكون عادة في مثل هذه المـواقف. ورابعهـا أن يتضـح أن القصـة جاءت لتخـدم الفكـرة، دون محاولة لاخفاء ذلك، فتأتي الحجج متتالية، ومعها أقوال معضدة، ومع الحماس ينسى المؤلف أن هنـاك حججـاً تخالفهـا، وأراءً تنـاقضهـا، قد تكـون أقوى منها لو سمح لنفسه بالتدبّر والتبصر، ووضع نفسه في مكان المعارضة، واتخذ مجلسه في الصف المقابل.

هناك قصة يمكن أن تلمح فيها تلك المعالم:

«قال أحمد بن المعدل: كنت جالسا عند عبدالملك ابن عبدالعزيز الماجشون، فجاءه بعض جلسائه، فقال: أعجوبة! قال: ما هي؟ قال: خرجت إلى حائـطي بالغـابـة، فلما أصحـرت، وبعـدت عن

البيوت ، تعرض لي رجل ، فقال : إخلع ثيابك . قلت : وما يدعوني إلى خلع ثيابي ؟ قال : أنا أولى بها منك . قلت : ومن أين ؟ قال : لأني أخوك ، وأنا عريـان ، وأنت مكتس . قلت : فالمـواسـاة (أي المقاسمة) . قال : كلا ، قد لبستَها برهة ، وأنا أريد أن ألبسهـا كما لبستَهـا . قلت : فتعريني ، وتبدي عورتي ؟ قال : لا بأس بذلـك ، فقـد روينـا عن مالك أنه قال : لا بأس للرجل أن يغتسل عريانا . قلت : فيلقاني الناس فيرون عورتي ؟ قال : لو كان الناس يرونك في هذا الطريق ما عرضت لك فيها . فقــلت : إني أراك ظريــفــاً ، فدعـني أمضي إلى حائـطي ، وأنـزع هذه الثياب ، وأوجه بها إليك . قال : كلا ، أردت أن توجّه إليّ أربعة من عبيدك ، فيـحـمـلوني إلى السلطان ، فيحبسني ، ويمــزق جلدي ، ويـطرح في رجـلي القيد . قلت : كلا ، أحلف لك أيـمانـا أنّي أفي لك بها وعـدتـك ، ولا أسوؤك . قال : كلا ، إنا روينا عن مالك أنه قال : لا تلزم الإيـمان التي يحلف بها للصـوص . قلت :

فأحلف لك أني لا أحتال في أيماني هذه . قال : هذه يمين مركّبة على أيمان اللصوص . قلت : فدع المناظرة بيننا ، فوالله لأوجهن هذه الثياب طيّبة بها نفسي . فأطرق ، ثم رفع رأسه ، وقال : تدري فيم فكرت ؟ قلت : لا . قال : تصفحت أمر اللصوص من عهد رسول الله ﷺ ، وإلى وقتنا هذا ، فلم أجد لِصًّا أخذ نسيئة ، وأكره أن ابتدع في الإسلام بدعة يكون عليّ وزرها ، ووزر من عمل بها بعدي إلى يوم القيامة . إخلع ثيابك ، فخلعتها ، ودفعتها إليه »[1] .

والقصة يبدو أنها ولدت بكاملها في ذهن صاحبها ، نتيجة معرفته ببعض الأحكام الشرعية ، التي قدمها بين يديه في هذا الجدل المفتعل ، . ولم يأت في ذهنه أن هناك من سيجيل الأمر في فكره ، ويعرضه على بوتقة الفحص ، فيعترض على طول المدة التي قضاها الاثنان في الحوار الهادئ ، والجدل

(١) أخبار الظراف ١٠٥ .

المتناسِق ، رغم أن أصول قطع الطريق تستوجب سرعة اتمام القصد ، والوصول الخاطف إلى الهدف ، وهـو أمر يؤدي دائماً - عند عدم الاستجابة - إلى العنف : ضربـاً أو إهـانة ، أو قد يصل إلى درجة القتل أو التشويه . فالطريق التي تظهر القصة أنها غير آمنـة لصـاحب الحـائط هي كذلـك غير آمنة للص ، فقـد يطرق الـطريق طارق ، وقـد يلحق بصاحب الحائط رفقة أو خدم .

ولم يأت في ذهن صاحب القصة أن من سطع في قلبـه نور الفقـه ، وشعـاع الدين الصافي ، نتيجة التعمق في فقه مالك ، وأصبح ذلك هو منطقه في الجدل ، وهو وسيلته في الحجاج ، يصعب تصديق أنه يقوم بمخالفته بمثل ما أقدم عليه اللص ؛ فنور الدين إذا شع في القلب ، وتعمق في الوجدان ، بدد ظلمات الاجـرام ، وقضى على عوامـل الإسـاءة ، وزرع بذرة شجـرة التقـوى ، وسقاها بماء الخير ، وحب المنفعة للآخرين ، وأورقت أغصانها بخضرة البعـد عن حب النفس ، والتسلّط ، والقـرب من

الإيثار والتسامح ، وتلمس جوانب الحسنى والفضيلة . وقد شهد بذلك موقف لأحَدِ الخلفاء عندما أتي له بمتهم بالزندقة والإلحاد ، وقدم له النطع ، ليقتل فوقه ، فصادف أن عطس الخليفة ، فبادر جلساؤه إلى تشميته ، ولم يشمته المتهم بالزندقة ، فلفت الخليفة نظره إلى نقص أدبه ودينه ، فقال المتهم : أنا على السنة وهم خالفوها . فقال له الخليفة : كيف ؟ قال له : لأنهم قالوا لك : يرحمك الله ، قبل أن تقول الحمد لله ، وأنا انتظرتك تقولها ، حسب تعاليم السنة . فقال الخليفة : فكوا قيده ، وأحسنوا صلته ، فوالله لا يجتمع فقه في الإسلام وكفر به في قلب واحد .

هذا هو المتوقع من رجل مطلع على الدين ، ودقائقه إلى هذا الحد من الإحاطة والعمق .

وشيء آخر نسيه القاص ، فالمال لم يأت له ذكر ، إذ لم يطلبه اللص ، وهو أول ما يتوقع أن يهتم به عادة ، ولم يعرض الرجل المراد سرقته أن يعطيه مالاً

أو يرسل إليه مالاً ، والحديث كله عن الثياب أخذها كلها أو بعضها ، الآن ، أو إرسالها فيما بعد . يبدو أنه لم يخطر المال على بال القاص ، لأنه منشغل البال بمادة القصة المختمرة في ذهنه ، والمسيطرة على تفكيره . ونسي أيضا - في خضم حماسه للفكرة المتسلطة - أن ملابس رجل ثري ، له بستان يدل على مبلغ ثرائه ، سوف تبدو نابية على صعلوك يقطع الطريق ، ويترصد المارة ، قابع في مخبأ في الصحراء لا عمل يكسب من ورائه ، ولا رزق تدرّه عليه أملاكه ؛ فملابس مثل هذا تكون وبالاً عليه ، لأنها ستدل على إجرامه .

نعود فنقول : إن القصة طريفة وممتعة وشائقة . ومن هذا الجانب فقد أدت الغرض ، وقاومت الزمن ، ونقلت في الكتب ، وتسلسلت فيها حتى وصلت إلينا مطبوعة ، محققة في كتاب أخبار الظراف والمتماجنين ، لابن الجوزي[1] .

(١) أخبار الظراف والمتماجنين ١٠٥ .

وهناك قصة تروى عن أبي العيناء، تقرب من هذه في المداخل عليها، وتوارد الاعتراضات، ولعلّ أبا العيناء ألّفها ليبرر نزوحه من البصرة، والانتقال منهـا انتقـالاً لا عودة منـه، فأخفى بها السبب الصحيح حتى يأمن العتب، ويتقى الملامة :

«قال أبـو العينـاء : كان سبب خروجي من البصرة، وانتقالي عنها، أني مررت بسوق النخّاسين يومـاً، فرأيت غلاماً يُنادَى عليه، وقد بلغ ثلاثين دينـاراً، وهو يساوي ثلاث مئة دينار، فاشتريته. وكنت أبني داراً، فدفعت إليه عشرين ديناراً على أن ينفقهـا على الصنـاع، فجـاءني بعـد أيام يسيرة، فقال : قد نفدت النفقة. قلت : هات حسابك. فرفـع حسـابا بعشرة دنانير. قلت : فأين الباقي؟ قال : اشتريت به ثوبا مصمتا (أي ذا لون واحد)، وقطّعته. قلت : ومن أمرك بهذا؟ قال : يا مولاي لا تعجل، فإن أهل المروءات والاقدار لا يعيبون على غلمانهم إذا فعلوا فعـلاً يعـود بالـزين على مواليـهم. فقـلت في نفسي : أنـا اشـتريت

الاصمعي ، ولم أعلم .

قال : وكانت في نفسي امرأة أردت أن أتزوجها سرًّا من ابنة عمي . فقلت له يوماً : أفيك خير؟ قال : أي لعمري ! فاطلعته على الخبر . فقال : أنا نعم العون لك . فتزوجت ، ودفعت إليه ديناراً . فقلت له : اشتر لنا كذا وكذا ، ويكون فيما تشتريه سمك «هازبي» ، فمضى ورجع . وقد اشترى ما أردت إلا أنه اشترى سمكا «مارماهي» . فغاظني . فقلت : أليس أمرتك أن تشتري «هازبي» ؟ قال : بلى ، ولكني رأيت بقراط يقول : إنّ الهازبي يولّد السوداء ، ويصف المارماهي ، ويقول : إنّه أقل عائلة . فقلت : أنا لم أعلم أني اشتريت جالينوس . وقمت إليه ، وضربته عشر مقارع : (أسواط) . فلما فرغت من ضربه أخذني ، واخذ المقرعة ، وضربني سبع مقارع ، وقال : يامولاي ، الأدب ثلاث ، والسبع فضل ، ولذلك قصاص ، فضربتك هذه السبع خوفاً عليك من القصاص يوم القيامة . فغاظني جداً ، فرميته ، فشججته ، فمضى من وقته

إلى ابنـــة عمي ، فقـــال لها : يامـــولاتي ، الــدين النصيحة ، وقال : قال النبي ﷺ : «من غشّنا فليس منـــا» ، وأنـــا أعــلمـــك أن مولاي قد تزوج ، واستكتمني ، فلما قلت له : لا بدّ من إعلام مولاتي ، ضربني بالمقارع ، وشجني .

فمنعتني بنت عمي من دخـول الدار ، وحالت بيني وبـين ما فيهـا ، فلم أر الأمر يصلح إلا بأن طلقت المرأة التي تزوجتها . فصلح أمري مع ابنة عمي ، وسمت الغـلام الناصح ، فلم يتهيأ لي أن أكلمه (لعلها أن أبيعه) . فقلت : أعتقه وأستريح ، لعله أن يمضي عنّي . فأعتقتـه ، فلزمني ، وقـال : الآن وجب حقك عليّ .

ثم إنه أراد الحج ، فجهزته ، وزودته ، وخرج ، فغاب عليّ عشرين يوما ، ثم رجع ، فقلت له : لم رجعت؟ قال : قطع الـطريق ، وفكـرت فإذا الله تعـالى يقـول : ﴿ولله على النـاس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ . [آل عمران : ٩٧] ، وكنت غير

مستطيع، وفكّرت فإذا حقّك عليّ أوجب، فرجعت.

ثم أراد الغزو، فجهزته، فشخص، فلما غاب عني بعت كل ما أملكه بالبصرة من عقار وغيره، وخرجت عنها خوفاً أن يرجع[1].

وقصة أبي العيناء مثل سابقتها أحد أركانها الفقه والـدين، ومناطق ضعفها أقل ما فيها أن بامكانه بيعه بأبخس ثمن، مثلما اشتراه به. ولكنه غمغم عندما عرضه للبيع.

وكـان بامكـان أبي العينـاء أن يستمـر في سرد الطرائف المتخيلة، فيملأ صفحات وصفحات، ولكنّـه ختمهـا بارسـاله للجهاد، وهروبه هو من البصرة. وأبو العيناء ليس إبرة وسط تبن، لو أراد المـولى أن يجده لوجـده، ولكن أبا العيناء أراد أن تكون هذه خاتمة القصة فكانت.

ليس أمامنا إلا أن ننظر إلى هذه القصص نظرتنا

(١) أخبار الظراف ١١٢.

إلى قصص زماننا، طويلها وقصيرها، التي يؤلفها مؤلفوها، ويقولون إنها متخيلة، ويتخذونها مطية لعرض أفكارهم، ومعتقداتهم.

وصاحب القصة الآتية ليس الذي يغريه أن يبرر عمله المنتقد بالفقه والأحاديث، فلعل اهتمام الناس في ذلك الزمن شحذ اذهانهم إلى الالتفات إلى هذه الناحية، طلبا للبروز والظهور في مجتمعهم؛ هذا بهلول يلجأ إلى الحديث ليبرر ما رؤي أنه محل ملاحظة:

قال أبـو حنيفة السائح لقيت بهلول المجنون، وهو يأكل في السوق، فقلت: «يا بهلول، تجالس جعفـر بن محمـد، وتـأكل في السوق»؟! فقال: حدثنـا مالك بن أنس عن نافع عن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مطل الغني ظلم» ولقيني الجوع، وخبزي في كمي، فلما أمكنني أماطله»[1].

(١) أخبار الظراف ١١٩.

وهكذا يحني بهلول الحديث ليلائم غرضه ، ويرد على من رأى أن الأكل في السوق مزر بشرف من يجالس نبيلا مثل جعفر بن محمد ، وهذا في زمنهم إنقاص للكرامة ، وإنزال للاعتبار ، وخدش للمروءة .

منظر بشع (*)

منظر الذين إذا رأوا حادثا من حوادث السيارات مثلا على طريق من الطرق تجمعوا وتجمهروا ، وسدوا المنافذ ، ووقفوا يتفرجون ، ويتلذذون بمصائب الناس وآلامهم . إنه حقاً منظر بشع ومزر ، وهو غير حضاري ، ويدل على بدائية في التفكير متناهية . وقد يتسبب هؤلاء بتجمهرهم في حادث آخر يحدث ، وكارثة أخرى تحل قد تكون في ذاتها ونتائجها أكبر من الأولى ؛ لأنهم يوقفون سياراتهم يميناً وشمالاً ، فتزحم الطريق ، ولا يتنبه السائقون لسد الطريق وازدحامه إلا بعد أن يصلوا إلى نقطة استعمال الكوامح المفاجئ يأتي بما لا تحمد عقباه ، لأن المفاجأة تؤدّي إلى تصرف خاطئ عند محاولة تفادي هذه العراقيل ، فيقع السائقون في المحذور المميت . وهذا الازدحام يضيف عبئاً على

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٥٤٩) في ٢٢/٣/١٤١٣هـ الموافق ١٩/٩/١٩٩٢م .

رجال المرور والاسعاف والسيارات الرافعة ، مع أن توسعة الطريق ، وإيجاد المنافذ قد يكون فيها إنقاذ لحياة المصابين .

مثل هذه المناظر المنتقدة لا تراها في البلدان المتمدنة ، التي نشأت حضارتها الخاصة بالسيارات والمرور تدريجياً ، وأُعطيت الوقت الكافي للنضج والهضم ، واستيعاب أنظمة المرور ، وآداب السير ، وحضارة الآلة أياً كانت . هناك عندهم قد يصطدم سائق سيارة مع سائق آخر ، فيقف الاثنان على جانب الطريق ، ويُحيّي أحدهما الآخر ، ثم يتبادل الاثنان وثائق التأمين لثوانٍ ، ينقلان منها ما يحتاجانه من معلومات . ثم يفترقان متصافحين متصافيين ، كأنه لم يحدث بينهما شيء .

كنت أظن أن أمر تجمهر الناس على من وقع في مشكلة من المشاكل ، أو مسك في ريبة مظهر من مظاهر زمننا ، في شرقنا العربي ، وخاص بمحيطنا الحديث بما فيه من وسائل مواصلات ، ولكني

وجدت أن الشكوى من التجمهر، والسير في مظاهرة خلف المخالف، والفرحة بالحوادث، والشماتة بأصحاب المصائب والمنكوبين، والتمتع برؤية آلامهم، أمور قديمة، عانت منها مجتمعات آبائنا وأجدادنا، ولم يخل الأمر من ملاحظة ممن يعنيهم أمر المجتمع وصلاحه. وأقدم نص يمكن أن أقدمه للقارئ من تراثنا في هذا يعود إلى زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقد أبدى ملاحظة على أمثال هؤلاء الناس، تدل على أن صدره ممتلئ غيظاً على هؤلاء الذين يتجمهرون ويتبعون المذنبين، تلذذاً بمظاهر الكوارث والعيوب والنكبات والحوادث:

«روى صاحب العقد الفريد أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - نظر إلى قوم يتبعون رجلاً أخذ في ريبة، فقال: لا مرحبا بهذه الوجوه التي لا ترى إلا في كل شر»[1].

(١) العقد الفريد ٢/ ٢٩٥.

ترى هل ما يبـديه هؤلاء الناس يعود فقط إلى غريـزة حب الاستـطلاع ، وقـوتها عند الإنسان ! ولماذا لا تكون عند كل الناس ، ولماذا لا ترى إلا عند بعضهم ممن لا بد أن لهم صفات تؤهلهم لهذا ، أو تشدهم إليه . أم ترى أن مرد هذا إلى شيء في داخلهم لو اكتشفوه لخجلوا منه ، ولذعروا ذعراً لا يشابهه ذعر ، لبشاعته وسوئه ، وأن هذا الشيء ، هو أنهم - دون أن يدروا - يتلذذون بما يقع للآخرين ، وتـزيـد لذتهم كلما عرفوا التفاصيل المؤلمة ، ورأوا شدة تعقد الأمور ، وما يؤدي إليه الأمر أحياناً من تماسك بالأيدي .

ونحن نقول مثل ما قال عمر : لا مرحبا بهذه الوجوه .

مجمع الآراء(*)

دخل حياتنا عنصر جديد، احتل منها مكانا واسعاً عريضاً، جاء به الوعي الصحي، والرخاء الذي يعيشه الناس اليوم، وأصبح هذا العنصر شغل الناس الشاغل : في الصحف، وفي الراديو، وفي التليفزيون، وفي الكتب، وفي النشرات، وفي الندوات، وفي أحاديث الناس في مجالسهم. وكلما تقدمت السن بالمرء ازداد اهتماما بهذا العنصر، ومراعاة له، وتطبيقاً له بدقة إن أراد الراحة والسعادة، وتوفر العافية، أو اختار إهمال ذلك، والتعرض للمحاذير التي وراء ذلك. تهتم به النساء خاصة، في هذا الزمن، لأنه يتعلق بما يجعلهن في عين الرجل مقبولات، وفي عين النساء الأخريات محسودات أو مغبوطات. والجسم وتناسقه جزء مهم في اكتمال الجمال لهن، أو المحافظة عليه، والجمال

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٥٥٠) في ١٤١٤/٣/٢٣هـ الموافق ١٩٩٢/٩/٢٠م.

رأس مال المرأة في كل زمن، وفي كل مجتمع، وعند كل سن.

ليس الأمر لغزاً، ما عنيناه هو مراعاة أصول الصحة في الأكل، وأمر «الريجيم»، هذا الذي أصبح شغل الناس الشاغل، وأوقفهم على قدم وساق. وإذا كان هذا الأمر برز الآن في حياتنا بهذه الهيئة، وأعطيناه هذا الاهتمام، فإن هذا لا يعني أن الأمر لم يكن معروفا عند الاقدمين. لقد ثبت أن لهم من الاهتمام به ما يلفت النظر، ويجلب الالتفات، ويدعو إلى الاعجاب.

وقياس ما تتحمله المعدة، وما يناسب الجسم، ويجيب داعي الصحة، أمر أخذ من تفكيرهم حيزاً واسعاً. ولعل من أقدم ما نذكره ما رسمه الدين من أن يكون ثلث المعدة للأكل، وثلثها الثاني للماء، والثلث الثالث للنَّفَس، وقول «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع»، وهذا أمر يجب ألا يغيب عن الاذهان.

ولعل العرب في أوائل الإسلام كانوا يراعون هذا ، ويتقيدون به ، ولكنهم بعد العصر الأول من الإسلام ، وبعد أن اختلطوا بالأمم الأخرى ، وبعد أن أخذوا بأسباب المدنية في أمور الطبخ ، وتحضير الموائد ، والحرص على أنواع الأطعمة ، والاهتمام بما يستجد منها ، وما يُطوَّر ، صار لهم حديث وحديث ، مثلما لنا ، في هذه الأيام ، أحاديث وآراء .
ولعل السبب عندنا وعندهم هو التفاوت في النظرة إلى ما ينفع الجسم ، بعد أن أبعدنا ، مثلما أبعدوا عن الحقائق المبسطة الثابتة ، وهي أن الأجسام تختلف ، والامزجة تتفاوت ، والأذواق تتباين ، وما يشتهيه شخص لا يقبله آخر ، وما يفضله إنسان ينفر منه ثانٍ ، وما يتناسب مع جسم لا يصلح لجسم آخر . وحتى الطب الحديث اليوم يختلف رأي علمائه من يوم إلى يوم ، فطبيب يركز على شيء ، وآخر يهتم بغيره ، وما يقال اليوم أنه سبب في السمنة ، قد لا يكون هو نفسه غداً ، وما يصلح أن يكون اليوم في نظر طبيب برنامجاً يومياً مثالا ، هو ليس كذلك في

نظر صاحب مدرسة أخرى . وهكذا .

والـذي يجتذِبُنا اليوم من التراث عن هذا الأمر سؤال طرح قديـماً على أشخـاص أجـابوا عليه بما ارتأوه ، تماما كما يفعل الصحفي اليوم عندما يلقى سؤالا على عدد من الأشخاص ، واحداً بعد آخر ، ويـطلب منهم الجـواب ، ويقـارن بين إجـابة كل منهم ، ويجـد أن كل واحد قد استقى الجواب من زاويـة تختلف عن الآخر ، وأن كل واحد قد اتخذ سبيـلا مغايراً للطريق التي سلكها الثاني ، واختار شعبة تتناسب مع ميوله ورغباته .

وسنرى من إجابات الناس في الماضي ما عكس نظرتهـم بصـدق وحـق ، فإجـابـاتهـم تأثـرت بشخصياتهم ، وما هـم عليه ، فالصـوفي نظـر إلى الأكل من زاوية الصوفية ، ولهذا عندما سئل - كما رواه صاحب الامتاع والمؤانسة - عن حد الشبع ؟ أجاب[1] :

---

(١) ٣/ ٢٠ .

«لا حد له ، ولو أراد الله أن يؤكل بحد لبين كما بين جميع الحدود . وكيف يكون للأكل حد ، والأكلة مختلفوا الطباع والمزاج والعارض والعادة ، وحكمة الله ظاهرة في إخفاء حدّ الشبع حتى يأكل من شاء على ما شاء كما شاء» .

هذا الصوفيّ نظر إليه من زاوية خاصة به ، ولعله أبعد عما أراده السائل بقوله «حد» ، فقاسه بحدود الله في العقاب ، مثل حد السرقة ؛ لأنه يستبعد على مثله أن يجهل الأحاديث الواردة في عدم الشبع إلى حد الجشع .

والصوفي الثاني كان أقرب إلى فهم السؤال كما ألقاه ملقيه ، فكان جوابه أقرب ممثل لرأي الصوفية والمتعبدين ؛ فقد أجاب على سؤال السائل : ما حد الشبع ؟ بقوله :

«ما نَشَّط على أداء الفرائض ، وثَبَّط عن إقامة النوافل» .

أما الطفيلي فكانت إجابته لائقة به :

«أن يؤكل على أنه آخر الزاد، ويُؤتَى على الجل والدق».

أما الطبيب فقال:

«ما عدل الطبيعة، وحفظ المزاج، وأبقى شهوة لما بعد».

ولعل قول الطبيب هذا أقرب إلى ما دعت إليه السنة، وحث عليه الشرع، خاصة قول الطبيب: «وأبقى شهوة لما بعد» لأنه يتماشى مع «وإذا أكلنا لا نشبع».

وقال مكارٍ (وهو من يؤجر حماره للحمل داخل المدن)[1]:

«والله ما أدري، ولكن أحب أن آكل ما مشى حماري من المنزل إلى المنزل».

ولما قيل لجمّال (وعمله قريب من المكاري وهو من يؤجر جمله بين المدن) ما حد الشبع؟ قال:

---

(١) الامتاع والمؤانسة ٣/ ٢٠.

«أنا أواصل الأكل ، فما أعرف الحد ، ولو كنت انتهي لوصفت الحال فيه ، أعني أني ساعةً ألتّ الدقيق ، وساعةً أمل الملة ، وساعةً أثرد ، وساعةً أكل ، وساعةً أشرب لبن اللقاح ؛ فليس لي فراغ فأدري أني بلغت من الشبع ، إلا أنني أعلم في الجملة أن الجوع عذاب ، وأن الأكل رحمة ، وأن الرحمة كلما كانت أكثر كان العبد إلى الله أقرب ، والله عنه أرضى»[1] .

أنظر كيف ، في نهاية قوله ، عدل الماء قسرا إلى الحوض الذي يعنيه ، وأدفأ الجانب الذي يريحه ، واستفاد من جملة ، فحمل عليها ما قد لا تكون تتحمّل ، وأثقلها بما لا تطيق ، وختم قوله بما يوهم أنه قول الدين ، حتى يقوّي ضعفه ، ويشد أزر ما قد يكون متهاوياً من منطقه وحجته ، أو ضعيفاً في خط دفاعه ، وجدار حصنه .

والاجابات على هذا النمط ، من أصحاب المهن

---

(١) الامتاع والمؤانسة ٣/٢٣ .

المختلفة ، والفئات المتباينة ، تتتالى في هذا الكتاب ، ولكننا سوف نقتصر على بعض منها ، وفيه ما يوجب التأمل والتعجب والاعجاب : قيل لأعرابي : ما حد الشبع ؟ قال :

« أما عندكم ، يا حاضرة ، فلا أدري ، وأما عندنا في البادية ، فما وَجَدَت العين ، وامتدت إليه اليد ، ودار عليه الضرس ، وأساغه الحلق ، وانتفخ به البطن ، واستدارت عليه الحوايا ، واستغاثت منه المعدة ، وتقوست منه الاضلاع ، والتوت عليه المصارين ، وخيف منه الموت »[1] .

أما القول الآتي ، فهو من منجم لا يستغرب أن يأتي منه مثل هذا المعدن ، فماذا يتوقع أن يجيب به البخيل إذا سئل مثل هذا السؤال ؟! هذا هو جوابه :

« الشبع حرام كله ، وإنما أحل الله من الأكل ما نفى الخَوى ، وسكّن الصداع ، وأمسك الرمق ،

---

(١) الامتاع والمؤانسة ٣/ ٢٠ .

وحال بين الإنسان وبين المرح ، وهل هلك الناس في الدين والدنيا إلا بالشبع والتضلع والبطنة والاحتشاء . والله لو كان للناس إمام لَوَ كّل بكل عشرة منهم من يحفظ عليهم عادة الصحة ، وحالة العدالة ، حتى يزول التَّعَدّي ، ويفشو الخير»[1] .

ما ذكرناه لا يعطينا فكرة فقط عن اهتمام بأمر طاقة البطن ، وحدّ الشبع ، وانعكاس ذلك على الصحة أولاً ، ثم العمل ثانياً ، ولكن أيضاً يؤكد أن الأسلوب الصحفي الذي نعرفه اليوم ، والمتبع في زمننا لاستطلاع الآراء في أمر يحتاج فيه إلى معرفة ما يراه الناس في مهنهم المختلفة وثقافاتهم المتعددة ، وأمزجتهم المتباينة ، وطبائعهم المتقاربة أو المتباعدة ، ليس جديداً ، وإنما هو اختراع آبائنا الأولين ، وسبقهم ، وما نحن ، أو غيرنا ، الا مقلدون . نحن نأكل من فتات مائدتهم ، ونسير نحن ، وغيرنا ، في غير قليل ، في ظل دوحة نمّوا

(١) الامتاع والمؤانسة ٣ / ٢١ .

أغصانها ، وشعّبوها ، ونحن نكتشف بين آن وآخر أن لهم سبقاً فيها كنا نظن أنه من إبداعنا في عصرنا هذا عربياً أو أعجميا . ومثل هذا الاكتشاف أو الإدراك ، نتيجة ما نعثر عليه في كتب التراث ، يؤكد وجوب العناية بتراثنا واستنطاقه ، وسبر أغواره ، حتى نربط الحاضر بالماضي ، ليكون البناء قوياً .

ولنطلع على رأيين غير مجتمعين ، وهما أقرب إلى التنافر ، وهما قولان اعتمدا على التجربة ، والمقابلة بين صاحبي الرأيين طريفة :

كان محمد بن جرير الطبري لا يأكل الدسم ، وإنما كان يأكل اللحم الأحمر الصرف ، ولا يطبخه إلا بالزبيب ، وكان يقول : «السمين يلطخ المعدة» ، وكان يتجنب السمسم والشهد ، ويقول : «إنهما يفسدان المعدة ، ويغيران النكهة» ، ويقول : «إن التمر يلطخ المعدة ، ويضعف البصر ، ويفسد الاسنان ، ويفعل في اللحم كذا وكذا» .

فقال له أبو علي الصواف : «أنا آكله طول

عمري ، ولا أدري منه إلا خيراً» . فقال أبو جعفر : «وما بقي على التمر أن يعمل بك أكثر مما عمل» . قال : وكـان الصواف قد وقعت أسنانه ، وضعف بصره ، ونحف جسمه ، وكثر اصفراره[1] .

---

(١) معجم الأدباء ١٨ / ٩٠ .

الكريم الغريب(*)

تعارف الناس على أن الله - سبحانه وتعالى - إذا سلب إنساناً حاسة من حواسه عوضه عنها قوة في إحدى حواسه الباقية، وأعطاه فيها حدة وصفاءً، ليكون في ذلك تعويض له، وتعزية عما فقده، وليكون له في هذا امتياز على غيره، فالأعمى مثلاً، إن لم يعوض بزيادة في الذكاء عوض بزيادة في دقة حاسة اللمس، وإن لم يكن في واحدة من ذينك كان في زيادة السمع وقوته.

والمتتبع لمن يعرف ممن فقد السمع أو البصر أو الشم أو اللمس أو التذوق يجد أن هذا له ما يؤكده، وقد برز بين فاقدي البصر من فاقوا أندادهم من المبصرين في بعض المجالات: وطه حسين أحد هؤلاء، ومن بين من برزوا ممن فقدوا السمع مصطفى صادق الرافعي، إذ لم يَعقه فقده

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٥٦٣) في ٧/٤/١٤١٣هـ الموافق ٣/١٠/١٩٩٢م.

للسمع عن أن يكون على قمة قائمة الكتاب المسلمين والأدباء في زمنه ، وأن يترك تراثاً يعتز به قوة لفظ ، وحسن سند ، ونبل معنى .

ولم أتطرق للأقدمين الذين تغص بأسمائهم وسيرهم كتب التاريخ من علماء في الحديث والفقه والأصول ، أو في الأدب شعره ونثره ، أو التاريخ . فهناك صفحات مشرقة تشهد لهؤلاء بالذكاء ، والقدرة على الإنتاج الذي قصر دونه كثير من الأسوياء ، وبعض ما يروى عنهم يكاد لا يصدق لغرابته .

ومن يستمع في بعض المجالس اليوم يسمع غرائبَ عن مكفوفي بصر يروى عنهم ما يشبه الخيال : هذا رجل يسافر من بلدة إلى بلدة ، ومعه عنز تمشي خلفه ، ويحمل هو ابنتها ، فإذا أحس أن الأم ابتعدت عنه عض إذن ابنتها ، فتثغو الصغيرة من الألم ، فتركض الأم مقتربة منها ، وملازمة لها . والمسافة بين البلدتين ثلاثين كِيلا ، كلها دعوس

ورمـال وحزون . ويضع مفتاح بيته عند مغادرته بلدتـه في مكـان خارجهـا ، يدفنه في الرمال ، ثم يحتفره عندما يعود ، فلا يضل عنه .

ولا نذهب بعيـداً فلعـل المستمعـين يذكـرون برنـامجـا في الإذاعـة ، يفتى فيه الشيخ عبدالله بن حميد - رحمه الله - على بعض المستفتين ، فكان المذيع يذكـر اسم السائل كاملا ، واسم بلدته ، ثم يتلو السؤال ، وعند الرد يوجه الشيخ عبدالله الرد على الشخص ذاكـراً اسمه واسم والده وجده وبلدته وسؤالـه كاملا قبل أن يبدأ بالفتوى . وكنا ندهش نحن المستمعين من مقدرته - عليه رحمة الله - من تذكّره للاسم كاملا ، واسم البلدة أحياناً إذا ذكرت في السؤال ، ثم تَذَكُّر السؤال بنصه ، وليس بمعناه . ونحـاول نحن أن نتذكر الاسم كاملا فلا نفلح ، وكـان طمـوحنـا لا يصل إلى الأمل في تذكر نص السؤال ، أو بعضـه ، ونكتفي بمحـاولة استيعاب المعنى . وإذا تعددت أقسام السؤال فقد ننسى بعضاً منها ، وهو - رحمه الله - لا ينسى .

جال هذا كله في ذهني ، عن الماضين والحاضرين ، ممن أعرف أو من قرأت عنه ، وأثار هذا التفكير كله ما قرأته اليوم في كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، وفيه خبر عن سائل أعمى ، ظهر منه حدة ذكاء ، وقوة ملاحظة ، ودقة في التحليل ، وصدق ظن في الوصول إلى النتيجة التي سعى للوصول إليها :

«حكى لنا ابن أسادة ، قال : كان عندنا - يعني باصفهان - رجل أعمى ، يطوف ويسأل ، فأعطاه مرة إنسان رغيفاً ، فدعا له ، وقال : أحسن الله إليك ، وبارك عليك ، وجزاك خيراً ، ورد غربتك . فقال له الرجل : ولِمَ ذكرت الغربة في دعائك ؟ وما علمك بالغربة ؟ فقال : الآن لي هاهنا عشرون سنة ما ناولني أحد رغيفاً صحيحاً»[1] .

لقد تعود هذا الرجل طوال هذه المدة أن يُعطى نِصفَ رغيف ، أو رُبْعَه ، وبمجرد أن أعطي رغيفاً

---

(١) الامتاع والمؤانسة ٣/٢٨ .

كاملا عرف أن المعطي غريبٌ عن هذه البلدة ، إنه لم يحتج إلى عينين لينظر إلى وجه الرجل أو زيّه ، فيعرف منهما أنه غريب ، ولا إلى أذنيه ليسمع صوته ، فيعرف من حديثه ولهجته أنه طارئ على هذه البلدة ، وإنما أعمل فكره ، فجمع أطراف الأمر ، فتكونت الصورة الصحيحة في البصيرة النيّرة ، فصاغ عليها دعاءه ، وأدهش قبيله ، وأدهشنا معه . فسبحان من يهب ما يشاء لمن يشاء .

مغالطة محمودة(*)

وهل سمعتم بمغالطة محمودة ، المغالطة هي قول غير الحقيقة ، أو الازورار عنها ، أو فعل غير الحقيقة ، والبعد عن قولها ، والاتصاف بها . والبعد عن قول الحقيقة وفعلها يعتبر ، عادة ، رذيلة ، ورذيلة مذمومة ، يبتعد عنها وينفر . هذه هي القاعدة التي رضيها الناس في المجتمع السوي ، ولكن لكل قاعدة - كما يقولون - شواذ . والخروج عن القاعدة يحتاج عادة إلى سبب قوي مقنع مجزٍ ، حتى يقبل الخروج عن المعتاد دون عتب أو ملامه ، وينال القبول المتوقع والمؤمل له . والسبب يجب أن يكون قاعدة صلبه يستقر عليها الأمر المقدم المراد اقراره وقبوله . وحبذا لو تبين أنه مطلوب وجميل وطريف ومسلّ .

ولشرح هذا القول المبهم ، الذي يشبه اللغز نأتي

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٥٧٠) في ١٤/٤/١٤١٣هـ الموافق ١٠/١٠/١٩٩٢م .

بما كان السبب فيما قلناه ؛ ففيه إيضاح وبيان :

يروي صاحب الكشكول الأبيات الآتية[1] :

وقائله لما رأت شيب لمتي
أسَتِّره عن وجهها بخضاب
أتستر عني وجه حق بباطل
وتوهمني ماءًا بلمع سراب
فقلت لها كفّي ملامك إنها
ملابس أحزاني لفقد شبابي

أنه حوار جميل ، وأخذ ورد طريف . الاعتراض محق ، والرد ذكي ، لا يملك القارئ إلا أن يبدي استحسانه لما صوره الشاعر في هذه الأبيات .

قد لا يكون هناك امرأة اعترضت على شيب الشاعر ، وصبغه إياه ، ولكنه تخيلها ، وأقام قاعدة يجلس عليها حواره وفكرته ، ومنصة ينصب عليها فكرة طريفة جالت في ذهنه . إذاً فجوانب هذا القول المضيء كله جاء من فكره النيّر - كما نرى -

(١) ١/٢٩٣ .

ومســك الختــام في هذه الأبيــات آخـر شطر في الأبيات ، فهو - بجانب طلاوته وحلاوته وطرافته - جاء مفاجئاً ، لما فيه من منطق ، وما فيه من قوة ، إنه تعليل ذكي طريف معجب .

والشيب لا يعـرف حقيقـة همه الشبـاب ، أمـا الشيـوخ فهم معه ، وهو معهم في كل لحظة ، إن قاموا وإن قعدوا ، إن ناموا أو استيقظوا ، إن أكلوا وشبعـوا ، أو لم يأكلوا وجـاعـوا . تهون منـه آلام المفـاصـل ، وسـطحية النوم ، وعدم عمقه ، وقلة الشهيـة للطعام ، أو أكله مع الحذر من السمنة ، لقلة الحركة وحرق الدهون . ولكن الذي يصعب حقّاً هو التفكير في زهد الغيد في الشائب وشيبه ، بعد أن كان مسقط الإعجاب ومستقره . والاحتيال في إخفـائـه إنما هو لاسترجاع أرض فقدت ، يراد المحافظة على ما قد بقي منها .

وقد كُتب عن الشيب شيء كثير ، أغلبه شعر ، أو أغلب ما بقي منه محافظا عليه هو الشعر ، إلا ما

سجل ودوّن في الكتب. وهذا يُري مبلغ الهمّ الذي يحمله على ظهره من بزغ فجر الشيب في مفرقيه، وأسفر صبحه في عارضيه. لهذا غاص الشعراء على المعاني التي تحمل الحجة القوية التي تجعل المغالطة مقبولة، والحجة لها معقولة. سماع مثلها يطرب، وترداده يغذي الروح.

التبر في الترب(*)

من زار مصر في يوم من الأيام، أو درس فيها، أو شاهد بعض الأفلام المنتجة فيها، أو عنها، لا بد أنه مَرَّ به منظر من مناظر الحواة، وحيلهم، وإقبال الناس على ألعابهم، والتسلّي بها، ورأى ما تحتوي عليه من خدع وحيل، وما في هذه الخدع والحيل من تنوع، وتعدّد، وما فيها من ذكاء ونباهة، لو صرفت في أمر جاد لجاءت لصاحبها بخير عميم.

ومن أبرز هذه المسلّيات «حاوٍ» معه عدته متكاملة، وتتكون من براعته، ومن عنز وقرد، علمّهما صنعة اختصّ القرد منها بالنصّيب الأوفى، لأنه يأتي بأعمال ينفّذها كما علمه سيّده، وكما درّبه عليها. وسيّده استغل مقدرته على تقليد الإنسان والحيوان، فجعله يأتي بالعجائب من هذا التقليد؛ فهو يجيد مثلا عدداً من هذه الرقصات، ويتخذ

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٥٧٧) في ١٤١٣/٤/٢١هـ الموافق ١٩٩٢/١٠/١٧م.

ظهر العنز أحياناً مجالاً لبعض ما يأمره به سيده، ليضحك منه الناس، فيكافئونه بدريهمات يلقونها عليهما.

وهي مهنة يبدو أنها قديمة، اتصلت حلقاتها مع مرور الزمن؛ فأخذها أناس عن أناس، واحتفظوا بأمانة تداولها، وتسلسلها، وإبقائها حية مبتغاة إلى اليوم. ولعل مثل هذه الأعمال - في كل زمن - تروج في المدن الكبيرة، ذات الاعداد الكثيرة من السكان، والعريقة في حضارتها؛ فبغداد، أيام العباسيين، كان فيها مثل هذا النشاط، أو قد يكون ما بها حينئذ يفوق ما بمصر اليوم. وكتب التراث تأتي فيها لمحات تدل على هذا الأمر، وتشرح ما كان يقوم به أصحاب هذه المهنة. وبعض ما كان يعرض يفوق ما يعرض اليوم عالميا في حفلات «السيرك»، وبرامج الحيل، والشعوذة. ويمكن أن نعطي مثلا يرسم صورة واضحة لما كان يجري في مصر في القرن الخامس والسادس الهجري، والتجمهر الذي كان يحظَى به المشعوذ في ذلك

الـوقت، وتشـابهه مع ما يحدث اليوم، خاصة في الأحياء الشعبية في القاهرة، في الأيام العادية، أو فيها وفي عدد من المدن في المواسم والأعياد :

جاء في الجزء الثامن من «معجم الأدباء» لياقوت[1] :

«من ظريف ما يحكى عن ملك النحاة الحسين ابن صافي أبو نزار النحوي، أن نور الدين محموداً خلع عليـه خلعة سنيّة، ونزل ليمضي إلى منزله، فرأى حلقـة عظيمـة، فمال إليها، لينظر ما هي ؛ فوجـد رجـلا قد علّم تَيْسًـا له استخراج الخَبايا، وتعريفه ما يقول له من غير إشارة. فلما وقف عليه ملك النحاة، قال الرجل لذلك التّيس : «في حلقتي رجـل عظيم القـدر، شائع الذكر، ملك في زيّ سوقــه. أعلم النـاس، وأكـرم النـاس، وأجمـل النـاس ؛ فأرني إياه». فشق ذلك التيس الحلقة، وخـرج حتى وضع يده على «ملك النحاة». فلم

---

(١) ١٣١/٨ .

يتمالك «ملك النحاة» أن خلع تلك الخلعة، ووهبها لصاحب التيس.

فبلغ ذلك نور الدين، فعاتبه، وقال: استخففت بخلعتنا حتى وهبتها من طُرَقِيّ؟! فقال: يامولانا، عذري في ذلك واضح، لأن في هذه المدينَة زيادةً على مئة ألف تيس، ما فيهم من عرف قدري إلا هذا التيس فجازيته، على ذلك. فضحك منه نور الدين، وسكت».

وهي قصة طريفة، تكشف جوانب عديدة، أحدها أن التيس مدرب تدريباً متقناً، ومعلم تعليمات ذكياً، ليقوم بما قام به، ولا بد أن بينه وبين صاحبه علامة مادّية يهتدي بها إلى ما ينطق به سيده شفهيّا، وقد تكون هذه العلامة إشارة باليد أو بالرأس، أو أن هناك مساعداً له خفيًّا يتسلل لواذاً فيقف خلف الشخص المراد معرفته.

وثانيها أن التيس في هذه القصة حل محل القرد الذي تعارف الناس على قيامه بمثل هذه الحركات

المبدعة ، لذكائه ولمقدرته على التقليد ، ولضمان إضحاك الناس ، لشكله ومظهره ، ولما يأتي به من حركات . ولكن يبدو أن كثيراً من أمور هذه المهنة يعود إلى المدرب الذكي ، القادر على الصبر ، والأناة .

وثالثها أن حب الاستطلاع دفع هذا العالم الجليل الوقور - وهو يشار إليه بالبنان في علم النحو في زمانه - إلى أن يحيد عن طريقه ، ويعرج على حلقة هذا «الحاوي» ، ويقف مع عامة الناس ، ليرى ما سبب هذا الحشد ، وليشارك في التجمهر ، ويتمتع «بفرجة» معهم ، ولعله حنّ إلى ذكريات الطفولة ، عندما كان في سنّ تسمح له بمثل هذه «الفرجة» .

ورابعها أنه وقع بسهولة في أحبوله هذا «التيسي» (على وزن القرداتي !) ، الذي أخذ يكيل له المدح ، ناصباً له شركاً ومقيماً له أحبولة ، فخدّره بالمدح ، وألان جانبه ، فهو رجل عظيم القدر ، شائع الذكر ، ملك في مهنته ، وأعلم الناس فيها .

والصفـات التي ضمنت نجاح الخطة هي : «أكرم النـاس ، وأعلم النـاس ، وأجمـل النـاس» ، فقد قضت على ما قد يكون هناك من مقاومة ، أو محافظة على الخلعة . قال «الحاوي» هذا كله أمام خلق من النـاس عظيم ، فلا يوفّيـه حقـه ، ويصدق قوله ، دريهمات معدودة لا يدري مقدارها إلا من وضعت في يده . ولهـذا تهادت الخلعة برضى واختيار أمام الناس إلى الحاوي .

وخامسها تلك الحجة البالغة التي اتّقى بها ابن صافي سخط نور الدين ، وأبرد بها سورة غضبه ، وانتـزع منـه - فوق ذلـك - ابتسـامـة ، لا بدّ أنها عريضة ، خاصة وأن فيما اعتذر به النحوي تعريض بالذين لا يعرفون قدره ، وهم من عناهم بالتيوس .

وسادسها وآخرها السماحة التي ظهرت من نور الدين بقبـوله عذر الشيخ ، واقتناعه بالمبرر ، رغم عظم الخـطأ ، ففي ذلك الزمن خلعة السلطان شرف ، يحتفظ به ويحـافظ عليـه ، وعمـل الشيـخ خارق للعادة ، ومخالف للعرف .

والذي يجعلني أفسّر مقدرة التيس على ما قام به، وحذقه واتقانه ما درّب عليه، بما قد يكون هناك من إشارة أو حركة، أنّني شاهدت مرة «سيركا» روسيا زائراً، يعرض ألعابه وحركاته على مسرح في لندن. وكانت إحدى فقرات البرنامج منظراً لرجل مدرب لثلاثة من الدببة، في يده سوط، يأمرها بحركات من يده وسوطه، فجة وعنيفة، ويتحدث إليها بكلمات قاسية، وإشارات مهددة، ويطلب منها أن تتقدم فتصعد لتجلس على كراسٍ أعدت لها، يعرف كل واحد منها كرسيه منها. ثم بعد هنيهة يأمرها بصرامة أن تنزل، فلا ينزل من الثلاثة إلا اثنان، ويأبى الثالث أن ينزل، ويعصي الأمر، ولا يعير صاحبه أي اكتراث، ويصدّ عنه، ويأخذ في الالتفات يميناً ويساراً، كأنه لا يسمع أمراً. فيزيد المدرب اللهجة عنفاً، والسوط ارتفاعا، وفرقعة. فلا يفيده ذلك شيئاً. ويكرر الأمر، والدّبّ يبدى من عدم الاهتمام ما يزيد غيظ المدّرب وحنقه.

فلما يئس المدرب من طاعة الدب، وتنفيذه أمره، خفّف من حدّة لهجته، ورقق من نبرتها، ونعّم صوته بها، وخفض صوته وكلماته، وهدأ إشاراته، وأخفى سوطه، وقال للدب، وهو ينحني حتى كاد رأسه يلامس الأرض، بعد أن نزع قبعته، ولوح بها دليل الرجاء والاستعطاف، «أرجو أن تنزل، وتتعطف وتتكرم فتنزل». فنزل الدب عند سماعه هذه الكلمات، ورؤيته لإشارات الاستذلال والاستعطاف. ولجت صالة العرض بالتصفيق الحاد المتواصل، وهمهم الحاضرون بكلمات الاستحسان، وعبارات الاعجاب. وبدا لهم كأن الدب فهم الكلمات، وأن عناده في أول الأمر كان عن قصد، وكان احتجاجاً على لهجة مدرّبه. أما وقد تصرف فيما بعد بأدب فقد استجاب الدب.

وذهبت مع مجموعة من الطلاب المتفرجين، بعد العرض، خلف المسرح، وقابلنا المدربين، وسألنا، من جملة من سألنا، مدرب الدببة، عن السر في تصرف الدب، وهو تصرف لا يأتي إلا من

إنســان ؛ لأنّـه لا يعقـل أن يفهم الـدب كلمات الخشـونة والتهديد التي كان يأمره بها المدرب ، ثم كلمات الاستعـطاف الحـارة التي وجههـا إليه بعد ذلـك . فضحـك المـدرب ، وقـال : طبعـا إنه لا يعـرف ، ولكن السرّ يكمن في الانحنـاء ، ونـزع القبعـة ، وهـاتـان الحركتان دُرِّب الدب على أنهما تسبقان نزوله ، لتناول قطعة سكر مجزية تعطى له . فهو ينزل ليأخذها .

تُرى ما هي الحركة التي قادت التيس إلى الشيخ النحوي ! أهي حزمة برسيم يتطلع إليها ، أم جزرة يؤمل فيها .

في اللغة العربية(*)

اللغة العربية من أدقّ اللغات تعبيراً ، ومفرداتها من أكثر المفردات في اللغات . طبيعتها اشتقاقا وتصريفاً مكنتها من ذلك . ولا أدل من كمالها أنها لغة القرآن الكريم . للكلمات حدود دقيقة ، ولكل أمر في الحياة صغر أو كبر تعبير خاص به . لا يدخل شيء في حيزِ آخر ، أو يتعدى ما وضع له ، مما يدل على القدم والنضج .

كان العرب في صفاء عصور الفصحى يصرون على هذه الدقة في اللغة ، ويؤاخذون على التهاون فيها ، تقريعاً أو تأنيباً أو تبكيتا . وهم بهذا يؤكدون أهمية حماية المكتسب في اللغة من دقة وغِنى ؛ لأنهم يعرفون مدى أهمية اللغة لحياتهم ومجتمعهم وحضارتهم . وهذه الأهمية لم تكن تنقص مع الزمن بل تزيد .

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٥٨٤) في ٢٨/٤/١٤١٣هـ الموافق ٢٤/١٠/١٩٩٢م .

أما نحن فمع انتشار العاميّة وتشعبها في الأقطار العـربيـة ، اكتفينا بكلمة واحدة مدلولا على معان متعـددة ، وشاركنا كثيراً من الشعوب في تساهلها بلغتهـا ، واكتفـائهـا بما قد يدخلها حيز البدائية ، ولعـل هذا يعود إلى الكسل الذهني الذي أصاب الناس في جوانب شتى من الفكر . ومقارنة بسبيطة بين ما نعبّر به وعنه ، وما كانوا يفعلون تعطي فكرة واضحة عن البون الشاسع بيننا وبين السابقين .

نحن في الحجاز مثلا نعبر عن العصا بالشوحط ، ويكـاد يكون أي عصا عند العامة شوحطا ، وإن تعـددت أسـماؤه فهي أسـماء مستحدثة لا تمت إلى أصله وشجرته . وخلاف ذلك ما روي عن المبرد أنه قال :

«النبـع والشـوحط والشريـان شجـرة واحدة ، ولكنها تختلف اسماؤها بحسب اختلاف أماكنها ، فما كان منها في قلة الجبل فهو النبع ، وما كان في سفح الجبل فهو الشريان ، وما كان في الحضيض فهو

الشوحط»[1].

إن وراء كل كلمة - كما رأينا معنى - بل إن وراءها علماً كاملاً بأمر النبات ومحيطه. ولا تكفي واحدة عن الأخرى، ولا تغني عنها.

وقال الرياشي: قلت للاصمعي: ما كانت المسألة؟ قال: سئل عمرو بن العلاء: هل تنزو الضبع؟ قال: يقال: ملخ الضِّبعان الضبع، إذا نزا. فقال: أفكل ذكر هكذا ينزو؟ قال: لا، يقال: تراصعت الطير، وتشابكت السباع، وتعاظلت. والحافر ينزو، والإبل تضرب. وسَفِد الديك. وتقافطت الغنم وتقامطت[2].

وينقل صاحب الكشكول من كتاب سر العربية في أنواع الخياطة: يقال: خاط الثوب، وخرز الخف، وخصف النعل، وكتب القربة، وكلب المزارة، وسرد الدرع، وخاص عين البازي[3].

---

(١) نزهة الالباء ٢٣٨.

(٢) مجالس العلماء ١٧٦.

(٣) الكشكول ١/٢٥٨.

ويقول صاحب الكشكول :

يقال لما يضرب بمؤخره - كالزنبور والعقرب - لسع . ولما يقبض بأسنانه - كالكلب والسباع - نهش . ولما يضرب بفيه - كالحية - لدغ(١) .

ويبدو أن لصاحب الكشكول ولع بأمثال ذلك ، فهو يقول أيضا :

يسمّى اللبن حين يحلب صريفاً ، فإذا سلبت رغوته فهو الصريح ، فإن لم يخالطه ماء فهو محض ، فإذا خدى اللسان فهو قارص ، فإذا خثر فهو رائب ، فإذا اشتدت حموضته فهو خازر(٢) .

---

(١) الكشكول ٢/ ٩٣ .

(٢) الكشكول ٢/ ١٧٠ .

صور تتكلم(*)

تمتلئ كتب الأدب العربي الحديث وتاريخه بالجدل، وتتصارع الآراء، ويكثر الأخذ والرد، وأحياناً بلهجة الاحتجاج، في هل في الأدب الجاهلي والإسلامي الأول أدب ملاحم أم لا، والغربيون يعتبرون هذا نقصاً، ويعتبرون من النقص الحضاري أيضاً عدم وجود صور منحوتة أو مجسمة، أو صور زيتية، ويحاولون أن يركبوا على كل هذا قضايا متكلفة، ويحرموا العرب من الحضارة على هذه الأسس، وهي دعوى مفتعلة، وقضية واهية؛ فإذا كان هناك مظهر من مظاهر فكرهم ركبوا عليه بعض الاعتبارات، وأحلوه من حياتهم الأدبية منازل، فهذا لا يعني أننا إن لم نماثلهم فقدنا عنصراً مهمّاً من عناصر الحضارة. لنا مقاييس لحضارتنا تختلف عن مقاييسهم، ولنا

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٥٩١) في ٦/٥/١٤١٣هـ الموافق ٣١/١٠/١٩٩٢م.

سمات حضارية في أدبنا الجاهلي والإسلامي لا يصلون إليها، ولا يقتربون في الحسن منها، وهي أمور فكرية نعتز بها، وفيها من الجمال والدقة في التصوير ما نباهي به، وترسم لنا أبهى مظاهر الحضارة.

جال هذا في ذهني وأنا أقرأ بعض التعبيرات التي تصوّر بعض جوانب الفكر العربي في العصر الجاهلي والإسلامي، سواء كان هذا نثراً في خطب ألقيت، أو حكم أسديت، أو أمثال ضربت، أو أشعار أنشدت، نفثتها صدور أترعت بعاطفة من العواطف، فرحاً أو حزناً. وهذه لا تعدل الكفة بيننا وبين الغربيين فقط، بل تعطينا بديلا راجحاً عن الصور والرسوم المادية التي رسموها في لوحات، أو نقشوها على جدر المعابد والمزارات، وإن كان في يدهم فرشة أو أزميل ففي فم العربي لسان نطق بالاستعارة وبالتشبيه، يرسم به، بجدارة وحلاوة وإتقان، صوراً خالدة.

لله در عنـــترة بن شداد حين يرسم في معلقتـه صورة لذباب الروض - على حقارته - وهو يغسل كفه بكفه ووجهه بيديه ، بجدارة وحفاوة عدة مرات متتابعة ، هازجا أغنية رتيبة ، فيشد إليه عنتر ، ويجد فيه منظراً يستحق الابقاء والتثبيت ، فيخرج أدوات فنـه ، ويسلطهـا عليـه كما يسلط المصور المعجب الهاوي الفنان آلة تصويره على منظر أعجبه ، وآلة عنترة التي لا تخيب في هذا المجال هي شعره بما فيه من أنواع البيان والبديع ، وهي له ألوان ، وهي له «رتوش» ، وهي له ظلال ، وهي له نِسَبٌ ، وتنسيق بين الأجزاء ، يشبهّ عنترة الذباب في هذه الروضة ، وهو يقوم بحركاته ، ويطن بصوته ، برجل منحن ، يحاول جاهـداً ، وهـو يغني ، في وقت الـريح فيه عاتية ، أن يقدح زنداً أجذما غير سوي ، مما يوجب التكرار والعناء والمجاهدة ، والغناء عادة يلجأ إليه الفرح طرباً ، والمهوم ليخفف من همومه .

وخلا الذباب بها فليس ببارح
غرداً كفعل الشارب المترنم

هـزجـا يحـك ذراعـه بذراعـه
قدح المكب على الزناد الاجذم[1]

إنه صورة رائعة لا تبهت مع الزمن ، كما تبهت صور الغـربيـين ، ولا تتعـرض للعبث والتشـويه والتزوير والخراب ، كما تتعرض جدران معابدهم بما عليهـا من صورهم . إن صورة الـذبـاب التي رسمها عنترة جاءت نتيجة ملاحظة متأنية دقيقة ، من رجل نبيه متفحص ، وفنان متتبع ، سلط عدسة قريبة صافية على هذه الحشرة التافهة الحقيرة فرسم لها منـظراً أخاذاً ، أضاف لمفردات الأدب الجاهلي رونقاً يخترق بريقه العصور ، وضياؤه الزمن ، عبر مئات السنين .

كأني بعنترة في خلوة من خلواته ، وما أكثرها عند ابن الصحراء ، في سنة ربيعها عم ، وخصبها منتشر ،

---

(١) ديوان عنـترة ١٩ ، كان الجاحظ يقول : وجدنا الشعراء تجاذبوا المعاني إلا قول عنترة في وصف الذباب .
هـزجـا يحـك ذراعـه بذراعـه قدح المكب على الزناد الاجذم
سرح العيون ٣٢١ .

وقد أيسرت دنيا البادية ، فانزاح عن أفرادها عبء كبير من متابعة سبل المعيشة ، وجاءهم الرغد إلى عقر دارهم ، وأتيح للناس الهدوء والتلذذ والتّبصر . وعنترة الفنان جلس في الروضة ، ورأى ما يراه دائماً : ذباباً شغل نفسه بغسل يديه ووجهه بطريقة حفيّة ، فثبت هذا المنظر عن طريق عدسته الشعرية . ما الفرق بينه وبين فنان أوروبي في ذلك الزمن القديم ، حمل معه لوحته وفرشته وأصباغه وراح يثبت منظراً من المناظر . الفرق أن عنترة أعظم ، لأنه صور صورة ، وحسب العادة عندهم ، وتقديرهم للحرية ، ترك للناظر أو السامع حرية رسم المحيط في ذهنه ، ورسمه وتصوره كما يحلو له ، وترك له أيضا تصور الجو الذي يريده للصور التي أهداه إياها عنترة ، أما الأوروبي ففرض شيئاً لا يعطي حرية التحرك بالفكر يميناً أو يساراً ، الرائي مقيد بقيد من حديد مثل الصورة الميتة التي ينظر إليها(١) .

(١) ويبدو أن الذباب في الرياض يجلب النظر ، يقول الكروَّس :

كأن الذباب الأزرق الحمش وسطها ... إذا ما تغنى بالعشيات شارب

مجالس ثعلب ١ /٦٨ .

وإذا بقينا مع عنترة في رسمه للصور البيانية ، نجد أن الصور التي رسمتها الاستعارة ، أو خطها التشبيه ، تتالى الواحدة بعد الأخرى ، وهي صور تراها العين حية متكلمة مخاطِبة ، وتكاد اليد تلمسها . وعنترة مثل أي فنان له نهجه ، وله مرسمه ، تراه في كل ما يعرضه ؛ يقول في إحدى قصائده :

وحليل غانية تركت مجدلا
تمكو فرائصه كشدق الأعلم[1]

صورة رسمت بعناية ، معالمها واضحة وجلية ، تُرى جريحاً ينزف جرحه ، وقد انفرج اللحم من الضَربة القاصمة التي نزلت به ، حتى يذكر بشدق الأعلم المشقوق .

ويقول عن حصانه بكلمات معبرة ، وكأننا نرى الحصان يحاول أن يتفادى القنا المسلطة على صدره ، ويروغ عنها ليتجنب وقعها ، وكأننا نسمعه وهو

---

(١) الديوان ٢٤ .

يشكو لعنترة ، وكأنه إنسان فصيح ، ودموعه تنهمر ، وصوته مختنق بالعبرة :

فازورّ من وقع القنا بلبانه
وشكا إليّ بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولكان لو عرف الكلام مكلمي[1]

ويعطي عنترة صورة لمقتل نضلة الأسدي كأن المرء يرى مصرعه ، بل لعل الصورة البيانية التي رسمها أشد تأثيراً ، فنضلة نالته رشقة من الرماح ، غرزت في جسمه ، وتجمعت ، وراح مكلوما يجر هذه الرماح معه ، وكأنه حاطب قد جمع غِمراً من الحطب ، ولثقله وعدم قدرته على حمله راح يجره :

وغادرن نضلة في معرك
يجر الأسنة كالمحتطب[2]

---

(١) الديوان ٣٠ .

(٢) ديوان عنتره ٣٢ ، قال الفرار السلمي :

فتركتهم تقص الرماح ظهورهم ... ما بين منعفر وآخر مسند

الحماسة ١/١٨٥ .

وعنترة نفسه يخط بريشة شعره البارعة صورة لسرايا بين قوّ وقارة، مكانين معروفين في شرق الجزيرة، فتظهر هذه الصورة هذه السرايا وكأنها فرق من الطير تزاحمت عطشى على مشرب ماء، بعد رحلة شاقة مجهدة :

كأن السرايا بين قو وقارة
عصائب طير ينتحين لمشرب[1]

وصورة السرايا، ومثلها الكتائب، تقترن في ذهنه بالطير، فهو يرسم في البيت التالي صورة أخرى للكتائب ويصلها بالطير :

كتائب تزجى فوق كل كتيبة
لواء كظل الطائر المتقلب[2]

ومن الصور التي لا تفارق شعره صورة الرماح، وكأنها الحبال، ولكنه في كل مرة يأتي بها يأتي معها بمحيط لائق بها، ويجسم المنظر تجسيم من جعل

(١) الديوان ٣٥ .
(٢) الديوان ٣٥ .

هذا مبدأ من مبادئ التصوير والخيال في شعره . ومنظر الرماح في الحرب ، وهي مشرعة أو مرسلة في يد العدو كريهة ومخيفة ، خاصة إذا تجمعت ووجهت ، ولهذا فهي لا تفوت في منظرها عين المصور البارع وعدسته ، يقول عنترة :

كأن رماحهم أشطان بئر
لها في كل مَدلجة خدود

وهو تشبيه يأتي بصورة هو مغرم بها ، يقول في معلقته :

يدعون عنتر والرماح كأنها
أشطان بئر في لبان الادهم[1]

وليس هو الوحيد فغيره كثيرون ، ولعله أقرب إلى القول المرتضى عندهم لمثل هذا التشبيه ، وهو يشبه مدارس الرسم التي يؤثر بعضها في بعض ، وتسير في نسق واحد ، يميزها ويميز عصرها أحيانا . يقول المهلهل :

---

(١) الديوان ٢٩ .

كأن رماحهم أشطان بئر
بعيد ما بين جاليها جرور
تظل الخيل عاكفة عليهم
كأن الخيل ترحض في غدير

وتكاد هذه الصور وأمثالها ترد منوعة في أغلب قصائد الشعر الجاهلي والإسلامي ، فالقوم كانوا مولعين بالتصوير المتحرك الدقيق ؛ لأن عندهم من الوقت ، وصفاء الذهن ، ودقة الملاحظة ، وقوة اللغة ، وسليقتهم فيها ، ما ساعدهم على رسم أبهى الصور وأصدقها وأدقها ، فأبقوا على ممر الزمن صوراً لمجتمعهم تشهد بأنهم أهل حضارة عريقة ، وأنهم في الفن لم يقلوا عن غيرهم ، إن لم يزيدوا باعاً أو ذراعاً .

وكثيرون يدللون على براعة العرب في الجاهلية في رسم الصور البهية الزاهية عن طريق البيان الاخّاذ ، ويجمعون على الصورة المتحركة التي رسمها الشاعر في أبياته يصف الرحيل :

أجمعوا أمرهم عشاء فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من منادٍ ومن مجيب ومن
تصهال خيل خلال ذاك رغاء

وحتى لا يطول المقال فيزيد عن الحيّز المعدّ له، سوف أكتفي بما رسمته ريشة عنترة، على أنهم استمروا في عصورهم التالية يحتفظون بالهواية نفسها، ويعرضون مقدرتهم، فلنقفز ونمثل بالمتنبي في عصره، وقد رسم صورة للجيش - كما سبق أن رسم عنترة مثلها - ومادته الطير:

يهز الجيش حولك جانبيه
كما نفضت جناحيها العقاب

لو وقفنا على جبل يطل على السهل الذي يتحرك فيه الجيش بميمنته وميسرته وقلبه، لرأينا صورة عقاب «يسلفح» بحركة منتظمة في فضاء الله. الميمنة والميسرة تتحركان، لأنهما على الأطراف بسرعة، والقلب يتحرك ببطء. إنها صورة فريدة لا

تعـدلها صورة معلقة على حائط ، ولا منحوتة على فرش رخام . إنها صورة من عشرات الصور التي رسمتها ريشته ، تحركها يد عبقريته المشهود له فيها بالاتقان والابداع .

ونختم هذه الصورة بصورة من عصرنا صورة معبّرة رسمها حافظ إبراهيم على لسان مصر :

وقف الخلق ينظرون جميعا
كيف أبني قواعد المجد وحدي

هل يستـطيـع رسـام بفـرشته وألوانه أن يرسم الخلق جميعاً في ميدان واحد ، وعيونهم تنظر لمصر ، وفي يدها أداة البناء ، وهي تقيم منه وحدها قواعد المجد . إنها صورة لا يستطيع إتقانها إلا شاعر فحل فنان .

والفنـان أحيـانـاً يكون أعرابياً عاديا في مظهره وتصرفه ، ولكنه عبقري في تفكيره ، محلق في خياله ، دقيق في تعبيره ، صادق في نظره :

قال العتبي :

اشتـد الحـر عندنا بالبصرة ، وركدت الريح ، فقيـل لأعـرابي : «كيفـ كان هوَاؤكم البـارحة ؟» قال : «أمسك كأنه يسمع»[1] .

(١) أخبار الظراف ١٣١ .

من حزم عمر(*)

هناك أناس يبهرهم البيان، وتلجمهم الفصاحة حين يسمعونها، فلا يتنبهون إلى ما قد يكون في المعاني التي تغلفها الألفاظ من نقص أو خلل. وأحيانا لا يثيرون جدلا لو بان لهم شيء من الخلل طلبا للسلامة، وبعداً عن الأخذ والرد. أما عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - فلم يكن من هؤلاء؛ فهو لا يسكت عن الاعوجاج، ولا يغضى على القذى، ولا يتجاوز الخطأ مهما صغر أو توارى، يتنبه له قبل وقوعه، ويعرف مسبباته والناس غافلون، ويحسب للمستقبل، ولا يكتفي برعاية الحاضر. ويقف من الأمور موقف المعلم الحازم، يقوم المعوج، ويعدل المائل، ويصلح الفاسد. ولا تأخذه في الله لومة لائم.

وفي التراث نصوص متعددة تؤكد هذا المنحى في

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٥٩٨) في ١٣/٥/١٤١٣هـ الموافق ٧/١١/١٩٩٢م.

حياته - ضي الله عنه - يمكن أن نعطي نماذج منها :

سأل عمر رجلا عن شيء ، فقال : «الله أعلم» فقال عمر : «قد خزينا إن كنا لا نعلم أن الله أعلم» . إذا سئل أحدكم عن شيء ، فإن كان يعلمه قال : وإن كان لا يعلمه ، قال : لا علم لي بذلك[1] .

ويدعو رجل دعوة غريبة أمام عمر ، فلا يترك الأمر يمر ، دون أن يبدي رأيه بحزم وتوجيه ، وربما لو أن الأمر مرّ بغير عمر لوقف منه موقفاً آخر ، ربما موقف قبول أوجبته طرافة الفكرة ، وقوة الحجة في الظاهر ، ولكن عمر رأى فيه فتح باب قد يوصل إلى غير خير ، فأراد أن يوصده قبل أن يتسع ، وقبل أن يستطير شره ، فيجانبِ الناس الدعاء المأثور عن النبي - ﷺ - إلى اجتهاد فردي لا يعرف أين يكون مستقره :

سمع عمر رجلا يدعو ، ويقول : «اللهم

(١) الحيوان ١/٣٣٨ ، البيان والتبيين ١/٢٦١ .

اجـــعــلني من الأقــلين ! » قال عمـــر : «ما هذا الـــدعـاء؟» قال : إني سمعت الله - عز وجـل - يقـول : ﴿قليـل من عبادي الشكور﴾ [١٣ سبأ] . وقـال : ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ [٤٠ هود] . قال عمر : «عليك من الدعاء بما يعرف»(١) .

إنه عمر بن الخطاب : صفاء ذهن ، ووضوح حجـة ، وقـوة إيـمان ، تعضد كل هذا درة في يده اليمنى يلوح بها على من لا يطيع ، أو على من يحاول أن يحيد عن طريق الحق والجماعة .

ويتمثل في عمر حزم الحاكم اليقظ المتنبه للأمور التي قد لا تبدو في أول الأمر ذات أهمية ، ولكنها قد توصـل إلى أمـر كبـير . وشعـوره بمسؤوليته أمام مجتمعه الذي وضع نفسه أمانة في يده ، تجعل طرفه لا يغضى ، وعينـه لا تنـام ، فهـو يتابع ويرقب ، ويتصرف بسرعة ، ويأخذ الخطوة القاطعة . لا يترك للتعليـلات والتفسـيرات والتحججات طريقاً إلى

(١) الحيوان ١ /٣٣٨ .

إعاقته عن تنفيذ سياسته .

تطور المجتمع في المدينة ، ودخله عنصر جديد ، تسلل بهدوء ، وهناك غزاة في الثغور ، بعيدون عن زوجاتهم ، ورجال في المدينة يزورون تلك النساء ، ربما لقضاء حوائجهن ، أو كتابة رسائلهن لأزواجهن ، أو قراءة رسائل أزواجهن لهن . ولكن مكث هؤلاء لديهن يطول . فرأى عمر في هذا حطبا يقترب منه اللهب ، فأوقف هذا بحزم ، وقطع دابر الشبهة ، ولم يترك لأحد أن يحوم حول الحمى ، خشية أن يقع فيه . وقال كلمة هي صورة مما يتوقع أن يكون عليه عمر - رضي الله عنه - :

«ما بال أحدكم ثاني وساده عند امرأة مغزية مغيبة ؟! إن المرأة لحم على وضم ، إلا ما ذُبّ عنه»[1] .

أجل إن الذاب عن اللحم غازٍ يقاتل في الثغور ، بعيداً عن أهله ، وقد تقدم الخليفة عمر -

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ١٩١ .

رضي الله عنه - فاتخذ موقع الذاب ، ومكان الديدبان ، ونعم الذاب ، ونعم الديدبان .

ولعمر موقف آخر بجانب المرأة سبق فيه كثير من المفكرين المحدثين ، وبزّهم ، وكانوا خاضوا في أمر الزواج عن حب أو عن غير حب ، وهل الحب يجب أن يسبق الزواج ، أو أن بالامكان أن يأتي بعده ، ولا يزالون يثيرون هذا الأمر بين آن وآخر ، ولن يزالوا مادام هناك رجل وامرأة وحب وزواج وكتاب . وينطلق من هذا الأمر أمر خاضوا فيه وهو أسباب الطلاق ودواعيه ، وهل يكفى في تبريره ارتفاع الحب ، أو ضعفه بخمود جذوته ، وانطفاء ناره . عمر تساءل تساؤلا فيه تقرير حقيقة لا تنكر ، وكأنه يستوحي قول الرسول - ﷺ - : «كيف وقد أفضى بعضكم إلى بعض» أو ما معناه .

قال عمر لرجل همّ بطلاق امرأته ، فقال له : «لم تطلقها ؟» قال : «لا أحبها» . فقال عمر : «أو كل البيوت بنيت على الحب ؟! ، فأين الرعاية

والتذمم»[1].

إن ما قالـه الخليفة الراشد عمر بكلماته القليلة المعدودة، يعجز عنه أكبر كتاب اليوم. إن كلمته اخترقت العصور دون أن يبهت تأثيرها، أو يخبو أوارهـا، أو يهتـز كيانها، أو يضعف قبولها، إنها زمجـرة أسد أمام عبث طفل بالبناء الأسري، إنها كلمات معـدودة، ولكنهـا صواعق حارقـة، توقظ الغافل من غفلته، وتعيد المستهين العابث إلى جده وواجبـه. أجـل إن مادة بنـاء الأسرة لا تقوم على لبنات فقط أو لحمة لهذه اللبنات، إنها هذه وتلك، وأخريات معها مهارة الذي يبني، وحساب ما يقوي البنـاء ليريـح الساكنين ويؤمنهم. رضي الله عنك يا عمر أجل: «فأين الرعاية والتذمم؟!».

ورجولة عمر وعظمته وتميّزه، وانفراده بشخصية فذة تتجلّى في كثير من مواقف الحياة. وتصرفه يبطنه إيمان عميق ورؤية واضحة صادقة، وثقة بالنفس

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ٨٩.

تؤكد له أن منطلقه ليس إلا إرضاء لله، وطلباً لقبوله، ولا يهم عمر ما قد يتوهمه غيره - رضي الله عنه وعنهم - فعمر عنده اليقين في أن الله عادل، ويعلم ما في الضمائر والنيات، ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾، ولهذا عندما قال له سعد (وسعد كان يسمى مستجاب الدعوة)، حين شاطره ماله: «لقد هممت». فقال له عمر: «لتدعوا الله عليّ؟» قال: «نعم» قال: «إذاً لا تجدني بدعاء ربي شقياً»[1].

إن عمر لم يفزع من دعاء سعد، لإيمانه بأن الله يعلم أنه لم يعمل ما عمل إلا لوجه الله. وبقي عند رأيه وما فعل.

والخليفة عمر لم ير أثناء خلافته أن عمله يقتصر على الحكم، وتصريف أمور الناس، والفصل في خُصُوماتهم، والعدل بينهم، والبحث عما هو في صالح دنياهم وآخرتهم، كما رأينا، ولكنه كان يرى

---

(١) البيان والتبيين ٣/٣٧٧.

أن عليه أن يكون مثالاً للقدوة الحسنة في نفسه ومع الآخـرين ، وإن عليه أن يقوم بإلقاء دروس تقوِّم الخلق ، وتسدد التربية ، ولعل هذا في ذهنه عمل يساهم بوقاية تغني عن العلاج ، فكانت تحمل تلك الـدروس كلماتٌ مضيئـة ، وأفكـار منيرة رصينة ، يقول عمر للناس :

إن مما يصفي لك ودّ أخيك أن تبدأه بالسلام إذا لقيته ، وأن تدعوه بأحب الاسماء إليه ، وأن توسع له في المجلس[1] .

لا أظن حكيماً مجرباً ، أو طبيبا نفسيا في زمننا ، أو مصلحـاً اجتـماعيـا يمكن أن ينصح مريديه أو مراجعيـه بأفضـل من هذا ، لاجتـلاب القلوب ، والتقـريب بين الأرواح ، والسعي لجلب السعـادة للناس . والحكيم والطبيب والمصلح لا بد أن يقعا حائرين مبهورين أمام هذا المعلم الفذ ، الناجح في زرع بذور الوفاق والإخاء في مجتمعه الذي يرعاه .

---

(١) بهجة المجالس ٢ / ٤٦٣ .

ثلاثة أعمدة يقوم عليها بناء الود والمحبة بين أفراد المجتمع ، لا تستطيع أن تضيف عليها عموداً واحداً بقوتها وتلاحمها ، ولو أنقصت عموداً منها لاختل كمال البناء .

وعمر الفطن اليقظ - كما قلنا - لا يخدعه بريق الأقوال ، ولا بهرجة الأفعال ، لأنه خبر الحياة ، وقلبها باطناً وظاهراً ، وعرف ما يكمن خلف الظاهر ؛ فهو لا يؤخذ بغتة ، ولا يفاجأ بغرّة ؛ إنه متنبه يقظ ، بصير بما لا يتنبه له إلا الحصيف . ولهذا لما قيل له : «إن فلانا لا يعرف الشر» . قال : «ذلك أجدر أن يقع فيه»[1] .

إن وصف أحد بالخير أمر يدغدغ شعور الإنسان العادي ، ولكن عمر تنبه إلى ما لم يتنبه له المادح ، ولم يخدعه أو يخدره ما في القول من ثناء ظاهر ، فالأبيض لا يعرف إلا بالأسود ، والنهار لا يعرف إلا بالليل ، والحار لا يعرف إلا بالبارد ، ومن لا يعرف

(١) البيان والتبيين ٢/٣٢٧ .

أحد الضدين لم يعرف الآخر ، فإذا لم يعرف المرء الشر جيداً ، بأنواعه وطرقه وتلبساته فقد يقع فريسة سهلة له ، وهو لا يدري . أرأيت نباتاً ساماً لا تعرف أنه سام ، وجُعتَ ، وظننت أنه مثل غيره مما تعرفه من المغذيات ، فالنتيجة هي ما خشي منه عمر . لقد صدق الخليفة عمر ، وكان دائماً فيما عرفناه عنه صادقاً .

ومما تنبه له عمر ، مما غفل عنه غيره ، وظنوه مدحاً ، وهو في جانب منه كذلك ، إلا أن عبقرية عمر أظهرت ما خفي على الناس ؛ والناس أعماهم بريق خاطف في جانب المظهر ، فأغشاهم بريقه عن ظلمة مدلهمة في بقية جوانبه ، وسواد حالك يلف بيت الشعر الآتي :

سمع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - راجزا ينشد :

لولا جرير هلكت بجيلة
نعم الفتى وبئست القبيلة

فقال : «ما مُدح من هُجِي قومه» .

(جرير هو الصحابي جرير بن عبدالله البجلي)[1] .

صدق عمر كيف يبسق غصن من شجرة رديئة ، وكيف تطيب فاكهة من شجرة خبيثة ، إن كان جرير لم يتنبه لما بَطن من معنى ، فقد نبهه عمر .

وعمر يدرس المجتمع ويرى الناس ، فريقين ، فريق يعمل للآخرة ، ويترك الدنيا ، وفريق يترك الآخرة ويتجه بكل جوارحه للدنيا ، ويرى عمر الحقيقة التي تجنبها الفريقان ، وهي «خير الأمور الوسط» فيسدي النصح ، وينطق بالحكمة ، ويوجه الناس ليتداركوا أنفسهم ، فتصلح أمورهم ، وتستقيم أحوالهم ، ويكونوا في مجتمعهم أفراداً صالحين ، وهو مسؤول عن صلاح المجتمع ، وعينه يقظة لذلك ، يبحث عما ينفع ، ويُعدِّل ما يميل ، ويقف ديدبانا في طريق إبليس وإغوائه ، يقول عمر :

---

(١) باهلة الجاسر ٢٠ .

«ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا، أو من عمل للدنيا وترك الآخرة، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه»[1].

وعمر لا يخدع، فهو يقظ، ويعرف طبائع النفس، ومداخل الضعف فيها ومنها، وهو لا يداجى ولا يحابي، ولا يخدره المدح أو الملق والتزلف، فهو أعرف بنفسه، ولا يرضى لأحد أن يعلو عليه في فكر، أو يختله في رأي، ولقد التفت التفاتة مفاجئة، التفاتة صقر حر عندما سمع منشداً ينشد:

ما ساسنا مثلك يا ابن الخطاب
أبرّ بالأقصى وبالأصحاب
بعد النبي صاحب الكتاب

فنخسه عمر، وقال: «أين أبو بكر ويلك!»[2].

---

(١) مجالس ثعلب ٢/٥٦٨.
(٢) الامتاع والمؤانسة ٣/١٠٣.

مسكين هذا الراجز ، ضاع سعيه ، وخاب جهده ، لأنه قلل من فهم عمر ، ولم يعرفه حق المعرفة . لقد حصل على نخسة له ، ودعاء عليه .

وخاب شاعر آخر رأى عمر خللا في شعره ، والفرق بين الشاعر وعمر هو الإيمان فكمالُه في عمر ، وعدم كماله في عبد بني الحسحاس ، فقد أنشده هذا :

عميرة ودع إن تجهزت غازيا
كفى الشيب والإسلام للمر ناهيا

فقال له عمر : «لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك»[1] .

وهكذا أضاعت دقة عمر ، وقوة إيمانه ، على الشاعر الجائزة ، إن عمر يمشي بنور الله ، فلعل عبد بني الحسحاس لم يكن ذا نيّة صافية .

وعمر واضح فيما يريد من عماله عندما يوليهم

(١) الشيب ٢٥ .

أمراً، ويجعل السياسة التي يريد منهم أن يتبعوها في توجيه يلقيه عليهم قبل أن يذهبوا للولاية التي ولوا أمرها، ويتبين بعض ذلك فيما قاله عمر لابن مسعود عندما وجهه إلى الكوفة، قال:

«إني وجهتك معلما ليس لك سوط ولا عصا، فاقتصر على كتاب الله، فإنه كفاك وإياهم، ولا تقبل الهدية، وليست بحرام، ولكني أخاف عليك القالة»[1].

إنه لا يريد ممن ولاه أن يتسلط على عباد الله، فهو معلم لهم، يبين لهم الخطأ من الصواب، ولا يحتاج إلى أداة يرجع إليها إلا كتاب الله، ففيه كل شيء يحتاجه في علاقته مع الناس، وهو النظام الذي يحكم علاقة الحاكم بالمحكوم، والمحكوم بالحاكم، والثواب والعقاب يجب أن يكون في حدوده. والهدية لا يحرمها عمر، ولكنه يمنع واليه أن يقبلها، حتى لا تتسبب بقالة يقولها الناس عن

---

(١) وكيع ٢/١٨٨.

الوالي ، لا يعرف الصدق فيها من الكذب ، وهذا هو منهج عمر في البعد عن الشبهات .

والكوفة بلد أعيا عمر حسب قول عمر نفسه :

قال عمر : «أعضل بي أهل الكوفة إذا وليت عليهم الفاجر القوي فجروه ، وإذا وليت المؤمن الصعب هجنوه» .

فقال المغيرة : «المؤمن الضعيف له إيمانه ، وعليك ضعفه ، والفاجر القوي لك قوته ، وعليه فجوره» . قال : «صدقت وولاه الكوفة»[1] .

وتتبين شخصية عمر المتميزة فيما قاله عمرو بن العاص فيما لمحه في عمر ، وتعامله مع الناس ، وصلتهم به :

«ما رأيت رجلا يكلم عمر بن الخطاب إلا رحمته ، لأنه كان أعقل من أن يخدعه أحد ، وأتقى لله من أن يخدع أحداً»[2] .

---

(١) محاضرات الأدباء ٦٨ .

(٢) من اسمه عمر من الشعراء ١١١ .

وعلى هذا فعمر حصن حصين لا يستطيع أحد أن يخترقه ، وميزان عدل لا يجور ، وهذا ما جعل له الهيبة في قلوب الناس ، يقول ابن قتيبة في «عيون الأخبار» حدثني أبو حاتم قال : حدثنا الأصمعي قال : حدثنا جد سران ، وسران عم الأصمعي قال : «كلم الناس عبدالرحمن بن عوف أن يكلم عمر بن الخطاب في أن يلين لهم ، فإنه قد أخافهم ، حتى إنه قد أخاف الأبكار في خدورهن ، فقال عمر : إني لا أجد لهم إلا ذلك ، إنهم لو يعلمون ما لهم عندي لأخذوا ثوبي عن عاتقي»[1] .

ويمكننا أن نعرض نموذجاً لولاة عمر ، ونمطاً يعجب عمر ، لأنه يعطي صورة لما يريده في ولاته :

دخل عمير بن سعد على عمر لما رجع إليه من ولاية حمص ، وليس معه إلا جراب وإداوة وقصعة وعصا . فقال عمر : «ما الذي أرى بك من سوء الحال ؟» ، فقال : «أولست تراني صحيح البدن ،

---

(١) عيون الأخبار ١/٦٦ .

معي الدنيا بأسرها» . قال : «وما معك ؟» . قال : «جرابي ، أحمل فيه زادي ، وقصعتي أغسل فيها ثوبي ورأسي ، وإداوتي فيها ماء سقيتي ، ومعي عصاي ، إن لقيت عدواً دافعته بها ، وما بقي فتبع لما معي» . قال : «صدقت»[1] .

(١) محاضرات الأدباء ٧٢ .

أولو العزم(*)

يقيم الخيمة التي تتسع لإظلال عشرين رجلاً، وإيوائهم، عمود واحد، ويقيم خيمة أكبر من هذه مرتين عمودان، وتحمل قاعة كبرى في قصر فخم أعمدة تعد على الأصابع، مبثوثة هنا وهناك، وكذلك المجتمعات يقيمها أفراد حباهم الله صفات يتميزون بها، أحيانا تكون هذه الصفات موروثة وأحيانا بعضها مكتسب، أمكن من تحصيله وضمه إلى ما هو موروث من الاستعداد الفطري مجتمع صالح، وتربية حسنة، ورفقة فاضلة، وأعين والدين يقظة، مع بصيرة حانية.

لهذا كان العرب حريصين على الابتعاد عن خضراء الدمن، فالجمال لم يكن عندهم في المقام الأول، وإنما السلالة الفاخرة، ذات الأعمال المجيدة، التي ترفع الرأس، ومدلولها الشجاعة

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٦٠٥) في ٢٠/٥/١٤١٣هـ الموافق ١٤/١١/١٩٩٢م.

والكـرم والوفاء ، ومراعاة الفضيلة المعتبرة عندهم مثل صيانة العرض، ورعاية الجوار .

ومن أبرز الصفات التي لا يقدر عليها إلا ذوو العـزم، ضبط النفس ، والسيـطرة على جيشـان العواطف ، وكبحها عما تريد في ساعة الإثارة ، طلبا للمجـد الأعـلى والأسمى ، وانسيـاقـا مع اتجـاه موروث ، كامن في الطبيعة ، والفطرة التي فطر الله عليهـا من خصهم بهذا الفضـل . يطيش سهم الآخرين وهم هادئون ، ويغلى مرجل غيرهم وهم ماؤهم ساكن بارد، ويثـور بركـان قوم، ونفسهم مطمئنـة ، غيرهم يتعذب إذا ضاعت منهم فرصة الانتقام ويأسى ، وهم يتلذذون بالعفو والتسامح ، وينشدونه فيعطونه .

تصرفـات بعض هؤلاء تدخـل نطاق الخيـال ، وتكاد تكون مستحيلة ، قياسا على المعتاد والغالب في النـاس . والقصـة الآتية تري نوعاً من جواهر الناس ، الذين لا يوجدون إلا في منجم ثمين نادر .

يقول صاحب «تمام المتون» :

حكى الوزير سليمان بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين، قال : «كنت قد نشأت بالحضرة، وتصرفت في خدمة الخلفاء، فلما تقلدتُ مصر سرت إليها، وواليها محمد بن خالد الصريفيني - وكان في غاية العَفاف والنزاهة - فقبضت عليه لما وصلت إلى مصر، وكان قد بلغني أن عنده ستين بغلا من بغال مصر المنتخبة، فطالبته باحضارها إليّ، فلم يعترف لي بها.

وكان أكثر أهل مصر يميلون إليه لحسن سيرته، فاجتهدت في الكشف عليه والتتبع، فلم أقف له على خيانة، ولا ارتفاق. فأقام في حبسي مدة. ثم إن أخاه أحمد بن خالد الصَّرِيفيني أصلح حاله مع الحضرة، وكان متمكّنا منها، فأخذ العمل لأخيه محمد كما كان، وأخذ الكتب إليه، وسبق بها كل خبر».

فبعث محمد بن خالد الصّريفيني إليّ عند ذلك

يقول :

« ما هذا ! قد طال حبسي ، وكشفت عليّ فلم تجد لي خيانة ، وأشتهي أن تحضرني مجلسك ، وتسمع حجتي ، وتزيل السفراء بيني وبينك ، على أن نتفق على أمر » . فطمعت فيه ، وقدرت في نفسي الايقاع به ، فأمرت باحضاره ، فلما دخل رأيت من كثرة شعره ووسخه ، وتأذّيه بالجبة الصوف والقيد ما غمّني . فأجلسته بحضرتي ، وقلت :

« اذكر ما تريد » ، فقال : « خلوة » ، فصرفت الناس ، فاخرج إليّ الكتاب بالظرف ، وقال : « هذا كتاب بعض اخوانك ، فاقرأه » ، « فلما قرأته وددت أن أمي لم تلدني ، وعرقت من فرقي إلى قدمي ، وأظلمت الدنيا في عيني ، ولم أشك في لبس جبة الصوف ، والقيد ، والمصير إلى تلك الحال » .

فلما قرأت الكتاب قمت إليه ، وجلست معه . قال : « لا تشغل قلبك ، وابْعث من يأخذ ما في رجلي » . ففعلت ، وأحضرت المزيّن ، فأخذ من

شعـره ، ودخـل الحـمّام وخـرج . وقـال : « هات طعامك » ، فتغدّينا جميعنا ، وأنا انظر إليه ، وهو لا يكلمني بحرف في العمل .

ثم قال لي :

« أتـأذن لي بالانصراف » ؟ فقلت : « يا سيدي ، هذه الـدار وما فيها بأمرك » . فقال : « لا ، ولكن أنصرف السـاعـة ، وأسـتريـح ، وأغـدو إليك » . ومضى ، فختم على الديوان ، وعلى ما فيه ، وسيّر إلى نوابى فأحضرهم ، ووكل بهم . وقال : « ليس بك حاجـة أن تذكـر لي شيئا من أمر البلد ، فإني أحفظه وأعرفه . وقد صار إليك من البلد كذا وكذا » .

فأحضر الجهـابذة ، وأمرهم بتسليم ذلك إليّ . وأحضر لي البغـال التي كنت طلبتها منه ، وقال : « وأنـا لا أفتـح الـديـوان ، ولا أنـظر في شيء من أحواله ، وأنت في مصر ، فانصرف في حفظ الله ، وفي كلاءته » .

ثم إنـه خرج معي مشيعـا ، فخرجت وأنا من أشكر الناس له ، وأشدهم حياء منه ، ولما عاملته به ، وما عاملني به »[1] .

وإنها لشجاعة أدبية مقدرة أن يروي ابن حصين نقصه ، وكمال الصريفيني ، ولا غرو فمعدنه جعل الخليفة يختاره حاكما لمصر ، إحدى المقاطعات المهمة في عقد الخلافة . وما عامل به ابن حصين الصريفيني هو عندهم في تلك الازمان ما جرت به العادة أن يعـامـل به العـامـل الجـديـد العامل المعزول من المحاسبة والاستقصاء ، والحبس والتضييق . وليس هذا غريبا لأن التعيين يصحبه مقاولة يتعين فيها على العـامـل الجديد أن يضمن لمركز الحكم في بغداد مبلغا عاليا معينا ، يستخلصه من العامل المعزول ، ومن يصادر أو يغضب عليه ، ويكمل من الجباية والزكاة والجزية . وقد أثبت الصريفيني أنه كان من خميرة طيبة ، وطينة زاكية ، لم يعرفها ابن حصين ،

(١) تمام المتون : ١٠٠ .

فارتفع عما يتبعهُ عادة العامل المعين ، وبعض بخور الند يحتاج إلى أن تمسه النار حتى يعرف طيب عرف عوده .

لو نظرت حواليك ، ودرست المحيطين بك ، وتذكرت أمورك الماضية ، ستجد أن هناك من هو من ذوي العزم أمثال الصريفيني يعفون عمن أساء إليهم ، ويتسامحون ويتكرمون وينفعون من ضرّهم ، ويسرون من آلمهم وأحزنهم ، صحيح أنهم قليلون ، ولكنهم موجودون ، وهم بركة المجتمع ، وعمد خيمة سعادته .

درجات السلم(*)

إحدى النظرات إلى تكوين المجتمع تجعله مثل السلم، له درجات وزلفات، تبدأ من أسفله إلى أعلاه؛ والناس على هذه الدرجات مختلفون في المقام، بعضهم في أعلى الدرجات، وبعضهم في أوسطها، وبعضهم في أدناها. والخلق الحسن بأنواعه هو الذي يؤهل المرء للصعود، واجتنابه ونبذه يؤدي إلى الانحدار.

ومن الذين يلتصقون بالدرجات السفلى النّمامون والواشون، الذين يصيدون في الماء العكر، ويتسقطون زلات الناس، يفرحون بها، ويتقربون بها، ويتاجرون بها، وينقلونها ويبثونها وينشرونها؛ بها ينفسون عن حقدهم، ويبردون حرارة غلة في صدرهم؛ فهم وصمة في جبين المجتمع الذي هم فيه، وهم لطخة سوداء في

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٦١٢) في ٢٧/٥/١٤١٣هـ الموافق ٢١/١١/١٩٩٢م.

صفحته البيضاء ، وهم معروفون ، ليسوا خافين على أحد ، ولا على أنفسهم . وبعضهم يألف هذه النقيصة ، ويتمسك بها ، ويتلذذ باتقانها .

ومن الـذين يرتقـون إلى أعـلى درجـات سلم المجتمـع ، أولئـك الـذين يصـدون هؤلاء الوشاة والنّمامون ، ويوصدون الأبواب في وجوههم ، دون مراعـاة أو مبالاة ، ويبينون لهم تدني الدرجة التي اختاروها لأنفسهم ، ويصارحونهم أنهم ليسوا على استعداد لترك ما حباهم الله به من علو وارتقاء إلى ما أراد هؤلاء لهم من ضعة وانحطاط ، ولا يترددون في تبصيرهم بسواد أفعالهم ، ونبذ المجتمع لتصرفاتهم .

والنمام يلبس أحيانا ثوب الطاعة والعبادة ظاهراً ليوهم أنه أراد بعمله وجه الله ، ولكن نيته تسبقه ، وعمله يفضحه ، فيرد إليه كيده . وقد يكون التقرب الآثم عن طريق نصيحة في ظاهرها مكسب ما لمن أسديت له ، مكسب ديني ، أو مالي ، أو يتصل

بالسؤدد والجاه . ويحاول النمامون والواشون دراسة من يختارونه لصيدهم ، فيحاولون أن يتعرفوا على المداخل إلى نفسه ، فإذا توهموا أنهم اكتشفوا ما سعوا لمعرفته انقضوا انقضاض الصقر على الفريسة ، وحاولوا إنشاب مخالب حادة ، دون رحمة أو هوادة ، ولكن الذين أنار الله بصائرهم يردون كيدهم في نحرهم ، ويبطلون ما خططوا له ، وينكثون ما غزل هؤلاء .

في القصص التي سأنقلها هنا من كتاب «تمام المتون» تظهر صورة مضيئة لأناس بددوا بنورهم الوهاج ظلمات أسدلتها نفوس مريضة :

رفع بعض السعاة إلى الأمير السفّاح قصة بسعاية على بعض عماله ، فوقّع فيها : «هذه نصيحة لم ترد بها ما عند الله ، ونحن لا نقبل قول من آثرنا على الله»[1] .

إن هذا التقرب الخاطىء ، والمداهنة المتدنية ، لم

(١) تمام المتون : ٢٣٣ .

ينجحا مع السفّاح، لما أحس به من أنه لم يُرَد بهذه السعاية وجه الله - سبحانه وتعالى - .

وكتب بعض شهود الأهواز إلى الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر :

«قد مات فلان، وخلف خمسين ألف دينار عينا، ولم يخلف غير طفلة، فإن رأى استعراض المال إلى أن تبلغ الطفلة، ففي عقارها، وأملاكها، كفاية ! » .

فوقع على ظهر كتابه : «الطفلة جبرها الله، والمال ثمّره الله، والساعي لعنه الله، لا حاجة للسلطان إلى المال»[1] .

إن من يتداركهم الله بعنايته ولطفه، ويحميهم من الاغراء، ويحصّنهم من غواية الشيطان، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والعجب من هذا الساعي، الذي ما اختار أن يجور إلا على طفلة يتيمة، يزين للحاكم أن يأخذ منها النقد، ويكفيها

(١) تمام المتون : ٢٣٢ .

العقـار ومـا يدرّ عنـدمـا تبلغ . ولكن الله كان له بالمـرصاد ، فأحبط مسعاه ، وأبقى له مدخل الإثم عليه ، وربما حماها من جائر آخر . لا بد أن أموال والدها أموال حلال !

والقصة التالية تُرِي مدى إسباغ الله فضله على من كان في نيته بجانب الله :

لما ولي عبدالعزيز بن عبدالملك دمشق - ولم يكن في بني أميّـة ألَبَّ منه ، في حداثة سنِّه - قال أهل دمشق : «هذا غلام شاب ، ولا علم له بالأمور ، وسيسمع منا» . فقام إليه رجل ، فقال : «أصلح الله الأمـير ، عندي نصيحة ، فقال : ليت شعري ! ما هذه النصيحة التي ابتدأتني بها من غير يدٍ سبقت منّي إليك ! » قال : «جار لي عاص ، مختلـف معه» . فقـال : «ما اتقيت الله ، ولا أكـرمت أميرك ، ولا حفـظت جارك . إن شئت نظرنـا فيها تقول ، فإن كنت صادقا فيها قلت لم ينفعك ذلك عندنا ، وإن كنت كاذبـا عاقبناك ، وإن شئت أقلناك» . قال :

«أقلني». قال: «إذهب حيث شئت، لا صحبك الله! إني أراك شر رجل».

ثم قال:

«يا أهل دمشق، لولا أنه لا ينبغي للوالي أن يعاقب قبل أن يعاتب، كان لي في ذلك رأي، فلا يأتني أحد منكم بسعاية على أحد بشيء، فإن الصادق فيها فاسق، والكاذب فيها بهّات»[1].

أرادوا أن يختلوه، فصغر سنه أطمعهم فيه، ولكنهم وجدوا فيه رجلا لبيبا ناضجا، فاجأهم بما لم يكن لهم بالحسبان؛ حلل الموقف بما فيه من سوء، وعالجه معالجة الطبيب النطاسي، وأعطاهم درساً لن ينسوه، رسم لهم سياسته، وبيّن لهم الخطة التي يرتضيها، له ولهم، والطريق الذي سوف يسلكه معهم في حكمه، فأراح واستراح.

ويلمح المهدي وشاية، فيفاجئ صاحبها بغير ما كان ينتظر، فيقفل بكلمات محدودة جميع الأبواب

---

(١) تمام المتون: ٢٣٢، ٢٣٣.

في وجه الواشي :

قال رجل للمهدي : «عندي لك نصيحة ، يا أمير المؤمنين» ، قال : «لمن هي؟ لنا ، أم لعامّة المسلمين ، أم لنفسك؟» . قال : «لك ، يا أمير المؤمنين» . قال : «ليس الساعي بأعظم عورة ، ولا أقبح من قابل سعايته . ولا تخلو أن تكون حاسد نعمة ، فلا نشفي غيظك ، أو عدوّاً ، فلا نعاقب لك عدوّك» .

ثم أقبل على الناس ، فقال :

«لا ينصح لنا ناصح إلا بما فيه رِضَى الله ، وللمسلمين فيه صلاح ، فإنّما لنا الأبدان ، وليس لنا القلوب . ومن استتر لم نكشفه ، ومن أخطأ أقلنا عثرته . إني أرى التأديب بالصفح أبلغَ منه بالعقوبة ، والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعاجلة . والقلوب لا تبقى لوالٍ لا ينعطف إذا استعطف ، ولا يعفو إذا قدر ، ولا يغفر إذا ظفر ، ولا يرحم إذا استرحم»[1] .

---

(١) تمام المتون : ٢٣٥ .

وانظر إلى ردّ أحد العقلاء على ملاحظة أبديت تدخل ضمن إطار ما نحن بصدده :

قال معاوية يوماً للأحنف بن قيس ، في أمر بلغه عنه ، فأنكر الأحنف . فقال له معاوية ؛ «الثقة بلّغني عنك» ، فقال : «الثقة لا يُبلِّغ»[1] .

وهذا من منطلق الحكمة التي تقول : «إنما اللوم على من بلّغك» . ولأن الثقة إذا كان يعرف الأحنف وولاءه لا يخطر بباله أن يأتي منه ما يخدش مقام خليفة .

وهناك رجل ذو مقام متقدم في المجتمع ، ومنزلة مرموقة ، لمح تدنّي الفضيلة عند من أراد التقرب إليه بالسعاية ، فردّ ردّاً أدبيًّا جميلاً :

وقّع ذو الرياستين في رقعة ساع : «نحن نرى قبول السعاية شرًّا منها ؛ لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من دلّ على شيء ، وأخبر به ، كمن قبله ، وأجازه ؛ فاتقوا الساعي ، فإنه لو

(١) تمام المتون : ٢٣٤ .

كان في سعـايته صادقاً لكان في صدقه آثماً، إذا لم يحفظ الحرمة، ولم يستر العورة»[1].

إن في هذه النصـوص ذخـيرة لنـا من الخلق الحسن، فإذا كان وسعهم أن يستفيـدوا منهـا في حيـاتهم، فلنـا بهم أسوة، والدين ورأيه في النّمام والـواشي معروف وواضح، ولا يأكل الحسنات، ويـراكم الآثام مثل النميمة من النّمام، والاستماع لها، والأخذ بها.

(١) تمام المتون: ٢٣٤.

السحاب والغيث(*)

الغيث في الجزيرة العربية شغل الناس الشاغل، في كل العصور، لا يختص بهذا عصر دون آخر، والسبب معروف، ومتشعب، ومنه أن حياة الناس تعتمد على الله ثم على ما يأتي من نزول الغيث وتواليه وعمومه. وقد يتفاوت الناس في هذا الاهتمام، فالاعرابي في الصحراء يأتي في المقدمة، ويليه في ذلك الفلاح، ثم ساكن المدن، وهو أقل الفئات اهتماما بهذا المجال.

والحاكم في كل زمن، في أي بلد في الجزيرة، في مقدمة من يهمهم أمر الغيث، لأن في نزوله رخاءً للشعوب، والرخاء مصدر رِضًى، ومأتى بهجة. وارتفاع الغيث وانحباسه ثقل أول من يعاني منه الحاكم، فهو المسؤول عن تعويض الناس عما يفقدون، وعليه يقع العبء في توفير أقل ما يطلبه

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٦١٩) في ١٤١٣/٦/٤هـ الموافق ١٩٩٢/١١/٢٨م.

الناس لمعيشتهم في سنوات القحط والجدب . ولا نبعد في التذكر ، فهناك سنوات الجدب التي عانى منها شعب فرعون ، وما نبههم إليه يوسف - عليه السلام - من سنوات القحط التي توقع ، في ضوء الحلم وتفسيره ، أنها مقبلة ، والحل الذي أرشد إليه ، وأقرب منه لزمننا قول هارون الرشيد - وقيل غيره - للسحابة المثقلة : «امطري حيث شئت فخراجك لي» ، إشارة إلى سعة ملكه ، وامتداد سلطانه .

فنشوء السحاب ، وادلهامه ، وتجمعه من الجهة التي عادة ما تجيء منها سحب الغيث الملقحة ، أمر تتطلع إليه العيون ، وتتعلق به القلوب ، وتخفق فرحا له الأفئدة والمهج ، ويصبح حديث الناس في مجالسهم قولا وترداد قول ، ينسيهم كل شاغل ، ويصغر عندهم كل أمر كبير ، تتلون في متابعته الآراء ، وتتعدد الأخبار ، ويتفاوت التوقع عنه متى يهل ، هل هو هنا أو قبل أن يصل ، أو بعد أن يمر ، فيصبح «نفيضا» قد أفرغ ما به ، ونفض ما بِخرجه

من ماء، أو هل سيكــون نصيبهم منـه الـزمجـرة والابراق، وحَظ أرض أخرى أوفى.

والاعراب ورجال البادية، وهم في مقدمة المتابعين للغيث ونشـوئه، وسيره وهطوله، لهم من الأقوال المأثورة، ما امتلأت به كتب الأدب وتاريخه، هم خير من يعبر عن السحاب وأنواعه، وعن الغيث وفئاتـه وصفـاتـه، ومـا يفعله بالأرض والنبات، وتعبيرهم عن كل هذا متنوع وممتع. والمتتبع لما قالوا يدهش من هذه الأفكـار الغـزيـرة، والتعبـيرات الـدقيقـة، والأسـاليب البـديعـة. وقد شُهد لهم بالتخصص في هذا منذ الزمن القديم. والقصصُ التالية خير شاهد على ذلك، ولعل أنسب ما يمكن أن نبدأ به ما روي عنه - ﷺ - في هذا المجال:

روى الاصمعي عن أبي بكر الهذلي عن رجال من قومه: أن أصيل الهذلي قدم على رسول الله - ﷺ - من مكـــة، فقـال له: «كيـف تركت مكـة وخصبها»؟ قال: «يا رسول الله تركتها قد ابيضت

بطحاؤها، واخضرت مسلانها - يعني شعابها - وأَمْشَرَ سَلَمها - والإمشار ثمر له احمرْ، يخرج في أطراف الورق - وأغدق إذخرها - والاغداق اجتماع أصوله - وأحجن ثمامها - والاحجان يفقعه -» . فقال رسول الله - ﷺ - : «يا أصيل دع القلوب تقرّ، يعني تقر بالمدينة، لا تشوقهم إلى مكة»[1] .

وفي زمن لاحق هناك نص له دلالته الواضحة على ما نحن بصدده، وفيه طرافة، تدل على أهمية الغيث عند الحاكم، لما فيه من خير وبركة للمحكومين، وحساب فرد منهم حساباً عظيما أدخله في موقف حرج حينئذ، وأصبح طرفة لنا :

قال أبو الحسن المدائني : بعث يزيد بن المهلب «سريعا» : مولى عمرو بن حريث إلى سليمان بن عبدالملك، فقال «سريع» : فعلمت أنه سيسألني عن المطر، ولم أكن أرتق (أؤلف) بين كلمتين .

---

(١) المنتقى من أخبار الاصمعي ص ١١١ .

فدعِوت أعرابياً ، فأعطيته درهما ، وقلت له : كيف تقول إذا سئلت عن المطر ؟ فكتبت ما قال ، ثم جعلته بيني وبين القَرَبوس ، حتى حفظته . فلما قدمنا قرأ كتابي ، ثم قال : «كيف المطر ؟» فقلت : «يا أمير المؤمنين ، عقد الثرى ، واستأصل العرق ، ولم أر واديا دارئاً» . فقال سليمان : «هذا كلام لست بأبى عذره» . فقلت : «بلى» ، فقال : «اصدقني» فصدقته . فضحك حتى فحص برجليه[1] .

وهناك نص ثالث يحدد ما يتطلع إليه البادي ، وما يفرحه ويبهجه من الغيث ، وما يسره ويطربه منه ، مما يتلذذ بوصفه ، ووصف أثره :

قيل لرجل : «كيف كلأ أرضك ؟» ، قال : «أصابتنا ديمة بعد ديمة ، على عهاد غير قديمة ، فالناب تشبع قبل العظيمة»[2].

بهذا النص تتبين الدقة في التعبير ، والتفنن في

---

(١) مجالس ثعلب ١/٢٨٣ .

(٢) مجالس ثعلب ١/٢٨٣ .

رسم الصـورة، واختيـار الـزاوية التي نظر منهـا القائل، وحسن اختيارها.

قيـل لأعـرابي: «أي مطر أصابك؟»، قال: «أصـابنـا مُطَير كسيل شعاب السّخْبَر - شجر إذا طال تدلت رؤوسـه - فروى التلعـة المحلة - التي تحل بيتاً أو بيتين»[1].

وجـاء أعرابي آخر، ليصف وصفا مختلفا، من زاوية مختلفة، فجاء مغايراً لما سبق، ولكنه لم يخرج عن دائرة الاهتمام الممزوج بالفرح والبهجة:

لقي رجـل من بني شيبـان رجـلا، فسأله عن المطر؟ فقال: «أصابتنا أمطار حسنة، اشتد لها ما استرخى من الأرض، واسترخى لها ما اشتد منها» - أي استرخى لها جلد الأرض، واشتد الرمل لمّا ندي[2].

ومخبر بني سعد جاء بتعبير جديد عن السابقين،

---

(١) مجالس ثعلب ١/ ٢٨٤.

(٢) مجالس ثعلب ١/ ٢٨٩.

ووصف وصفا رسم فيه صورة رآها :

استخبر صالح بن عبدالرحمن - أحد كتاب الوليد بن عبدالملك - رجلا من بني سعد ؛ فقال : أقبلت حتى إذا كنت بين هذا الحزن والسهل ، وفي كفة النخل - ناحيته - رأيت خرجا - أول ما ينشأ السحاب - من السحاب ، منكفت الاعالي ، لاحق التوالي ، فهو غادٍ عَليك ، أو سارٍ ، ليسيّل السُّلان - المسايل الضيقة في الوادي - ويروي الغدران »[1] .

وابن البادية لا يتوقع من الحضري أن يفهم أمر الغيث ، ويرى أن هذا من اختصاصه هو ، ولا يجوز أن يشاركه فيه أحد من الحاضرة ، ولذا لا يرحب بتدخلهم في أمر هو من شأنه ، خاصة إذا جاء السؤال من الحضري ساذجا ، وقد يقفل باب السؤال بجواب يدل على تأففه ، فيحمل من السخرية ما يكشف عما يجول بخاطره .

سأل رجل من أهل المدن رجلا من أهل البادية :

---

(١) مجالس ثعلب ١ / ٢٩٠ .

«هل عندكم ما يرعى؟» ، فقال البدوي ، وهو يهزأ : «نعم ، عندنا (مقمل) ، و (مدب) ، و (باقل) ، و (حانط) ، و (ثامر) و (وارس)» . وإنما عنى بذلك كله «الرمث» ؛ لأن الرمث أول ما يتفطّر بالنبت يقال قد أقمل ، فإذا زاد عَلى ذلك التفطر شيئاً قيل قد أدبى ، وهو الباقل ثم الحانط ، والحانط المدرك من كل شيء ، والثامر الذي قد أخرج ثمره ، والوارس الذي قد اصفرّ ، وكاد يتحاتّ ويتساقط .[1] .

وعن الجدب والقحط والسحاب والغيم ، وما يأتي معه من غيث ، يقول أعرابي من بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة من تميم : «لقد رأيتنا في أرض عجفاء ، وزمان أعجف ، وشجر أعشم - قد يبس - في قفّ غليظ ، وجادة مدّرعة - أكل ما حولها - غبراء . فبينا نحن كذلك إذا أنشأ الله من السماء غيثاً مستكفّا ، مستديراً نشوؤه ، مسبلة عَزَاليه ، - مصابه - ضخاما قطره ، جَوداً صوبه ،

(١) مجالس ثعلب ١/٢٩٢ .

زاكيا، أنزله الله فنعش به أصولنا، ووصل به طرقنا. وأصابنا وإنا لَبِنَوْطَةٍ - أرض الطلح - بعيدة الأرخاء، فاهرمّع - اشتد - مطرها، حتى رأيتنا وما غير السماء والماء، وصهوات - أعاليها - الطلح؛ فضرب السيل النِّجاف - المكان الذي لا يعلوه الماء المستطيل المنقاد - ؛ وملأ الأودية فزعبها، فما لبثنا إلا عشراً حتى رأيتها روضة تندي[1].

ويبدو أن مادة الحديث عن الغيث دسمة، اجتذبت بعض الأدباء ليبرزوا مقدرتهم على الفصاحة، وحصيلتهم الغريبة من اللغة، فرووا ما فيه وحشي وغريب، مما يجعل الشك يحوم حول ما يروونه، وتقرب منهم التهمة في أنهم لفقوه؛ لأنه لا يتصور أن يوغل الأعراب في وصفهم حالهم من الجدب والامحال، أو الربيع والخصب إلى هذا الحد من التعمية والابهام، مما لا يصلون معه إلى هدف، ولو كانت الوحشية والغريبة كلمة واحدة أو اثنتين، أو

(١) مجالس ثعلب ١/ ٢٩٤.

كلمات مبثوثة هنا وهناك ، لأمكن قبول الأمر ، والتغاضي عما فيه من شذوذ ، ولكن الأمر غير مقبول عندما تكون القطعة الأدبية مثلما رواه ثعلب في مجالسه ، قال :

وقف أعرابي على قوم من الحجاج ، فقال : «يا قوم ، بدء شأني ، والذي ألفجني - أحوجني - إلى مسألتكم ، أن الغيث كان قد قوي - احتبس - عنا ، ثم تكرفأ - تراكم - السحاب ، وشصا - ارتفع الرباب - السحاب المتراكب - وادلهمّ سيقه - ما طردته الريح - وارتجس - صوت صوتا غليظا - ريّقه - أول شآبيبه - وقلنا : هذا عام باكر الوسمي ، محمود السُّمي - جمع سماء وهو المطر - ثم هبّت له الشمال ، فأحزأت طخاريره - ارتفعت قطع السحاب المستدقة - وتفزّع كِرْفِؤه - تفرق متراكم سحابه - متياسراً ، ثم تتبّع - انبسط - لمعان البرق ، حيث تشيمه الأبصار ، وتحده النظّار ، وَمَرَت الجنوب ماءه ، فقوض الحيّ مزلّين - ذهبوا مسرعين - نحوه ، فسرحنا المال فيه ، فكان وخما

وخيما، فأساف المال - أمات الإبل - وأضف - أضعف - الحال، فبقينا لا تُيسّرُ - لا يكثر لبنها ونسلها - لنا حلوبة، ولا تنسل لنا قتوبه - الإبل وعلى ظهرها الاقتاب -[1].

من الصعب قبول هذا الخبر على أنه قول أعرابي وقف بقوم يخبرهم عن حال قومه من الجدب والخصب بكلمات مثل «الفجني» بدل: «اضطرني» وهي كلمة نابية ومتصيدة، وكلمة «قوي عنا» بمعنى «احتبس» و «نشيمه» بدلا من «ننظر إليه»، وغيرها من الكلمات الوحشية المقتسرة، خاصة وهو يخاطب حجّاجاً لا بد أن بينهم شبه الاعجمي، وهو يريد التأثير، هذا التصيد والاقتناص للكلمات يدل على أن مؤلف هذه الأسطر فتح قاموسا في ذهنه، وأخذ يختار الكلمات المغربة، ليصفّها رصفا مكان الكلمات السلسلة المعروفة، فضاع المعنى، وقصر الرمي عن الهدف، في عجاج خيل الأدب، وفراس

(١) مجالس ثعلب ١/٢٩٦.

اللغة ، وما درى الأديب أنه سوف ينظر إليها هذه النظرة والا كان وأدها في مهدها .

والحديث عن المطر والخصب في كتاب «مجالس ثعلب» وعن القحط والجدب كثير ، ومن أحب الاستزاده ، فيمكنه الرجوع إلى القسم الأول منه ، ففيه ما قد لا يتوقع من الإفاضة والاستطراد .

على أي حال لا يزال الأعراب هم الأعراب ، في اهتمامهم بالجدب والخصب ، ونشوء السحاب ، وتراكمه ، وألوانه ، وسيره ، ولطم الرياح له ، وسوقها ، ونزول الغيث ، وجريان السيول في الأراضي والشعاب والوديان ، فللأعراب اليوم في زماننا تعبيراتهم التي لا يستطيع أن يجاريهم فيها حضري إلا إذا قلدهم بالاستقاء منهم ، والمتح من مائهم .

أما الأدباء فقد تركوا بصماتهم على هذا الجانب ، وأدلوا دَلْوهم مع من متح من هذا المستقى ، وأجادوا الوصف ، لما معهم من مفردات عن السحاب

والمطر والخصب، أضفوا عليها من المحسنات البديعية ما أكد طول باعهم في هذا المجال. يقول صاحب كتاب: «زهر الآداب وثمر الألباب» في مقدمات المطر:

«لبست السماء جلبابها، وسحبت السحائب أذيالها. قد احتجبت الشمس في سرادق الغيم، ولبس الجو مِطْرَافَه الأدكَنَ. باحت الريح بأسرار الندى، وضربت خيمة الغمام، ورش جيش النسيم، وابتل جناحُ الهوس، واغرورقت مقلة السماء، وبشر النسيم بالندى، واستعدت الأرض للقطر. هبت شمائل الجنائب لتأليف شمل السحائب، تألقت أشتات الغيوم، واسبلت الستور على النجوم»[١].

ولعل تجميع هذه المقدمات يبديها في صورة التكلف، إذا ما قيست ببداهة الأعراب المتماسكة الواضحة الرصينة.

(١) زهر الآداب ٢٣٦.

ولعل أجمل ما نختم به هذا القول بعض ما جاء على لسـان الرسول ﷺ في دعائه عن المطر ، وفيه صورة واضحـة عما كان يهم النـاس ويشغلهم في ذلـك الوقت ، وفي وقتنا هذا ، وسيبقى الأمر تجاه الاستسقاء ، وإمساك المطر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لما شكى رجل ، بعد الاستسقاء وتوالي الأمطار أسبـــوعـاً كامـلا ، الاضرار التي أصـابت النـاس والأموال ، وطلب من الرسول ﷺ ، أن يدعو الله ليمسك الأمطار ، رفع - عليه السلام - يديه ، ثم قال :

« اللهم حوالينـا ولا علينا ، اللهم على الآكام والجبال والظِراب والأودية ومنابت الشجر ، فانقطعت » .

وقـد حصر - عليـه الصلاة والسلام - الأماكن التي تستفيد من الأمطار ، وتتعطش لها ، ودقته عليه السـلام في تحديـدهـا لا تستغرب فهو ابن البادية

والحضر، ويعرف آمال هؤلاء وهؤلاء وآلامهم جميعا.

والصحابة استعملوا في شكواهم للرسول عليه السلام كلمات تصف حال المطر وإمساكه وما يأتي في ذلك فقالوا:

«قحط المطر، واحمرّت الشجر، وهلكت البهائم، فادع الله يسقينا»، وفي عبارة أخرى: «تهدمت البيوت، وانقطعت السبل، فادع الله يحبسها عنا».

وكان عليه الصلاة والسلام إذا رأى المطر قال: «اللهم صيّبا نافعاً».

ولم نر التكلف في دعائه - صلوات الله وسلامه عليه - وكانت الدقة سمة كلماته، والوضوح ديدن أسلوبه، ولعل الكلمة الوحيدة التي مرت بنا مما قد لا يعرفه إلا القليل من الناس كلمة «الظراب» وهي الروابي الصغار وواحدها «ظرب».

كاني ماني(*)

تقول العامة قولا تعارفوا على معناه بينهم ، يقول أحدهم : «أنا ما عندي كاني ماني» وهو عندهم بمعنى : «أنا لا أحب اللف والدوران» . أو «أنا لا أمشي في الخطأ أو لا أقبله» ، أو «لا أغش في تجارة أو أخل بمهنة» . ويقوله من يريد أن ينفي عن نفسه إخلاف الوعد ، أو يبعد عن نفسه الضحك منه أو عليه ، أو من يريد من آخر أن يقلع عن فعل تجاهه لا يرضاه ، أو من يريد أن يفهم الآخرين بأنه رجل جدّ لا هزل . وهو تعبير لدن في مثل هذه الحالات التي لا تحد . وبمجرد التلفظ به تصل الرسالة التي يحملها من المتكلم إلى السامع واضحة جلية .

ويقول قائل آخر في موقف آخر : «لا تقولي كاني ماني» أي لا تراوغ ، أو ترجع في كلامك ، وما وعدت به ، أو لا تنكر أنك قلت كذا ، أو طلبت

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٦٢٦) في ١١/٦/١٤١٣هـ الموافق ٥/١٢/١٩٩٢م .

كذا، أو قبلت كذا أو رفضته . وتؤدي هذه الجملة غرضها بالنفي كما أدته بالاثبات بالصيغة الأولى .

وننتقل إلى صورة أخرى مما يسير على الجادة نفسها . يتكلم المتكلم أحيانا بلفظ له معنى واضح مقصود، ثم يردفه بآخر لا يتبين له معنى، أو يتضح له مدلول، وتستوحى الفائدة وتستنبط على أن القصد منه إتساق اللفظ مع الكلمة الأولى، وانسياب النغمة ؛ فيقول المتكلم مثلا : «قلم أو ما قلم» أو «قلم ملم» و «ورق ما ورق» أو «ورق مرق» أو «بلا كلام بلا ملام» أو «بلا زعيق بلا معيق» ، أو «بلا هات بلا مات» أو «بلا شوف بلا موف» أو ما إلى ذلك مما يأتي على هذا النسق . ودائما المرادف يبدأ بحرف الميم .

ويحاول المرء أن يجد سببا أو أساساً أو معنى لهذا التعبير، فلا يجد إلا أنها كلمة تعدل الكلام وزناً وموسيقى . وإن أبعد الإنسان في الظن قال إنها صيغة قديمة، تطورت عن كلمة أصيلة في الجملة،

وأن أحد أطوارها : «ورق وما أدراك ما ورق» . وقد لا يكون الظن بعيداً ، فيكون الأمر كما تُخُيِّل .

ولكن الرأي الذي يرتاح له المرء ، ويشعر بالطمأنينة نحوه ، هو الاعتقاد بأن المتكلم أراد أن يوجد شيئاً يتكئ عليه ، فلم يجد غير هذا عكازاً للجملة . وتشعر عندما تسمع الجملة أو تقرؤها أنها استراحت على هذا المتكأ ، ولم تعد قلقة مضطربة ، أو وحيدة منفردة مستوحشة . ولعل العرب الأوائل بفصاحتهم الفطرية ، واهتمامهم بكل ما يخص فكرهم ونطقهم ولغتهم كانوا يلجؤون إلى إراحة الجملة وإرضائها بمتكأ المرادفة المتناسقة مع الجملة . ولا مانع عندهم إذا لم يأت المتكأ بمعنى جديد ، والمهم عندهم ألا يخل بالمعنى . ولقد أبدعوا في هذا ، وتميز بعضهم بأسلوب ترادف الجمل القصيرة ، التي تضيف معنى ، أو تحسّن نغمة ، أو تفصل إفادة أو توضحها وتجليها ، وتزيل غامضها ، أو تجمل ما فصّل ، وتختصر ما أطيل فيه . وأصبحت علامة للاجادة والفصاحة . وأصبح

أسلوبهم فيـه أسلوبـاً يحتذى . والجاحظ برز ، في زمانه وبعده ، إمام أسلوب ترادف الجمل القصيرة ، ذات المعنى البليـغ والمتكـأ المـريـح . تأتي الجملة المــرادفـة مفيـدة في المعنى ، وفي الصـورة والنغم والصـوت والمبنى ، فتضيف معنى جـديداً تعضـده الصـورة البيـانيـة في التـأثير والوقع . ولو لم يأت الكاتب بالجملة القصيرة المرادفة لاضطر إلى اللجوء إلى جملة طويلة منفــردة ، قائمـة بذاتهـا ، تُشعِـر بالانبتار والانقطاع ، كأنها نخلة في صحراء جرداء ، بدلا من عدد من النخيـلات ، متقاربات ، يؤنس بعضها بعضا .

واختيار الجمل القصيرة الرصينة ، ومعرفة مدى تأثيرها قديم ، استفاد منه العرب الأولون في مجال التـأثـير . ولعل من أقدم ذلك ما روي في العصر الجاهلي عن خطبة قس بن ساعده : «أيها الناس من عاش مات ، ومن مات فات ، ليـل داج ، وسـماء ذات أبراج ، أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، ما لي أرى الناس يذهبو ن ، ولا يرجعون ، أرضوا بالمقام هناك

فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا . . . إلخ».

ومن الأمثلة في العصر الإسلامي عن هذا الأسلوب النص التالي:

قال الاصمعي: لما أدخل الشعبي على الحجاج، قال: «هيه ياشعبي» (يعاتبه في خروجه مع ابن الاشعث) قال: فقال: «أحزن بنا المنزل، وأجدب بنا الجناب، واستحْلسنا الخوف (لازمنا)، واكتحلنا السهر، وأصابتنا خَزْيَةٌ، لم نكن فيها فجرة أقوياء، ولا بررة أتقياء».

قال: «لله درك ياشعبي»[1].

وكان لهذه الجمل الرصينة المتناسقة تأثير السحر على الحجاج، في هذا الموقف الرهيب، مع هذا الذنب العظيم، وأمام هذا الحاكم الذي عرف عنه الحزم والجد، والأخذ بالقوة.

ويدخل في هذا النمط من الترادف عبارات:

---

(١) مجالس ثعلب ١/ ٢٩.

«لا يعرف الحوّ من اللوّ» . أو «لا يعرف قبيله من دبيره» .

ولقد لاحظت في السنوات الأخيرة في المسلسلات التليفزيونية المصرية ، باللغة العامية ، متكأ لم يبد لي في الماضي ، ولعله لم يكن حينئذ ظاهرة مثل اليوم ، وقد عددت النطق به قبل أيام في منظر من المناظر أكثر من ثلاث مرات في أقل من خمس دقائق ، وكان سببا في متابعتي للمسلسل لأعرف مدى التركيز عليه ، مما جعلني أعتبره ظاهرة حديثة . يقول الممثل أو الممثلة مثلا : «هو أنا كنت خايف وإلا كنت خايف» . أو «هو أنا غاوي تعب والا غاوي تعب» . أو «هو أنا كنت مستني حاجة ياخويا ، ولا مستني حاجة» . أو «هو أنت كنت حتروح له ، وإلا حتروح له» . وتشعر هنا إن الجزء الأول من الجملة يصرخ ويقول : «إسندوني» . وإنه لمسند متين ، ومتكأ قوي ، جعل الجملة العامية هذه مرتاحة ، ولولا هذا الجزء الأخير لبقيت الجملة قلقة تهتز كأنها قصبة في يوم عاصف .

السليقة اللغوية، والاحساس الفني في القول، يوجب مثل هذه الاضافة، التي هي في الحقيقة تثبيت لأول الجملة، وسد ثغرة، وإكمال نقص، واتقاء خلل. ولا أعرف أن هناك لغة أخرى غير العربية تهتم هذا الاهتمام الدقيق المثابر بالجمال الصوتي سواء في المفردات أو الجمل. ويبدو لي أن اللغة العربية، لغة القرآن، تأخذ قصب السبق في هذا المجال، لما أَعتقده من أن العرب جعلوا حقهم من الفنون الجميلة في اللغة فقط، وحسنا فعلوا؛ فاللسان أداة الافصاح الحقيقية. وخشي العرب أن يقال لهم إن للعين حقا من الفن مثلما للأذن، فسارعوا بإعطاء العين حقها، لا بالرسوم والنحت، كما فعل الغربيون، ولكن بالتفنن في كتابة الخط، وجعلوا منه أنواعاً أفرغوا فيها من الاتقان والجمال، وتنظيم القواعد والمقاسات ما أصبح مسقط التعجب والاعجاب، ومرتكز الدهشة.

وكنت أرتاح إلى تعليلي بأن أمثال هذه الجمل إنما هي للاتكاء والاسناد، لأن الاستقراء يوصل إلى

هذا . ثم تأكدت من هذا ، وسعدت ، عندما عثرت على نص ثمـين في تراثنـا يؤكد لي ما ذهبت إليه ، ويقول بكلمات ، لا تجعل هناك مجالا للشك ، أن هذا هو الهدف . وجاءت الكلمات بتعبير أهل ذلك الزمن ، متماشية مع فصاحتهم ، وجمال تعبيرهم :

قال ابن الأعـرابي : سألت العـرب : أي شيء معنى : «شيطان ليطان ؟» قالوا : «شيء نَتِدُ به كلامنا»[1] .

أي أنه لكلامهم مثل الوَتَد ، يثبتون به أقوالهـم ، ويـرسـون بـه أسسـه ؛ لأن كلامهم سوف يكون عرضـة للاهتـزاز والاضـطراب إذا لم يضعـوا له مثبتات ، تماما مثلما تثبت الخيمة بالطنب والاوتاد .

ولعله لا يبعد كثيراً عن هذا ما رواه ثعلب ، وإن كان الشعـر أجـبر الشـاعـر أن يختـار واحـداً من الاثنين ، فاختار المُثَبِّت ، وترك المُثَبَّت ، أي اختار الوتد وترك الخيمة ! ولعله اعتمد على فهم القارئ

(١) مجالس ثعلب ١/ ٧ .

وذكائه، والبعرة تدل على البعير، والأثر على المسير.

أنشد أبو العباس ثعلب شعراً لأبي ميادة في اللسان:

وما هجر ليلي أن تكون تباعدت
عليك ولا أن أحصرتك شغول
ولا أن تكون النفس عنها نحيحة
بشيء ولا أن ترتضي ببديل

قال: نحيحة وشحيحة واحد، أراد شحيحة ببديل، قال: والاختيار أن يقول: شحيح نحيح، فجاء الإتباع، ولا يكون الإتباع إلا قليلا. ويقول: «لم أتركها إلا لجفائها»[1].

وفي أساس البلاغة للزمخشري، تحت مادة: «صحر»، تأتي جملة: «لقيته صحرة بحرة»، أي بغير سترة. ويحس المرء أن القائل احتاج أن يجد وتداً «لصحرة»، فوجده في «بحرة!».

(١) مجالس ثعلب ١/٢٧.

وكثير من أمثال ذلك يشعر المرء أن الاوتاد فيها مهمـة ، فالتـأكيد المؤكد أكثر من مرة ، في إحدى صوره احتاج أوتاداً ، لا وتداً واحداً : «دخل القوم أجمعـين ، أكتعـين أبصعين» . أليس هذا نوعاً من الاوتاد المثبتة المؤكدة ، والمساند المريحة ؟

تماثل القصص(*)

يقف الإنسان محتاراً أمام تماثل بعض القصص وتشابهها، ويحاول أحيانا عن طريق دراستها، ومقارنة بعضها ببعض، أن يعرف أسباب اختلافها في بعض جوانبها، وما يجعلها تتفق في جانب، وتختلف في جانب آخر، سواء كان ذلك في الأصل والأساس، أو في الزيادة التي زيدت أو في الأجزاء التي نقصت. ويتخذ هذا الاختلاف أحيانا مدخلا للتأكد عن مدى صحة القصة من أساسها، والهدف الذي ترمي إليه، والغرض الذي قصده راويها أو منشِؤها، مما قد يكون مخبأً خلف صريح الجمل والكلمات.

يجد الدارس أحيانا، عند التمعن، أن هناك ما يوحي بأن أساس هذه القصص، مختلفة الصور، قصة واحدة هي الأصل والأساس، والأخريات

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٦٣٣) في ١٨/٦/١٤١٣هـ الموافق ١٢/١٢/١٩٩٢م.

صور منهـا . ويشعـر أن ما جعلهـا تخـرج من صيغتهـا الأصيلة هو أن الـراوي لم يكن متقنـاً للروايـة ، فسرد القصـة جاء مهتـزاً ، ووقـائعهـا مضـطربـة ، فلم تعجب راوٍ تالٍ هو أقـدر على السبك والإيضاح ، فراح يرسي أصولها ، فجاء بها لم يأت به السابق ، ولم يرده . وأوحى ما جاء به هذا إلى ثالث فحـور فيهـا حسب ما عنّ له ، وحسب ما اختـار . فجـاءت ثلاث صور أو أكثـر لقصـة في الأصل واحدة . وقد تكون أساساً فكرة خطرت لا قصة حدثت .

أو لعل ما أوجب الاختلاف هو أن الراوي وَهِم فيـما سمـع من صاحب القصـة فأدخل فيها ما لم يدخله راوٍ آخـر . أو لعله يكـون في القصـة من العناصر ما يلمس الفخر والاعتزاز فينتزعه قاص آخر من بيئته ليضعه في بيئة أخرى ، ويركبه عليها تركيبـاً متقنـا . وتسجـل هذه هنـا وتلك هنـاك ، ويكون هذا سبباً فيما بعد للأختلاف والحيرة .

وأحيانا لا يرضى أحد الرواة عن مجرى القصة الفني ، أو لا يرتضي كلماتها ، فيضفي عليها من فنّه ما يراه أوفى ، وأحياناً يكون متحمسا لأسلوب أدبي يميل إليه ، وتعبير يفضله ، ومخزون فكري يريد أن يخرجه ويعرضه ، فيبقى الهيكل ، ويبدل في التفاصيل ، فيكون ذلك سبباً في الأختلاف .

ونعطي هنا على بعض ذلك مثلا لقصة مما روي :

تتلخص هذه القصة في أن هناك رجلا أعمى سأل ابنته الراعية أن تصف له سحابا نشأ ، يوشك أن يلقح فيمطر ، فتصفه له ، وتستمر تتابع تطوره حتى يباغتها درّه هي ووالدها وأغنامها . ولكن التفاصيل لهذه القصة في رواياتها المتعددة تختلف اختلافا يوجب الالتفات . والمقارنة بين الصيغ المختلفة ، والصور المتعددة ، لا تخلو من متعة . إحدى هذه الصور تجري هكذا :

خرجت إبنة معقر بن حمار البارقي ، وكان أعمى

تقـوده . فراحت عليه رائحة من روائح الصيف . فقـال : «يا بنيّة ، انظري ما ترين ؟» . فقالت : «أرى سحـاء عقّـاقـة ، كأنها حُولاء ناقـة ، ذات هيدبٍ دانٍ ، وسيرٍ وانٍ» .

فقال : «أجلسيني إلى أصل قفلة ، فإنها لا تنبت إلا بمنجاة من السيل» .

(عقاقة : تنشق بالبرق انشقاقاً . الحُولاء : ما يخرج من رحم النـاقة مع الولد ، والهيدب : مثل هدب الثوب ، تراه متعلقا دون السحاب ، وانٍ : فاتر)[1] .

(حولاء لعلها من الحول ، ويقوي هذا ما سيأتي في القصة الثانية في قوله : «عين جمل طريف») .

ويلاحظ في هذه الصيغة الحرص على الكلمات الغـريبـة ، والصفـات غير المتـداولة ، وكأنّ أحد أهـداف القصة عرض المقدرة اللغوية ، والغوص على غريبهـا . وهي ملاحـظة أوَّلية ، لعلها تقوى

(١) مجالس ثعلب ١/٢٨٧ ، ٢/٥٩٧ .

وتتضح ببروز أكثر عند المقارنة مع الصيغة الآتية :

كان أعرابي ضرير تقوده ابنته، وترعى غنيمات لها، فرأت سحابة، فقالت : «جاءت السماء».

قال : «كيف ترينها ؟».

قالت : «كأنها عين جمل طريف».

قال : «إرعي غنيماتك».

فرعت مليّا. ثم قالت : «يا أبه، جاءت السماء».

فقال : «كيف ترينها ؟»

قالت : «سطحت وابيضت».

قال : «إرعي غنيماتك».

فجاءت السماء بشيء شطأ الزرع، وأينع وخَضِر ونضر.

(الطريف : المطروف العين، فهو يحركها وتدمع، وشبهت توالي البرق بتوالي فتح العين وإغلاقها. وسطحت : أي سوِّي سطحها)[1].

(١) مجالس ثعلب ١/٢٨٢، ١/٢٨٩.

ومـا لوحظ من الحـرص على غريب اللغـة في الصيغـة الأولى للقصـة يلاحظ في الثـانيـة ، وهو حرص من القائل يوجب الالتفات ، وليس الملفت للنظر فيهما فقط الكلمات المنتقاة من غريب اللغة ، والمصـطفاة من نافرها ، ولكن الصور البيانية التي رسمت بها المعاني أيضا فيها سمة القول في الصيغتين .

وهناك صيغة ثالثة لهذه القصة يأتي بها ابن سيده في كتـابـه «المخصص» . يتكلم فيهـا عن أمارات الغيث ، وله زيادة من أبيات شعر يضيفها إلى ما سبق :

رُوي أن شيخا من العرب رأى السماء تَرَهْيَأُ ، فقـال لابنتـه : «انـظري ، هل تحسـين من المـطر حسًّا» ، فخرجت ثم نظرت ، فقالت :

أناخ بذي بقرٍ بَرْكَهُ
كأن على عضديه كِتافا

فمكث ساعـة ، ثم قال لأخـرى من بنـاتـه :

«أخرجي فانظري» . فخرجت ، ثم دخلت ، فقالت :

كأن سيوف بني عسقلان
أنافت بضربٍ وطعنٍ ديافا

فقال الشيخ : «كأنك . . (سقط في الكلمات) . . ساعة)» . فقال للثالثة : «أخرجي ، فانظري» . فخرجت ، فنظرت ، ثم دخلت ، فقالت :

حَدَتهُ الصّبا ، ومرته الجنو
ب وانتجفته الشمال انتجافا

(مرته : استدرته . انتجفته : حفرت جوانبه وأخذت منها)[1] .

والاختلاف هنا واضح ، فالرجل لم يكن أعمى ، وكان داخل البيت في البر ، وليس في العراء كسابقه ، ويُخرج بَنَاته تباعاً لاستيضاح الأمر ، وكل ابنة أجابته عما رأت ببيت شعر ، وتتابعهن يُري

(١) المخصص ٩/١٠٣ .

تطور السحـاب، واقترابه من الإمطار. ولا يزال اختيار القاص للكلمات الغريبة مسيطراً على القصة.

وتأتي الصيغة الرابعة بما فيها من اختلاف هنا وهناك.

روي أن شيخـا من العرب كان في غنيمة له، فسمع صوت رعد، فتخوف المطر، وهو ضعيف البصر، فقال لأمة كانت ترعَى معه:

«كيف ترين السماء؟».

فقالت: «كأنها ظعن مقبلة».

فقال: «إرعي».

ثم قال: «كيف ترين السماء؟».

قالت: «كأنها بغال دهم تجر جلالها».

فقال: «إرعي».

ثم قال: «كيف ترينها؟».

قالت: «كأنها ثروب معزى هزلَى».

فقال: «إرعي».

ثم قال : «كيف ترينها ؟» .

قالت : «أراها استوت ، وابيضّت ، ودنت من الأرض ، فكأنها بطون حمير صحُر» (في لونها غبرة في حمرة) .

قال : «إنجي ، ولا نجاء بك» .

فلجأ إلى كهف ، وأدخل غنيمته ، وجاءت السماء بها لا يقام بسبيله ، فقال الشيخ : هذا والله كما قال :

دانٍ مسفّ فويق الأرض هيدبه
يكاد يدفعه من قام بالراح
فمن بنجوته كمن بعقوته
والمستكن كمن يمشي بقرواح[1]

(العقوة : خارج الكهف . قرواح : أرض واسعة) .

هنا اختلف الأمر بعض الشيء ، فالرجل ضعيف البصر ، وليس أعمى ، ولم يكن بداخل البيت . ولم

(١) المخصص ٩/١٠٣ .

تكن التي سألها، وهي ترعى غنيمته الواحدة، ابنته، وإنما هي أمته، وسؤاله لها جاء بعد أن سمع صوت الرعد. وهو الذي تمثل ببيتي الشعر لا هي. وما عدا هذا الاختلاف فاختيار الكلمات، مثل القصص الأولى، جاء من غريب اللغة، والصور البيانية حرص القاص عليها.

وبروز دور الشعر في هذه القصة يأتي أيضا في صيغة خامسة، مختصرة عن الصيغة الثالثة السابقة:

شام أعرابي برقا، فقال لابنته: «انظري أين ترينه؟».

فقالت:

أناخ بذي بقر برقُه
كأن على عضديه كتافا

(الكتاف وثائق في الرحل).

ثم قال لها بعد قليل: «عودي فشيمي».

فقالت:

نحته الصبا ومرته الجنو
ب وانجفته انتجافا[1]

(انتجفته : أخذت من جوانبه ، وافرغته) .

وهـذه الصيغة مختصرة من الصيغة الثالثة ، ولم يكن عند الشيخ إلا ابنة واحدة ، وهو شام البرق - أي رآه - ومع هذا يطلب العون من ابنته . وهذه وردت في «مجالس ثعلب» ، وتلك في «المخصص» لابن سيده .

وآخر صيغة نأتي بها هنا صيغة تتفق مع الصور السابقة في أشياء ، وتختلف في أشياء :

قال رجـل من الأعـراب ضرير النظر لابنته ، وهي تقوده في المراعي : «يا بنية انظري كيف ترين السماء ؟»

قالـت : «كأنها قرون المعزى» .
قال : «إرعي» فرعت ساعة .

---

(١) مجالس ثعلب ١ / ٢٩٠ .

فقال : «انظري ، كيف ترين السماء ؟»

قالت : «كأنها خيل دهم ، تجر جلالها» .

قال : «إرعي» فرعت ساعة .

ثم قال : «انظري كيف ترين السماء ؟»

قالت : «كأن الرباب نعام تعلق بالارجاء من السماء» .

قال : «إرعي» .

ثم قال : «انظري ، كيف ترين السماء ؟»

قالت : «أبيضت ، واسودت ، ودنت ، فكأنها عين تطرف» .

قال : «انجي ، ولا أراك ناجية»[1] .

هذه في منهجها تشابهٌ مع الصيغة الأولى ، وليس فيها ما فيها من كثرة الغريب . ترى هل هذه هي الصيغة الأصل ، بما فيها من بساطة وعدم تكلف !؟ . الله أعلم .

---

(١) بهجة المجالس ١/٤٢٤ .

أهمية اللغة العربية(*)

اللغة عند الأمم جزء مهم من كيانها، ومظهر معبّر عن شخصيتها، تتطور معها، وتتبلور في ضوء تقدمها أو تأخرها، تستمد منها حياتها، وتدل عليها. والعرب ولغتهم امتزاج حضاري حقيقي، لا يفصل بينهما فاصل، ولا يحول دون تفاعلهما حائل، يُثَبّت ذلك مُعتَقَد، ويوطده محيط وتؤكده بيئة.

واللغة العربية فيها صورة العرب كاملة، منها تعرف طباعهم، وبها تميز خلقهم، ومن خلالها تحكم على عاداتهم، وتفهم تقاليدهم، وتقدر اتجاههم. هي ديوان مفصّل واضح لكل ما يخصهم، وعن كل ما يعنيهم. ولأنها كذلك، فقد اهتموا بها، والتفتوا إليها، وغاروا عليها، لأنها تنقل أفكارهم صادقة أمينة بينهم، وبين غيرهم،

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٦٤٠) في ١٤١٣/٦/٢٥هـ الموافق ١٩٩٢/١٢/١٩م.

كما يريدون، وبالصفة التي يختارون، يسيطرون عليها حتى تحافظ على ما كسبته منهم مع الزمن، من دقة في التعبير، وثراء في الألفاظ، وحسن في الأداء، وجمال في الأسلوب، وتنوع في المنهج؛ إن رأوا نبوًّا سارعوا إلى تهذيبه، أو شذوذاً بادروا إلى تشذيبه، أو كدراً تسابقوا إلى تصفيته، أو قصوراً تكالبوا على إكماله، أو ازورارًا تزاحموا إلى تقويمه؛ عينهم على اللغة لا تطرف، وطرفهم لا يغمض.

أنعم الله- سبحانه وتعالى- عليهم بمحور كريم شريف نبيل، يدورون في محيطه، ولا يبتعدون عن مركزه؛ هو لهم قائد، وهو لهم هادٍ، وهو لهم نبراس ساطع، وسراج منير، لا يبتعدون عن فناره، ولا ينأون عن رشد مناره؛ به فخرهم، وفيه اعتزازهم؛ هو رأسمالهم الذي لا تلحقه خسارة، وتجارتهم التي لا تبور، وهو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ميزان عملهم العادل، ومقياس سيرهم المستقيم، فيه صوابهم، ومنه رشدهم، فهم بهذا أصحاب ميزة

عظمى ، ونعمة فضلى ، ولا يماثلهم في ذلك أحد ، ولا يدانيهم مزاحم ، ولا ينافسهم طامح .

عندما يتكلم العرب عن لغتهم يختلط الفخر بالاشادة ، والاعتزاز بالمباهاة ، وتأخذهم عليها الغيرة والحذر والحماية . وفيما يقولون عنها حكمة وحق وعدل ، وصفهم لما هي عليه من جودة ، أو ما يجب أن تكون عليه من ذلك ، يؤكد عمقا في دراستها ، وإدراكا لميزتها ، وبعداً في معرفة كنهها :

«قيل لأبي عمرو بن العلاء : لِمَ كانت العرب تطيل؟ قال : ليسمع منها ، قيل : فلم توجز؟ قال : ليحفظ عنها» .

وقال جعفر بن يحيى : «إذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار هذراً ، وإذا كان التطويل واجبا كان التقصير عجزا»[1] .

فأبو عمرو وجعفر في النصين لم يتكلما عن وصف ميزة من ميزات اللغة فقط ، ولا عن شرط

(١) محاضرات الأدباء ٢٦ .

من شروط ارتقائها فحسب، ولكنهما دلّلا باتقانهما لنقل الفكرة إلى السامع بأنهما يتكلمان بالطريقة التي مدحا بها من راعى الأصول، ومشى على الأمثل؛ ففي كلامهما ايجاز مع كامل الافادة كما يقتضيه المقام، ويستوجبه الظرف.

ويسأل الحسن بن سهل عن البلاغة، فيقول: قال لي المأمون: «ما البلاغة؟» فجعلت أفكر، فقال: «دعني أقول لك، هو ما فهمته العامة، ورضيته الخاصة»[1].

تأخذ العرب البلاغة، وتشدهم وتعجبهم وتبهرهم، لأنها منتهى الايضاح عما يدور في الذهن، ووسيلة لوصول الأمر المقصود إلى ذهن السامع بالصورة التي هي عليه في ذهن القائل، لا زيادة تمل، ولا نقصان يخل؛ فالايجاز مع كامل الابانة هو الهدف، وهذا ما يجب أن تتصف به أمة يهمها توفير الوقت للتفكير والأعمال، دون اهداره

---

(١) المصون ١٢٩.

في الأقوال. هم يسألون عن البلاغة حتى يعمدوا إليها، وهم بهذا يعمدون إلى المحامد، وهذا هو ما يغليه مجتمع شعاره الإسلام، وديدنه العمل في إطاره، وتحت ضوء مشعله ومناره.

والايجاز الذي أشير إليه تجده فيها لا يحصى من التعبيرات: تجده في بيت مثل بيت امرئ القيس، كلمات قليلة، لمعان كثيرة، معان تحتاج عند غير ناطقي اللغة العربية إلى مجلد يشرح مراميها.

«أفاد وجاد وساد وقاد
وذاد وعاد وزاد وأفضل»[1]

وما دمنا قد استشهدنا على الايجاز بشعر، فالشعر له منزلته في اللغة العربية، وله شرفه لما فيه من مزايا التأثير والبقاء، والشاعر له منزلة مميزة، ويقبل منه ما لا يقبل من غيره لهذا السبب، والاحتفال بمولد شاعر في القبيلة في الجاهلية أمر معروف، والحديث عنه متواتر. وإذا كانت هذه

(١) محاضرات الأدباء ١٣٤.

النظرة للشاعر في الجاهلية، فهي لم تزل كذلك في الإسلام. يقول الخليل: «الشعراء أمراء الكلام، يتصرفون فيه أنّى شاؤا، جائز لهم ما لا يجوز لغيرهم من اطلاق المعنى وتقييده، وتسهيل اللفظ وتعقيده»[1].

وقال الخليل بن أحمد: «الشعراء أمراء الكلام يجوز لهم شق المنطق، واطلاق المعنى، ومدّ المقصور، وقصر الممدود»[2].

وإذا كان حديثنا في أول قولنا هو عن الايجاز والاطناب، فالخليل أخذ جانبا آخر من فنون القول، وهو اطلاق المعنى، وتقييده، وتسهيله وتعقيده، وأوحى بأن الاطلاق له مقامه، والتقييد له مكانه، والتسهيل مطلوب، والتعقيد ليس كذلك، إلا أن الشاعر سمح له في هذا بما لم يسمح به لغيره، هذا ما يؤكد أن اللغة العربية في مرحلة

---

(١) الكشكول ١/٣٦٨.

(٢) المحاسن والمساوىء ٤٢٧.

نضج ، لها من القواعد المفصلة والدقيقة ما يتناسب مع كونها وعاء القرآن الكريم ، ونعم الوعاء الشريف .

قال للمخفق: أحسنت(*)

كنا مجموعة من الطلاب في مصر نكوّن الدفعات الأولى من البعثات التي ذهبت بعد الحرب العالمية الثانية لتدرس في الجامعات هناك في المجالات المختلفة. ومع تجمّع الاعداد في مبنى واحد، وتتالي الدفعات أصبح لهذا المجتمع شخصية متميزة، بما اتسم به أفرادها من جد واجتهاد، أو لعب وغفلة، أو مقالب ونكت وفكاهات وطرائف. يفترق الطلاب في النهار، ويجتمعون في الليالي، وأوقات الطعام. نشاط النهار متبعثر في كلية هنا وكلية هناك، ونشاط الليل متجمع، ثلة في هذه الغرفة، وأخرى في غرفة ثانية، وثالثة في النادي في أسفل المبنى، أو في الردهات بعد الصلوات. هنا يكثر الجدل والنقاش، وطبخ المقالب، وصنع المداعبات.

وفي العطل الرسمية، أو الأجازات في نهاية

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٦٤٧) في ١٤١٣/٧/٢هـ الموافق ١٩٩٢/١٢/٢٦م.

الأسبوع تنظم رحلات، يرفه الطلبة فيها عن أنفسهم، خاصة إذا كانت الرحلة إلى القناطر الخيرية، وعن طريق النيل، هنا يتخلص الطلاب من الرسميات مع المسؤولين والإدارة، وتعم روح أخوية بينهم.

في رحلة من هذه الرحلات إلى القناطر الخيرية، انتشر الطلاب بعد أن وصلوا إلى هناك، وتفرقوا، أناس استأجروا دراجات وراحوا يتسابقون آمنين من ازدحام السيارات في شوارع القاهرة، وآخرون أخذوا جانب الشاطئ يتفسحون، وهذا فريق نصب له ما يقدره على لعب الكرة الطائرة على بساط من الحَشيش أخضر، وفريق يلعب الورق، ومجموعة وقعت فريسة حاوٍ ماهر يقلب ورق اللعب بيديه بطريقة توهم أن هناك سحراً، فإذا ما دفع له مبلغ مجز كشف السر، وأوضح أن وراء اللعبة عقلا مفكراً، أو يدا سريعة بارعة.

والفريق الذي يهمنا في حديثنا هو المجموعة التي

افترشت سجادة، وتقابلت فوقها على لوح «كيرم» يلعَب من يلعب، ويرقب من يرقب، هذا مشجع وهذا مثبط، وهذا هادئ، وهذا صاخب. ولكل من الحاضرين دوره في اللعب الماهر والذي لم يلعبها قط. وبدأ اللعبة إثنان، وجلس زميل لهما - رحمه الله - يرقب ويشجع، يتابع اللعب، مرة يجلس ومرة يضطجع، ولسانه على حالة واحدة لا يكف عن القول، ورأسه مثل رأس الحكم بين المتصارعين، يتبع الأصبع الضارب، والمضرب المنطلق، ويكاد يدخل مع الحبة في مستقرها، سواء داخل مخفقها أو على بعد ميل من يد الضارب.

كان هذا الزميل يحب تشجيع المبتدئ، وإدخال السرور على من يكون الحظ مجانبه، ليأخذ بيد هذا، ويخفف ألم الخيبة على ذاك، ويقلل من غلواء المنتصر، الذي قد يأخذه الحماس، فيدخله الغرور، فيقول ما يسخط، ويبعد عما يرضى ويحب، فتتأزم الأمور، وما أكثر ما تتأزم في مثل هذا اللعب، خاصة إذا صادف أن ذلك جاء عند نهاية

الشهر ، والجيوب خالية ، والنفوسس متعطشة إلى فسحة آخر الأسبوع ، وأهم ما فيها عشاء يوم الخميس ، ودخول السينما ؛ لأن مطعم البعثة في ذلك المساء مقفل ، وحسب للطالب مبلغ عن هذه الوجبة مع مكافأته التي تغطي مصروف الجيب والمواصلات وكيّ الطربوش ، وتلميع الحذاء ، وغسيل الهدوم .

أما الملابس ومبلغها السنوي والكتب ولها مبلغ مثله يصل في تلك الأيام إلى خمسة عشر جنيها لكل واحد منهما ، ولا تأتي في وقت واحد ، لأن من قررها لا بد أنه عرف أنها لو جاءت معاً ، لطارت أسرع مما لو فرقت . «وتؤخذ باسم الملابس والكتب المبالغ وما من ذاك شيء في يديها» لأنها يرفد بها الخلل الذي يحدثه الطالب لجيبه فيما لم يخصص له فيه شيء ، مما يعتبر من الكماليات ، فمنها مثلا «البسكليت» ومنها «الكميرا» وغيرها مما لم يخطر على بال منظم المكافأة ومقررها .

وتشتد أعصاب الطلاب أكثر عندما تقترب الامتحانات . ويصبح التطلع ترقبا مضنيا ، هذا يكتفي بالنجاح ، وهو مبلغ طموحه ، وذاك لا يكفيه إلا الدرجات العليا ، ولا يرضى بدونها مكانا . وهذا عليه دور ثان في مادة ، وهذا عليه دور ثان في خمس ، وهذا معيد سنته ، وهو يرتجف خوفا من أن تكون السنتان ثلاثاً . وهذا مجد مجتهد ، ولكنه يخشى المفاجآت ، يخشى أن تفاجئه الزائدة الدودية ، أو اللوز ، فيضيع جهده ، ويصبح من أصحاب الدور الثاني ، وهو لم يتعود على هذا ، ولم يعرف التأخر والتقصير ، والدور الثاني عنده وفي نظره عار وشنار . وهذا مهمل قضى وقته في اللعب والمرح ، ولما آن أوان الحصاد وجد أنه ما زرع ولا حرث ولا سقى ، واللعب لا حصاد له إلا الندامة . وما أكبر الندامة في مجتمع مثل هذا . والندامة لها ذيول هنا وتبعات ، تشيب الرأس ، لها دور ثانٍ ، ولها حرمان من السفر إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة أو الاحساء ، وهي المدن التي منها طلبة البعثة

حينئذ قبل أن ينتشر التعليم الثانوي، ومعنى هذا عدم رؤية الأهل في الصيف، فتكون مدة الغياب عنهم سنتين بدلا من سنة واحدة، ومع الحرمان منهم الحرمان مما يجلبه الطالب معه من أهله من نقود أو ساعات أو قماش «شارك سكن» يحجل به بين زملائه عندما يفصله في مصر عند عودته. وأنواع الشاهي الفاخر الذي يجلبه، والسكر الذي كان شحيحا في مصر، ولايزال يقسط بالتموين بعد الحرب العالمية الثانية. حتى شبشب «زنوبه» على تدني قيمته ومكانه كان له فرحة لأن لا بديل له على رمال الشواطئ، وعلى حدود المياه. والندامة هنا لها أيضا خوف من عدم النجاح في الدور الثاني، وهذا يعني سنة أخرى في الفصل نفسه، ومن يقول أن الاخفاق قد لا يلازمه، ولها ما قد يحتاج إليه من مال يصرفه لدروس خصوصية بدلا من صرفه على ما فيه راحة لجسمه وفكره.

لهذا لم يكن لفرحة النجاح حدود، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، هذه ضاحكة مستبشرة، وهذه

عابسة مكشرة، هذه تضحك من أعماق قلوبها، وهذه ضحكتها مصطنعة، والألم يعصر داخلها، ويعيث في مهجتها وأحشائها. شباب في مبنى واحد، لا يرحم بعضهم بعضا عندما تصطلى نار «النقرزة» والغمز واللمز أحيانا عندما يصفو المزاج لذلك، وتحكم اللحظة، فهذه فرصة للتشفي المرح، والاثارة ورمي الكلام من فوق الاكتاف، وعبر طاولات الأكل، أو من شرفة إلى شرفة، ويبقى الأمر كذلك في شبه صبيانية حتى يتقدموا في سني الدراسة، وينضجوا، ويبتعدوا عن روح المرحلة الثانوية، ويقتربوا من الصفوف العليا في الجامعة، ويبدؤا في إدراك ألم الاخفاق، ومدى جرح «المعايبة»، والشعور بخسارة الوطن لمجهود أهدر، يحتاجون معه إلى العزاء، ومد اليد للعون.

والإدارة، وهي تنصح، وتتابع وتراقب وتحث، تقف في عين الطالب موقف العدو، لأنه يرى نفسه كبر، ووصل إلى الجامعة، ولا يحتاج إلى من يحثه ويرشده ويتابعه، وما يدري أنه وصلها بجسمه،

أما عقله فلا يزال يحتاج إلى نضج ، ونفسه وهواها يحتاجان إلى كبح ورسن ، وإن إدرك أنه في سن المراهقة الخطر ، إلا أنه يتعامى ويتجاهل . هو كبير في نفسه صغير في عمله وحكمه على الأمور ، كبير في شعوره ، وثقته بنفسه ، صغير في تصرفه ومعرفته بالحدود الفاصلة بين الخطر والأمان .

لقد أبعدنا الاستطراد عن فريق «الكيرم» ولاعبيه ، فلنعد لنرى ما كان سبب حديثنا هذا . واللاعبون في تتابع التناوب على اللعب يضرب أحدهم المضرب ضربة غشيم ، فيدخل بهذه الضربة «حبتين» من حبوب ملاعبه ويدخل معها ، ومن أول ضربة من بدء اللعب ، الحمراء ، ومعها المضرب ، وفي هذا ، لمن يعرف أصول هذه اللعبة ، إخفاق ذريع ، يكاد الناظر يظن أنه ضرب المضرب برجله مغمضا عينيه . إلا أن صاحبنا المواسي المشجع يصفق بيديه ، ويصيح بأعلى صوته : «حلو حلو» ، موهما أن ما تم هو منتهى المهارة والحذق ، وأن اللاعب فاز بنصر مبين . فيلتفت كل الجالسين

المراقبين إلى هذا الهاتف بدهشة وانبهار، متعجبين ومستفهمين بعيون زائغة: من أين جاءت الحلاوة، فالذي رأوه منتهى الجهل بأصول اللعبة، من يد تنقصها أبسط درجات المهارة، فإن كان الحنظل يعصر منه عسلا، فما رأوه يمكن أن يكون حلاوة. إنه منتهى المرارة. ولكن صاحبنا لا يزال يوالي تصفيق الاعجاب، يتفنن فيه، ويؤكد أن ما تم منتهى البراعة. وعلق من حوله لحظات قبل أن يقول لهم: «أقول لكم، حلاوة كيف؟ لكن بحق». وهم يعرفون أنه ليس هناك أمر صحيح، ولكنهم يجارونه على طريقة: «وصّل الكذاب لباب بيته». ولأنهم يتوقعون شيئاً مسليا منه كما عودهم:

قال لهم بعد تعليق وتشويق وطول انتظار: أليس هذا أفضل مما لو أدخل خمس الحبات المضرب والحمراء في عيونكم. وكانت ضحكة مجلجلة من كل الحاضرين متفرجين ولاعبين، غالبين ومغلوبين، لا لأن الكلمات مضحِكة، ولا لأن النكتة حاذقة، ولكن لأن التعابير على وجه

القائل كانت من النوع الذي يغتصب الضحك بمجرد أن يفتح فمه، وقبل أن يقول شيئاً، وهو شيء وضعه الله في بعض الناس.

ذكرني هذا كله نص قرأته في كتاب أخبار الظراف، يسير على هذا النسق، وينحو هذا المنحى، والذكريات الحلوة، مهما كانت بسيطة فهي غالية، ولتذكرها نشوة، ولاجترارها لذة، يخرجها من مكمنها البعيد أدق خيط، ويستدعيها من مكنسها أقل إشارة:

رمى رجل عصفوراً فأخطاه، فقال له رجل: «أحسنت!» فغضب، وقال «تهزأ بي؟. قال: «لا، ولكن أحسنت إلى العصفور»[1].

---

(١) أخبار الظراف ١٥٨.

الأطفال والجيل(*)

الأطفال في كل زمان ومكان لهم عالمهم الذي يحكمهم ويحكمونه . وهو عالم متحد منفرد ، يختلف عن عالم الكبار بقواعده واعتباراته ، فيه عندهم ما يقام له وزن ، وما نصيبه منهم الاهمال ، وكل ما يأتي منهم في عالمهم هذا يعتبر مهيئاً لعالم الرجولة عندما يكبرون وينضجون ، ويدخلون معترك الحياة ، يصارعون مرها ، ويجنون حلوها . وما يأتي منهم فيما بعد في حياة النضج والرجولة الطويلة ، قد يكون أكثر ما فيه من ظلال هذه الطفولة وفترتها ، ومن تأثيرها وحكمها . ولهذا حرص المربون أن يستفيدوا من هذه الفترة لزرع النبت الصالح في نفوس هؤلاء الصغار .

والناس أحيانا يقتربون في نظرتهم إلى احتقار الأطفال ، وتقليل ما قد يتوقع أن يأتي منهم ؛ لأنهم

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٦٥٤) في ١٤١٣/٧/٩هـ الموافق ١٩٩٣/١/٢م .

لا يظنون بهم النضج والذكاء الذي هم في الحقيقة عليه، ولهذا يفاجأ الكبار عندما تبزغ شمس الذكاء عند أحد الأطفال، ويبدو منه ما يدهش الكبار قولا أو فعلا. وهذه المفاجأة والدهشة ما هي إلا نتيجة خطأ الكبار في النظرة والتقدير. وهذا التقدير الخاطئ قد يؤدي إلى تربية خاطئة، والتربية للصغير مثل التغذية للناقهِ من مرض، إن زدت عمّا يستطيعه جنيت عليه، وأضررت به، وقد تقضي عليه، وإن أنقصت غذاءه، أطلت مدة نقاهته، وعرضته لانتكاسة، وفتحت أبواب حصون المناعة عنده لأعداء جدد من البكتريا الضّارة، والميكروبات المهلكة. ولهذا فالتربية مثل التغذية تحتاج إلى دقة، واستقراء متأن، وملاحظة مستمرة، فقد يظهر نمو في عقل الطفل اليوم لم يتبين أمس، وقد لا يتواكب نمو الجسم مع العقل، فيسبق أحدهما الآخر. هنا يجب ألّا يكسل المربّي، خاصة الوالد والوالدة، فيأخذان العقل مقياساً للجسم أو الجسم مقياساً للعقل، يحكمان بأحدهما على الآخر.

إن لكل واحد مقياساً، للجسم مقياس، وللعقل مقياس، ومقياس ثالث لوزنهما معا. ولو زدنا المقاييس لما أبعدنا عن الصواب، فالنفس لها مقياس، وتأثير المحيط والظروف لها مقياس، وهكذا.

والحقيقة التي كثيراً ما يغفل عنها الناس هي أن الطفل عمل متكامل لوالديه، والناس اليوم يستأثر بوقتهم كسب المعيشة، يوقفون عليه جهدهم وعنايتهم، هذا إذا كانوا طبيعيين، وإلا فهناك الذين يصرفون وقتهم في الراحة والتسلية والألعاب، مهملين أولادهم وبيوتهم، وهؤلاء مرضى، وكلامنا عن الأصحاء؛ فتربية طفل، إذا أريد لها أن تكون حقة، ووافية بالغرض، يجب أن تعطى من العناية والرعاية والحرص والمتابعة مثل العمل الذي يأتي بالمال، ويضمن المعيشة الهنيئة. وتربية طفل واحد عبء كبير، فما بالك باثنين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر! وتربية الابن غير تربية الابنة، فالأمر إذاً ليس بالسهولة والبساطة التي قد

ينظر إليها بعض الناس في كثير من الأحيان .

وعالم الأطفال مليء بالمظاهر الملفتة للنظر ، فهم في تصرفاتهم يشبهون الكبار ، ولكن بطريقة تتفق مع سنهم ، وقدرة مداركهم ، فمثلا لهم حيل في كسب المواقف ، يتصرفون بطريقة قد تبدو لنا طريفة ، ولكنها ناجحة ، وتأتي بالثمرة المرجوة ؛ لأنها مبنية على تفكير وتخطيط . وخير دراسة لعمل هؤلاء الصغار تأتي عندما نراقبهم ، ونتدبر أفعالهم . وقد يغيب عنا الدافع أو الهدف في أول الأمر ، ولكننا كنا أطفالا مثلهم في يوم من الأيام ، ومن قاموس الطفولة ، وما فيه من ذكريات محفوظة نستطيع أن نلج إلى كنه عالمهم .

أذكر بعض ما كان يحدث بيننا ونحن صغار : كان لي قريب يكبرني بسنة ونصف أو سنتين ، وسِنُّه هذه تسمح له بأن يختلط بأنداده في السن ، وبمن هم أكبر منه سنة أو سنتين . وهو يفضل هؤلاء الكبار ، كما هي عادة الصغار . ولعله يجد في هذا ما

يرفع قدره ، ويعطيه ثقة أكثر بنفسه . وهذا بلا شك يمنحه فرصة أن يأخذ عنهم ما لا تصل إليه عقلية من هم أقـل منـه سنا ، وكان يستفيد من هذا في السيطرة علينا نحن الصغار ، إن كان الاقناع كافيا ، وإلا فالقوة رافدٌ جاهز .

وكنت أزور أخوالي في إحدى ضواحي عنيزه ، يوم الجمعـة من كل أسبـوع ؛ ولفرحتهم بي أجد أنهم ، بعد عيد الأضحى ، قد جمعوا لي من الكعابة «الكبوش» عدداً كبيراً ، آتى به معي في اليوم التالي إلى أهـلي في وسط عنيـزة ؛ فيـزورنا قريبي هذا ، ويرى هذا العدد الكثير ، فينبهر ، وتبدأ «تروس» ذهنه تدور ، وتعمل الحيل في الطريقة التي يستولي بها على هذه الخمسين أو المئة ، دون كبير خسارة ، وبـطريقـة سلميـة ومـرضيـة إن أمكن . وكـانت الـواحـدة من هذه الكعـابـة أو الكبـوش إذا كان حجمهـا كبـيراً ، ووزنها ثقيـلا سميت «صولاً» ، ولكل عدد من «الطزق» عند اللعب «صول» هو بمثابة الديك للدجاج ، ويحفر في وسط الصول ، في

بطنه حفرة صغيرة تملأ بالرصاص، حتى يضمن أن يكـون مع حجمـه الكبير ثقيلا إذا أرسل، وقت اللعب، على الـطزق المـرصـوصـة المتراكبة فرقها وبـددها، وشتت شملها، وأخرجها عن الدائرة المـرسومة لها. وهذا هو المطلوب في هذه اللعبة، وإذا أرسـل إليهـا، فيـما بعد، وهي أفراد مبعثرة طيرها واحدة واحدة بعيداً، بما له من حجم وثقل، ولما ليد راميه من قوة في إلقائه، بغية النصر، وأملاً في الفوز والكسب.

أنا صغير لا أجيد «الترصيص»، وهو يجيده، تعلمه ممن هم أكبر منه سنًّا، وأتقنه لفائدته له، ولو عرفت، «الترصيص» لما وجدت الرصاص، وهو يجده، ويـأخـذه من الآخرين مقابل شيء يصلح ثمنا، وقد يكون عدداً محدوداً من الكعاب. ويبدأ الاحتيال عندما يأتيني «بصول» «مرصص»، كبير ثقيـل، ويأخذ في مدحه وإطرائه، وقيمته عنده، وحرصه على الاحتفاظ به، وعدم التفريط فيه، ولو وضعت الشمس في يمينه والقمر في شماله، وكيف

أن فلانـا ، وهـو عندنا في الحي الذي نسكنه ، أو الحي المجاور ، يعتبر «عنترة» في اللعب ، كسب به كذا جولة مع فلان المشهور أيضا باتقان اللعب ، وكيف أنـه حصل عليه منه بمئتي «طزقا» ، ولكن لأني قريبه سوف يضحي ، و «يهادنني» و «يراعيني» و «يجاملني» ويعطيني إياه بمئة «طزقا» (وهو ما رأى أنـه كل ما أملك) وأن هذا الصول سوف يكون سبباً - بإذن الله - في أن أكسب مئات «الطزق» ، وهو يتعهد أن يريني كيف أتقن العمل به ، ونسي الشمس التي كادت أن تستكن في يمينـه والقمـر الذي كان سيحل في شماله لولا إباؤه وشممه ، وظنه بهذه التحفة الطريفة .

وينتابني حينئذ عدد من عوامل إقناع نفسي بما قال ، وما لم يقل ، أحدها الطمع في المكسب الذي ذكـره ، رغـم علمي بمن ألعب معهم ، وقلة ما يملكون ، ومع علمي بأنهم قد يغلبونني ، والحرب بيني وبينهم عادة سجال ، ولكني لا أعطي هذا الأمر كثيراً من التفكير . والثاني من هذه العوامل المفاخرة

بأن عنـدي «صول» فلان ، تمامـا كما يفعـل محب الـريـاضـة عندما يوقع له رياضي كبير في «ألبوم» تواقـيعــه ، أو على كرة ، والثـالث : كثـــرة عدد «الصـولـة» عنـدي ثروة أصبـح بها مثـل التاجر صاحب الملايين . والرابع وهو الأهم : أن الأفضل لي والأسلم أن أوافق بالحسنى والرضى ، وإلا بدأ الـتـــأنيب ، ودخلنـــا مرحلة التحـــطيم النفسي ، والعبارات القاسية التي تأتي متوالية مثل الرصاص : بأني لا أزال «عيلا» ، ولن أكون رجلا ، والأفضل لي أن أذهـب وأجـلس في حضـن أمي ، ومـــا لي وللسوق ، واللعب فيه ، وما لي وما للكعابه وأنا لا أفهم فيهــا ، ووجهي ليس بوجـه واحـد من هذا النمط . وإذا صمـدت أمـام هذا السيـل المنـدفع المتكـرر من هذه الكلماته والجمل ، جاءت الكف على حين غفلة مدوية تتبعها أخرى وثالثة ، «حتى تقول الهامة اسقوني» . وإن بكيت وذهبت شاكيا فسوف يحلف أيمانا مغلظة أني أنا البادي ، بذاءة في اللسان ، وعملا باليد والبنان ، وأنه المسكين الذي

لا يؤذي أحداً، ورغم أنه البازي المسكين، والصقر المظلوم، وأنّ العصفور الضعيف هو المنقض المتوحش، مصاص الدماء، مقطع اللحم إلى أشلاء، ورغم أنه الذئب الضعيف، وأن الحمل المتوحش هو الذي أراد أن يبقر بطنه، إلا أن أحداً لا يصدقه، ويأتيه التأنيب، ولكن ماذا أستفيد أنا. ولهذا خير لي أن أسلّم، (والذلة تطيل العمر) كما يقول المثل، ونبقى كما كنا أحبابا. ولا أفتأ أعذّر لنفسي، وأخفف عنها عبء التسليم، بأنه قريبي، وأن ما صار في جيبه فهو في الحقيقة في جيبي.

على أن أسباب اقتناعي لا تكمل صورتها بهذا، وتحتاج إلى ذكر سبب آخر، وهو أن هناك أمراً مهماً جداً أضعه دائماً في بالي، وهو أن قريبي هذا ظل وارف استظل به إذا ما جار علي أحد ممن لا أستطيع ردّ غائلته ممن هو أكبر مني، حتى لو كان أكبر منا الاثنين، فله هو أيضا ظل نستظل في حماه نحن الاثنين. وهذا سبب مقنع جداً إذا ما تردد في ذهني شبح مقاومة لطلبه.

عجلة الـزمن ردتني إلى الوراء، وأنا أقرأ قصة وردت في كتـاب «مجالس ثعلب»، وهي قصـة طريفـة، تُري كيف يستفيـد الصغـير من ذكـائـه الفـطري في أن يبعـد عن نفسـه الخسارة بطريقة حضارية، وبحديث مقنع مقبول. والذكاء يأتي في مقابلة موقفين متضادين، يخرج منهما الصغير دون أن يعلق به ما يوجب الانتقاد:

عن أبي رافع، قال:

كنـت ألاعـب الحسن أو الحسـين - عليهـما السـلام- بالمـداحي (أحجار مثل القرصة، كانوا يحفرون حفرة، ويدحون فيها تلك الاحجار، فإن وقع الحجر فيها غلب صاحبها، وإن لم يقع غلب. اللسان). فإذا أصابت مدحاتى، قال: «أترضى أن تركب بضعـة من رسول الله- ﷺ -» فأدعه، فإذا أصـابت مدحـاتـه، قلت: «لا أحملك كما لم تحملني»، فيقول: «أما ترضى أن تحمل بضعة من

رسول الله» ، فأحمله[1] .

اللهم صل وسلم على محمد وآله وصحبه أجمعين .

(١) مجالس ثعلب ١ / ٢٤ .

قذائف بين اثنين(*)

تنطلق كلمة من فم متكلم أحيانا مثل السهم، فينبهر لها السامع لما فيها من قوة منطق، وسلامة حجة، ولكنها أحيانا تجد ترسًا يبرز أمامها فجأة فيصدّ الحجة بحجة، والمنطق بمنطق، وتتكسر سهام الهجوم دون الهدف، وتنطلق نبال مغايرة تقلب الكفة، فينتصر المهاجم انتصاراً ساحقاً، رغم أنه فوجئ دون أن يستعد.

وليس هذا الرد القوي مقصوراً على طبقة من الناس دون طبقة، أو فئة دون فئة، ولكنه يأتي من فئات مختلفة من الناس، ومن طبقات غير متماثلة، ومن أناس متباينين في صفاتهم وأخلاقهم ومهنهم وأسنانهم، ذكوراً وإناثا، فهي تأتي من معلم أو تلميذ، ومن بدوي أو حضري، ومن زوج أو زوجة، وأب أو ابنة، وأم أو ولدها، وأخ أو أخيه،

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٦٦١) في ١٦/٧/١٤١٣هـ الموافق ٩/١/١٩٩٣م.

ورب عمل أو عامل ، وهكذا دون تحديد أو رابط .

قال أحمد بن عبيد بن ناصح يحدث :

قال لي المعتـز يومـا : «يا مؤدبي تصلي جالساً ، وتضربـني قائـماً ؟» . فقلت له : «وضربـك من الفروض ، ولا أؤدي فرضي إلا قائماً»[1] .

جاء هذا الاعـتراض النابه الذي فاجأ المعتز به معلمـه في الغـالب نتيجـة استقراء دقيق ، اختلط بحـرقـة . لقـد بدا للمعتز تناقض فرح أن يتخذه سلاحا ضد معلمه ، ليشفي غليله ، إذ ليس لديه ما يشفيه منه إلا هذا أو مثله . ولكن المعلم أحمد بن عبيد نفعه علمه وتجربته ، إذ صارا ترسًا أقامه بينه وبين سهم التساؤل الذي أرسله المعتز كالسهم جاء منـطلقا مدمّراً ، فطاش السهم فسلم منه المعلم . ولكنى لا أظن أنـه سوف يؤدب المعتـز بعـد هذا واقفا ، أو لعله لا يصلّي السنة بعد ذلك جالساً ، فإن فعل فسيبقى في حلقهِ غصة من ذلك ، وإن تظاهر

---

(١) معجم الأدباء ٣/ ٢٣١ .

بأنه لم يأبه بالملاحظة التي أبديت .

ولقد عرف ما للأعراب من صفاء ذهن ، وثقة بالنفس ، واعتزاز بحقهم وحمايته ، فكان يأتي منهم ردود مدهشة ، وقد يهيء لهم حضري مصيدة يظن أنهم سيكونون صيداً سهلا لها ، فيخيب أمله ، فلا يفرح بصيد ، ويفاجأ بأن مصيدته قد أطبقت عليه ، وأن الصائد أصبح مصيداً :

قال نصر بن سيّار بخراسان لأعرابي : «هل أتخمت قط ؟» قال : «أما من طعامك وطعام أبيك فلا» . فيقال إن نصراً حُمَّ من هذا الجواب أيّامًا . وقال : «ليتني خرست ، ولم أفه بسؤال هذا الشيطان»[1] .

إذا عرفنا أن نصر بن سيار هو أمير مقاطعة خراسان ، وهو من هو بين حكام المقاطعات للخلافة ، علمنا مدى أثر هذا الرد الصاعق عليه ، وعذرناه في أن يُحمّ ، فصاحب البريد لا بد أنه سينقل الخبر إلى

---

(١) الامتاع والمؤانسة ٣/١٠١ .

الخليفة، والشعراء سيُضَمِّنُونه شعرهم، والناس سيتناقلونه في مجالسهم. كانت نية نصر أن يُحْرج هذا المسكين، فعادت إليه سهام نيته، إذ لم يحسن الاجهاز على ضحيته: «كم من كلمة قالت لصاحبها دعني». ولكن بريق الطرافة، وجَاذبية الانتصار تجعل الإنسان يغفل عن مراعاة الحذر وعثرات اللسان.

وقد يعثر الجواد فيعاب عليه هذا، فينبري يلتَمس لنفسه عذراً يخفف به الوطأة، فيضيع على العائب لذة اصطياد الهفوة، وتسقط الزّلة أو العثرة. وإتقان إبداء العذر قدرة وضعها الله فيمن يتقدمون في مجتمعهم نتيجة تبريزهم في صفة من صفات الرجال، وتلك الصفات التي تجلب عادة العزّ والسؤدد لصاحبها:

تكلم صعصعة عند معاوية فعرق، فقال: «وبهرك القول يا صعصعة؟»، فقال: «إن الجياد نضاحة بالماء»[1].

(١) الامتاع والمؤانسة ٣/١٧٨.

وإذا كان الجواد ينجد صاحبه في ميدان القتال فقد جاءت جياد صعصعة لنجدته في مجلس معاوية !

ويلين الترس في يد أم الخندف ، ويخترقه سهم الطلاق الذي أرسله إليها أبو الخندف :

يروى أن أبا الخندف طلق امرأته أم الخندف ، فقالت له : «يا أبا الخندف طلقتني بعد خمسين سنة» ، فقال : «ما لك عندي ذنب غيره»[1] .

والجاحظ صاحب طرائف ، عنده مادة ثرة من الفكاهة ، ولكنه في هذا المجال قد يكون هو ضحية لبعض العابثين ، وهو نفسه كذلك لا يوفر نفسه ، ويبحث أحيانا عن حتفه بظلفه ، ويوتر قوسه ليسدده إلى نفسه طائعاً مختاراً ، قال :

كنت مجتازاً في بعض الطرق فإذا أنا برجل قصير بطين ، كبير الهامة ، مؤتزر بمئزر ، وبيده مشط يسقي (يصبغ) به شقه ويمشطها به ، فاستزريته ،

---

(١) الامتاع والمؤانسة ٣/١٨٣ .

فقلت له : «أيها الشيخ قد قلت فيك شعراً» ، فترك المشط من يده وقال : هات ، فقلت :

كأنك صعوة في أصل حشٍّ
أصاب الحشّ طش بعد رش

فقال لي : اسمع الجواب ، قلت : هات ، قال :

كـأنـك كـودن في ذنب كبـش
يُدَ لْدِلُ هكذا والكبش يمشي[1]

وإن الغضب ينسى صاحبه الاحتراز ، ويعميه عن اتقاء الضرر الذي يأتي نتيجة التحرش بالناس ، ولا يأتي في ذهن المرء في تلك الساعة إلا الجمر الذي تجمع في فم صاحبه ليقذف به غريمه ، وينسى أن منطلق غريمه هو منطلقُ كثيرٍ من سامعيه ، مما يجعل حزب خصمه أكبر من حزبه ، بل إنه يفقد حزبه بعمله هذا إن كان له حزب . والقذيفة كبيرة عندما تأتي من كبير إلى صغير ، فإن تمكن الصغير من ردها بقوة لم يتوقعها الكبير فإنها تصيبه بالذهول ، وتفقده

(١) أخبار الظراف ١١٦ .

توازنه أو مقامه :

منـع عمـرو بن العاص أصحابه ما كان يصل إليهم ، فقـام إليه رجل فقال له : «اتخذ جنداً من حجار لا تأكل ولا تشرب» ، فقال عمرو : «إخسأ ياكلب» ، فقال له الرجل : «أنا من جندك ، فإن كنت كلبا فأنت أمير الكلاب وقائدها»[١] .

لقد عثر عمرو عثرة غير متوقعة ، هذا إذا صح الخبر ، فقد لا يصح ويكون من نوع تلك الأخبار التي يقصد بها التقليل من شأن عمرو مقابل التكثير والتعظيم اللذان يحظى بهما عادة من محبيه .

ويروى أن غلاما قال لسيده مثل ما قال الرجل لعمرو ردًّا عليه :

قال رجـل لغلامه : «يافاجر» ، فقال : «مولى القوم منهم»[٢] .

والأدبـاء والـظرفـاء يعمدون إلى إثارة بعضهم

(١) أخبار الظراف ١١٧ .

(٢) أخبار الظراف ١١٧ .

بعضا ، أملا في أن يأتي من ذلك بعض الطرافة التي ينقلونها للناس ، ويشيعونها بينهم ، وقد تعودوا هذا وحذقوه :

قال يموت بن المزرع : «قال لي سهل بن صدقة - وكان بيننا مداعبة - : ضربك الله باسمك» . فقلت له مسرعاً : «أحوجك الله إلى اسم أبيك»[1] .

(١) أخبار الظراف ١٥٧ .

الشجاعة أم العقل ؟(*)

خلق الله الإنسان ، ووهبه العقل المفكر ، وأقدره على التدبر والتبصر ، وجعل الله الناس في هذا متفاوتين في التفكير ، عمقاً أو ضحالة ، وجعلهم مختلفين فيما يصلون إليه من أهداف نتيجة كد الذهن وشحذه ، وجعل لكل إنسان عوامل تساعده على التفكير الصحيح ، أو تعيقه عن ذلك ، تجعل منه ناجحاً أو مخفقاً .

واختلاف الناس في التفكير تحكمه الزاوية التي ينظر المرء منها إلى الأمر الذي استوجب التفكير ، واقتضى التدبر ، ودعا إلى إعمال الذهن . ولهذا فما قد يراه امرؤ حسنا ، اعتماداً على أسس وضعها في ذهنه ، وزاوية اختار أن ينظر منها إلى الأمر ، قد يراه آخر غيرحسن ، لأنه أقام أسساً أخرى انطلق منها ، فأوصلته إلى نتيجة رضيها ، ويود أن يشاركه الناس

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٦٦٨) في ١٤١٣/٧/٢٣هـ الموافق ١٩٩٣/١/١٦م .

رضاه هذا، فيتابعونه فيما اختار.

فالبخيل قد ينظر إلى الكرم على أنه رذيلة، لإنه في نظره إنفاق تعدى ما وضعه لنفسه من معايير يرتضيها للانفاق، والكريم ينظر إلى البخل على أنه صفة رديئة، توقع صاحبها في محل اللوم والنقد من مجتمع يرى الانفاق المطلق، وعدم الامساك، حتى لو تعدى الحدود المرسومة. أما المعتدل فيرى من زاوية ثالثة، يقف فيها بين الاثنين، فيرى البخل في الامساك المفرط، والتبذير في الكرم الزائد، ويتمسك بقول الله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾. ولكن ليس كل إنسان يعرف حد غل اليد أو بسطها.

ومثل الكرم والبخل كثير من الأمور المتظاهرة فالاقدام والاحجام أمران لهما حدودهما وأوقاتهما. والانتصار والعفو يحتاجان إلى وزن حتى لا يكون ترك الانتصار ضعفا، أو يكون العفو خوراً.

فالألوان أحياناً تتداخل، والأجزاء تتشابك،

والحدود تتحاسد، والحقائق تتراكب، فلا يكون من السهل أن توضع الأمور في الميزان، ليتبين من الوزن الأمر الراجح من الأمر المرجوح. ويبقى الأمر محيّراً للمراقب، أما أحد صاحبي الشأن في القصة التالية فقد قرر الفضيلة من عدمها:

«وقعت على يزيد بن المهلب حية، فلم يدفعها عنه، فقال له أبوه: «ضيعت العقل من حيث حفظت الشجاعة»[1].

في هذا رأي واضح في ذهن الأب فالعقل يقتضي من الابن أن يدفع الحية، وأن يفرّ منها فرار من ينشد السلامة من الخطر. ورأي الابن واضح، فقد أراد إظهار الشجاعة، والرزانة، وعدم الخفة، وأن عدوًّا شرساً مثل الحية لم يحرك به ساكنا. ولعلّ لسن كل واحد منهما ما يبرر النظرة التي نظرها، والزاوية التي أخذ مرقبه منها، والهدف الذي سدد سهمه إليه.

---

(١) أخبار الظراف ١٠١.

ولكن هل كل كبير في السن ، ومتقدم في العمر يسير على هذا المنوال ؟ إن هناك حادثة مماثلة أظهرت أن رجلا متقدما في سنّه وقف موقف الشاب ابن يزيد بن المهلب :

حدّث حوسر ، قال : «كنا عند محارب بن دثار (القاضي) ، فسقطت حيّة من السقف في حجره ، فنفر أصحاب الحديث ، حتى كسروا داربزين المسجد ، وما زاد عن أن نفضها من حجره ، فرماها»[1] .

هذا منظر يختلف عن سابقه ؛ فالحية سقطت في حجر القاضي المسن ، فنفضها من حجره ، إذ لم يقف مكتوف اليدين ، وإلا قيل إن الرعب سمره ، ولكنه أبعد الأذى عن نفسه ، ولم يدخل في حالة الذعر والهلع التي دخل فيها جلساؤه من أصحاب الحديث ، وهم شباب غير عاديين ، إذ هم طلبة علم ، والمتوقع منهم أن يكونوا على قسط وافر من الرزانة ، وعلى نصيب ضاف من التعقل والتأني ،

(١) وكيع ٣/٢٧ .

المصاحب لطالب العلم وحامله . ولو ابتعدوا بأسلوب مقبول ، وتصرف معقول ، لم يلاموا ، ولكن اللوم جاءهم بسبب ذعرهم ، وتزاحمهم على الخروج من المسجد ، حتى كسروا درابزين درج المسجد . ولعل بعضهم أصيب في هذا التزاحم بأضرار كانوا سيتفادونها لو بقوا .

تُرى ما رأي يزيد بن المهلب لو رأى هذا المنظر أكان يختاره لابنه ، أو يرضاه له . إنه منظر مشين . أما إن قلنا إن هناك موقفا وسطا ، وهو التنحي برزانة وهدوء ، مع تصرف مناسب مع الحية ، والقضاء عليها ، فهذا قولنا ونحن جلوس على الكراسي ، ليس بأجسامنا فقط ، ولكن بقلوبنا وعقولنا أيضا . أما هؤلاء فكانت عقولهم وقلوبهم طائرة شعاعا ، ليس لهم بها حيلة ، وليس لهم عليها سيطرة . ومن لا يملك قياد العقل وزمامه ، مثل القاضي محارب بن دثار ، فإن العقل منه حريّ أن يشرد ، حتى يفيء إلى رشده .

وهناك قصة حديثة تروى عن شيخ قبيلة ،

وتروى مثلا للشجاعة، وقوة التحمل، والصبر على الشدائد، وهي أمور لها وزنها في الحياة البدوية، ولها اعتبارها في عرف ابن الصحراء، ولكننا لا ندري مدى صحة هذه القصة، ولكنها طريفة، لاقت قبولا في محيطها، ولا يزال هناك من يذكرها، وإن كانت بدأت تبهت مع مرور الزمن.

كان شيخ القبيلة جالسًا في صدر المجلس، ولوقت غير قصير، كالمعتاد، فلما انتهى المجلس، وانفض السامر، ودخل الشيخ إلى خيمته، نادى خادمه، وكشف له عن ظهره، وطلب منه أن يرى ماذا هناك مما كان يضايقه بلسعه، طوال الوقت الذي كان فيه في مجلسه العام.

ولدهشة الخادم، تبين أن ذلك كان نتيجة لسع عقرب، كانت قد دخلت بين ثيابه وظهره، فكانت تلسعه مع كل حركة من حركاته. وكان ذلك يؤلمه ولكنه كان يتصبر ويتجلد ويتحمل أذاها، حتى لا يظهر للناس ضعفه. ومن نتيجة هذا التجلد، والصبر على هذا اللسع المتكرر أصبح ظهره

كالرئة ، مزروعاً بهذه اللسعات .

ويعجب أحدنا اليوم من صبره على شيء كان من السهل التخلص منه ، دون تحمل كل هذه المشقة ؛ فالناس يقومون لقضاء الحاجة التي لا يصبر عليها ، ومثله كان بامكانه ، وهو الرئيس أن يفتعل أمراً يسمح له بالقيام والانصراف ، ولو مؤقتا . ولكن القصة قصد بها إعطاء مثل من التحمل والجلد ، وهما مظهران من مظاهر الشجاعة . ونسيت القصة ما يقتضيه العقل ، وما يفتقه من حيل . ماذا لو كانت العقرب من النوع الذي سمه يقتل ، وهي كثيرة في نجد وغيرها من أراضي الجزيرة؟ ماذا لو كانت التي دخلت بين جلده وثيابه حية ؟ أكان يصبر أيضا ؟ التساؤل كثير ، ولكن لا سبيل إلى الاجابة . ويبقى العقل يحتج ، والشجاعة تفاخر ، والعقل يتحسر ، والشجاعة ترقص ، والعقل ينوح ، والشجاعة تغني .

ونجد شيئاً من التراث أيضا يسير على النمط نفسه ، ولعله ليس شاذاً في ذلك الوقت بعد الذي

رأيناه من نماذج :

من أخبار أبي علي الصغاني المشهورة أنه كان يوماً بين يدي السعيد نصر بن أحمد ، وهو يحادثه ، فضربت فخذ أبي علي عقرب ، وقد كانت دبت إلى سراويله ، ومازالت تعيد الضربات حتى استفرغت سمها ، وأبو علي لا يبالي بها ، ولا ينزعج لها ، فلما عاد إلى منزله ، ونزع ثوبه عدّت الضربات فبلغت سبع عشرة ، وبلغ السعيد الخبر فتوجع لما أصابه . ثم قال له بعد ذلك :

«يا أبا علي عزّ عليّ ما دهاك ، لِمَ لم تقم وتزيل عنك تلك البلية ؟» . فقال : إذا لم أصبر في مجلس الملك على أذى عقرب ، فكيف صبري إذا أعنت عنه على نيران الحروب ، وصواعق السيوف ؟[1] .

وهنا يتصارع العقل في هذه القصة مع الشجاعة ، فتغلب الشجاعة ، ولا يعدم صاحبها الحمد والإعجاب .

---

(١) آداب الملوك ٤٤ .

من وحي الشيخوخة(*)

الكِبَر له مظاهره، والتقدم في السن له ملازماته المتـوقعة، إذا كان الإنسان طبيعيا، ومنها الرزانة والتعقـل والتبصر، والميـل إلى الأنـاة والتسامح، والبعد عن التهور والمجازفة، والحساب للعواقب، والبعـد عن الشبهات، وهي أمور محمودة، ولعل هذه الأمور الحميدة التي تأتي مع تقدم السن تخفف من المعـانـاة الجسميـة التي تصاحب الكبر، ومنها شكوى الركب وضعف مفاصلها عن تحمل جسم الإنسـان، كما حملتـه أيـام الشباب؛ فالغضاريف تخشـوشن، فتهيج عند الحركة من سائل التزييت أكثر مما يلزم لتسهيل الحركة، وأكثر مما يتحمله حيز المفصل، فتتورم الركبة، ويحمر الجلد، وتلتهب الألياف، وتلجّ الآلام، ويضج الإنسان. وتتآكل «مخدات» التوقّي والارتكاز مع مرور الزمن، وتتالي

(*) نشرت في صحيفـة عكـاظ بالعـدد (٩٦٧٥) في ١/٨/١٤١٣هـ المـوافق ٢٣/١/١٩٩٣م.

الأيـام ، ويقـترب حينئـذ العظم من العظم ، وقد يلامسه ، فيأتي من هذا التقارب ، غير المرحب به ، آلام لا تطاق ، يثيرها المشي ، ولا تهدئها الراحة ، ويبتعد معها النوم .

وأهم من هذا أن زاوية انثناء الرِّجل تبدأ تتسع وتستعصي على الانثناء ، وهذا الاتساع يتبعه ضيق في الاستفادة منها ، وهم كبير لصاحبها ، ولا ينبؤك مثل خبير . ومن جرب هذا يتعاطف مع كل من يراه يمشي مشية تعلن عن معاناته من الركبة ، أو يجلس جلسة منبئة عن هذا . فالوقوف الطويل ، والجلوس المتواصل ، دون «مراوحة» بين القدمين محذور كل الحذر . وأصعب ما في الأمر عندما يذهب المرء إلى المسجـد ، فبعـد السـير من البيت إليه ، ولو كان قريبـا ، يحتـاج إلى جلسـة تراح فيها الركبة ، التي أصبحت رغـما عنـه وعنهـا ، مدللّة . يجلس المـرء مستريحا في المسجد عندما يصل إليه ، ويؤجل السنة دقـائق ، ويعـطي الـركبة فرصة لأن تلين ، وتنثني

قليلا ، حتى تسمح له بجلسة معقولة ، لا تأخذ محل اثنين .

وعلى هذا يذهب المرء مبكراً إلى المسجد ليختار المكـان المجاور للجدار ، حتى يضع بينه وبينه ما يسمح له بأخذ حيّز مريح لرجله ، يمدها إلى جانبه أو أمـامـه إذا كان من الذين يحتاجون إلى مساحة واسعة تدور فيها الرجل حتى تمتد إلى الأمام ، أو تسمح له أن يجلس متربعاً . ويغبط أولئك الذين ينهضـون ويـركعـون ويسجـدون بسهولة ويسر ، واستقـامـة تامة ، يفعلون ذلك دون أن يعجنوا . وينسى أنه كان في يوم من الأيام مثلهم ، عندما كان يكف رجله اليسرى تحته ، ويجلس عليها ، وينصب اليمنى بجـانبـه ، وهي طوع أمـره ، في مكـانها وزاويتها . ولولا أن الناس الآن يفعلون ذلك أمامه لظن ، مع النسيـان ، أن ذلـك خيـالا ، ووهما لا يقترب من الواقع .

ويحمل صاحب الركبة الشاكية هم مجاورة الذين

يتلصقون به كثيراً عند الصلاة، فلا يعطونه مجالا لإراحة رجله، فيضطر ألا يجلس بين السجدتين، أو يضطر أن يبقى جسمه ناهضا «للتحيات»، وهو وضع يلفت النظر، لأنه يصبح نصف واقف، وكأنه يؤكد تقدمه في السن وعجزه، وهو أمر رغم أنه واقع صحيح، إلا أن الإنسان، أنفة وعزة، يأباه، وبوده لو غولط، وادعي أمامه أنه شاب، لم يتعد الثلاثين.

والأمور التي ذكرت أن صاحب الركبة الشاكية يلجأ إليها، مِنْ سبقه المصلين إلى المسجد، ليكون له في هذا راحة قبل بدء الصلاة، وبحثه عن مكان قريب من الجدار، ورجائه أن يكون بجانبه من يقدر حالته، وأن يكون من بجانبه ممن يشكو مثل شكواه، وجدت له ما يماثله في زمن متقدم: هذا القاضي ابن شبرمة يبدو أنه عانى مثل هذه المعاناة، ومر بمثل هذه التجربة، وبحث عن حل فوجده، وابن شبرمة عرف بالعدل في القضاء، وحسن التصرف، ولا يستغرب عليه أن يحتال لما يريحه

بطريق ناجحه ، ولنا في هذا عزاء :

قال ابن مفضل :

«كنت أرى ابن شبرمة يجيء فيقوم في ميمنة المسجد وحده تحت الحائط ، فإن اتصل الصف به قام مكانه ، وإن لم يتصل حتى ركع الامام أسرع حتى يجيء فيكون مع الصف»[1] .

---

(١) وكيع ٣/١٢٧ .

مراكز اتصال مجهولة(*)

الأمور التي تتصل بالروح لا يزال كثير منها مبهما، وظواهره تحير المفكرين، ويحاول العلماء النفسيون اليوم أن يعرفوا ما يحكم بعض المظاهر المدهشة من قواعد وقوانين. وقد يبدو لهم أحيانا أنهم وصلوا إلى طرف حبل في هذا العلم، ولكنه حبل ضعيف. أما المظاهر المتتالية المحيرة فيأتي منها مفاجآت ودهشة. وحصروا جزءاً ضيئلاً ممّا عرف، وجمعوا مظاهره لا قوانينه، وسموها «تلبثي»، وأقرب ما لهذا التعريف توارد الخواطر، أو تقابلها أو تلاقيها واتصالها.

يفكر الإنسان في أمر فيجد آخر فكر في الأمر نفسه، ويخطر إنسان ببال آخر على بعد فيكتشف أن الآخر فكر فيه في اللحظة نفسها، على ما بينهما من بعد في المسافة، وعلى الغيبة الطويلة بينهما، وعلى

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٦٨٢) في ٨/٨/١٤١٣هـ الموافق ٣٠/١/١٩٩٣م.

نسيـان أحـدهما الآخر طوال هذه المدة . إن مجرد التفكير في أمر ، وتسلسل الفكرة فيه حتى الوصول إلى نتيجـة لم تقصـد تجعل المرء يحتار ، كيف حاد تفكيره عن الهدف ، وأوصله إلى ما هو خير مما قصد أصلا . وتنتابه الحيرة أيضا عندما يرى كاتبا سار على درب ، على غير قصد ، سلكه كاتب آخر ، وأتى فيه بما أتى به الآخر حذو القذة بالقذة .

كل إنسان في الوجود يحدث له نوع أو أكثر من هذه الأمـور التي توجب الـدهشـة ، وتـدعـو إلى الاستغراب ، ويقف أمامها حائراً لحظات ، ولكنه سرعان ما يصرف نظره عنها وينساها ، ولا يذكرها إلا عندما يسمع شخصا يروي حيرته أمام مظهر من هذه المـظاهـر ، حينئـذ تتـداعى أفكار المتناجين ، ويقص كل واحد منهم ما يذكر أنه مرّ به في حياته ، أو سمع عنه ، وتأتي هذه النجوى عرضا ، ولا تعدو أن تكون تسلية عابرة مثلما تقص الأحلام ، وتؤول وتفسر ، يجتر الناس غرائبها ، ويتحدثون عما يصح منهـا ويتحقق ، ولا ينـافس هذه الأحـاديث إلا

أحاديث العين، فهي منافس في المجالس جيد، لا يبارى.

وتاريخنا، وكتب أدبنا مليئة بالحوادث التي لو تستقرأ لأتت بالعجب العجاب، ولصححت كثيراً من المسارات التي كان يظن أنها خطأ لغرابتها، ولسوء الظن الذي يسيطر على الناس؛ فقصة عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - مع قائده الذي يبعد عنه مئات الأميال مع جيشه، كيف خاطبه عمر، وهو بالمدينة، وقال له: «يا سارية الجبل» فسمعه القائد «سارية»، وأخذ بتوجيهه وأطاعه، فنجاه الله القادر من كارثة بدت لعمر كأنها على شاشة تليفزيون.

وكان مؤرخو غيرنا من الأمم عندما يمرون بهذه الحادثة يهزؤون بنا وبالمعلومات التي يحويها تاريخنا، ويهزؤون بمؤرخينا الذين وضعوا هذه الحقائق في كتبهم؛ حتى إذا ما شع نور العلم الحديث على مجتمعهم، ورأوا في ضوئه ما رآه مؤرخونا قبلهم

بقرون في ضوء نور الايمان ، والثقة بالمؤمنين ، عادوا يبحثون في تاريخنا عما سجل في هذا وأمثاله ؛ يلتهمون التفاصيل ويستقرئونها علها تنجدهم بقاعدة يخرجون بها عن التماثل والتشابه في هذه الأمور . يقال إن بين علماء النفس في أمريكا ، وأمثالهم في روسيا من التنافس ما أوصل إلى بعض القواعد ، التي أتاحت لأحد العلماء أن يعرف طريق خط مختف بينه وبين أحد مريديه ، يستطيع به هذا العالم أن يأمر من موسكو مريديه ، وهو في لينجراد بعمل ، فيطيع . وليس هذا مبلغ الطموح عندهم كما يتوقع ، ولكن مبلغ الطموح أن يأمر أي شخص آخر ، مريداً أو غير مريد ، أن يطيع .

إلا أنه يبدو أنَّ أحد مقومات هذا الجانب الروحي أن يكون هناك صلة قوية بين الاثنين ، تعمر جسوراً قائمة بينهما ، وعن طريقها تعبر الموجات ، التي لا ترى من جانب إلى آخر . أما إذا عدمت هذه الصلة ، وهي الأساس ، فلا يسْتطيع غريب أن يتصل بغريب . لهذا نجد أن أكثر

الحـوادث المدهشة تحصل بين أم وابنها، وشخص وتوأمه، وحاكم وأحد رجاله، أو ما يماثل هذا.

وتحصـل الحـادثـة أحيانا والروح رهيفة، كأن يكون أحد الاثنين مريضا، أو في عسرة من دين، أو في ظلمة سجن، أو في قبضة عدو، أو تحت وطأة حاجة ملحة.

من المناظر المتكررة المشاهدة والملموسة، خاصة عند الأمهات اللائي يرضعن أطفالهن من أثدائهن؛ يكون الطفل في غرفة بعيدة يغط في نوم هادئ عميق، ولـو بكى لم تسمعـه أمـهُ. وفجـأة تقول الأم لمن حولها: «لقد دَرَّ ثَديي، لا بد أن ابني أو ابنتي قد استيقظ» فتسرع فتجد الطفل كذلك، جائعاً يلتهم الثـدي التهـاما، وترى أمّاً، ابنها غائب منذ مدة طويلة، في يوم من الأيام حزينة كئيبة، وتسألها عما بها في ذلك اليوم، فتقول: «لي يومان وابني فلان الغائب يظهر أمامي بحالة لا ترضيني، وأخشى أن به أذى». وتسأل أنت، وتستقصي، وتجد أن ظنها

في مكانه، وشعورها صادق، فقد كان ابنها مريضا، أو به ضائقة ما.

ويعقوب عليه السلام قصة شعور شمه لريح يوسف ابنه معروفة موثقة، ويعقوب أب، أبقى الحزن الصلة بينه وبين ابنه حيّة، لم يمتها اليأس، ولم يقض عليها طول المدة التي مرت بها. لقد زاد الحزن المستمر العميق نفس يعقوب رهافة وشفافية، أوصلته إلى هذه المعجزة.

قرأت في مجلة المختار عند نهاية الحرب العالمية الثانية قصة امرأة انجليزية كانت تجلس مع صديقاتها عصر يوم من الأيام، تشرب الشاي معهن. وكان ابنها مقاتلا في أوروبا مع الجيش البريطاني الذي كان يحارب المحور حينئذ، وفجأة تسمرت عينا المرأة، وتصلبت يدها، وغار دم وجهها، وسكتت حركاتها لثوان، عادت بعدها لطبيعتها، وكان جوابها لصديقاتها المتسائلات عن حالتها الطارئة أنها رأت ابنها راكبا سيارة «جيب»

وأنـه كان يعـبر أحد الجسور، فرأت أنه والسيارة طارا في الهواء، وسقطا في النهر واستقرا فيه. فهوّن صويحباتها عليها الأمر، وأكدن لها أن ما رأته إنما هو من تأثير كثرة تفكيرها في ابنها، وخوفها عليه، ومن توقعها مثل هذا المشهد.

وبعـد يوم أو يومين - كما هي العادة عندهم - جاءها إشعار من وزارة الحربية بأنه قد قتل في ذلك الوقت بعينه، وفي اليوم نفسه، وبالطريقة التي رأتها!

يغيب عنـا صديق، ثم نذكـره فجأة، فنجده يدخل علينا، ويغيب كاتبٌ عن صحيفة اعتاد أن يكتب فيها، فنذكره، فنجده في صباح اليوم التالي قد كتب مقالة له، أو كتب آخر مقالة عنه. ونقول هدأت الأمور في بلد ما لفترة طويلة، رغم وجود عوامل عدم الهدوء، فنجد في الأخبار أن الحوادث فيـه قد بدأت في الوقت الذي خطر في بالنا طول هدوئها. وتغيب عنا «معاملة» في مكتبنا أشهراً أو

سنة أو تزيد ، فنذكرها فجأة ، في إحدى الليالي ، فنجدها في صباح ذلك اليوم أول ورقة في أول إضبارة نفتحها !

سأختم حديثي ببعض ما هو مدون في تراثنا مما فيه مظهر من هذه المظاهر :

ورد في ترجمة الحسن بن عثمان الزيادي البغدادي : ذكر الجهشياري في كتاب الوزراء : أن رجلا من أهل خراسان أودع أبا حسان الزيادي القاضي عشرة آلاف درهم ، وأنها صادفت منه خَلَّه ، فأنفقها ، وقدَّر أن يأتي ما يرد على الخراساني مكانها إلى أن ينصرف الخراساني من الحج ، فحدث للخراساني أمر قطعه عن الحج ، وعزم على الانصراف إلى بلده ، فصار إلى أبي حسان يلتمس ماله ، فتعلل عليه ودافعه ، وتحيّر ، وضاقت عليه الحيلة . وعاد الخراساني مراراً فدافعه ، ثم وعده في يوم بعينه ، واشتد غمه وقلقه ، وأجمع على بذل وجهه إلى بعض إخوانه . فلما كان في ليلة اليوم الذي

وعد الرجل فيه امتنع عليه النوم من شدة قلقه . فقام في بعض الليلة فقصد دينار بن عبدالله . فلما صار في بعض الطريق تلقاه رسول لدينار يسأل عن أبي حسان ، فلما سمع ذكره سأله عن سببه ، وتعرف عليه ، فقال له : «أبو علي دينار يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : قسمت شيئا على عيالنا ، وذكرت من في منزلك منهم ، فوجهت إليهم بعشرة آلاف درهم فقبلها ، وحمد الله . وصار إلى منزله ، فسلمها إلى الخراساني . وصار إلى دينار ، شاكراً له ، وعرّفه خبره . فقال له دينار : «فأرانا إنّما وجهنا بمال إلى الخراساني ، فعلى ماذا يعتمد العيال ؟ وأمر له بعشرة آلاف درهم أخرى[1] .

لعل مدخل انتقال الشدة التي وقع فيها الزيادي إلى دينار الحالة العاطفية التي كانت بينهما ، والصداقة والقرابة في هذا المجال يبدو أنها تكون موصلا قويا للخواطر ، مثل الماء للكهرباء . هذه

(١) معجم الأدباء ٩/ ١٩ .

العـاطفـة قامت بنقـل شعور القاضي بالضيق إلى صديقه في وسط الليل . والليل تأثيره ، كما يبدو ، يعضـد بقيـة العوامل من عاطفة وشدة . وأخذت أطراف الأمر تتلاقى ، هذا باشتداد الأزمة عنده ، إلى أن وصل إلى أن يقرر أن يذهب في وسط الليل إلى صديقه ، ويأخذ طريقه إليه ، وهذا يستجيب للطلب دون أن يعلم به ، ويعـد عيـال القـاضي عياله ، فيعطيهم مثلما أعطى عياله .

استقراء مثل هذه الحالات ، والتمعن فيها ، قد يوجـد أن هناك قضايا تسير عليها عجلات قاطرة توارد الخـواطر . وما أكثر الحالات والحوادث التي من هذا النوع .

والمـرأة وزوجها ، وبينهما مودة ورحمة ، تحفران طرقا عميقة تصل روحيهما ، ولهذا لا يستغرب أن يكون بينهما من الاتصال الروحي أحيانا ما يندهشان له ، ومن علم أحدهما بما يجري داخل مهجة الثاني دون أن يبوح أحدهما للآخر به ، وقد يباح بها عن

بعد فتصل إلى الآخر على بعد المسافة ، وعدم إمكان الالتقاء المادي بين الاثنين اللذين همهما الأمر :

حدث المستمر بن سليمان عن أبي الجوزاء ، قال : طلقت امرأتي في نفسي ، وأنا في المسجد ، ثم انصرفت إلى منزلي ، فقالت لي امرأتي : «أطلقتني يا أبا الجوزاء ؟» قلت : «من أين لك هذا ؟» قالت : «خبرتني جارتي الانصارية» . قلت : «ومن خبّرها بذلك ؟» . قالت : «ذكرت أن زوجها خبّرها بذلك» . فغدوت على ابن عباس ، فقصصت عليه القصة ، فقال : «علمت أن وسواس الرجل يحدث وسواس الرجل ، فمن هنا يفشو السرّ»[1] .

يمكن أن نضيف أن الجار الذي أوصى عليه الرسول ﷺ وكاد أن يورثه ، بينه وبين جاره من الصلة ما يسمح لروحيهما بتخطي حجب المادة ، التي عبر عنها ابن عباس «بوسواس الرجل» . ورضي الله عن ابن عباس ورحمه ، فقد قبل

---

(١) معجم الأدباء ١٦/ ١٨١ .

الحادثة ، وفسرها تفسيراً مقبولا ، ولم ينكر الأمر ، مثل مؤرخي الغرب عندما انكروا «يا سارية الجبل» ، ولم يقل إن الجن نقلوه ، ولكن ليت ابن أبي الجوزاء سأل زوج الانصارية ، الذي بقى الحلقة المفقودة المهمة في هذا الأمر .

وإذا كان هناك أناس ترددوا في قبول ما قيل عن العباس - رضي الله عنه - والراعي الذي كان يرعى الغنم له ، فقد آن الآوان لتصديق ذلك ، ويبقى التفكير قائما في كيف تم هذا ، وعلى أي جناح موجة حمل؟ ولعل العباس عرف القاعدة التي يمكن أن تستخدم ، وهو ما يحاول مفكروا اليوم أن يصلوا إليه :

«كان للعباس بن عبدالمطلب راع يرعى له على مسيرة ثلاثة أيام ، فإذا أراد العباس منه شيئاً صاح به ، فأسمعه حاجته»[1] .

وإذا كان ما تم بين عمر بن الخطاب - رضي الله

(١) المنتقى ١٧٢ .

عنه - و «سارية» ، حدث مرة واحدة ، فإن مثله يحدث مع العباس دائماً . وقد يكون كل يوم . وهذا يوجب الاهتمام حقا - كما قلنا - ويذكر صاحب أخبار مجموعة في فتح الاندلس القصة الآتية :

في عهد هشام بن عبدالملك خرج حنظلة بن صفوان الكلبي ، أخو بشر بن صفوان ، صاحب أفريقية في عام ١٢٣هـ . ونزل أفريقية : «ثم توافت إليه امداده ، وجمع له ميسرة ، في سنة ١٢٤هـ ، فالتقى حنظلة والبربر ، وكان البربر قد حاسوا (نزلوا) عليه بعسكرين عظيمين ، لا يوصف عددها . وكان هشام مريضا ، وكان مرضه الذي مات فيه . فَحُدِّثتُ - والله أعلم - أنه جعل يقول : «ياحنظلة إبدأ بإحدى الطائفتين قبل الأخرى» . فظنوه يهجر (يهذي) ، فالتقى حنظلة والبربر ، فقُضِي أن بدأ بالعسكر الواحد . . فقتله ، ثم مضى إلى العسكر الآخر . . في عقب سنة ١٢٤هـ[1] .

---

(١) ص ٤١ .

هذا خليفة يحتضر يقف موقفا مثل موقف عمر ، قلبه منشغل بجيشه ، فرأى رغم بعد المسافة الخطر المحيط بجيشه ، ورأى العسكرين ، وحذر قائده وأرشده إلى الخطة الصائبة . وسواء سمعه حنظلة أو لم يسمعه ولكن رأيه وحكمته دلتاه على التصرف السليم . ولكن المدهش هو رؤية الخليفة على بعده أن هناك عسكرين وأن مقابلتهما معا فيها مخاطرة كبرى ، ولكن أخذ كل واحد على حدة هو الصواب ، على بعد الخليفة عن ميدان القتال ، واستحالة أن تصله الأخبار بين تواجد الجيشين ، وبدء المعارك . إنه موقف غريب ، وحادثة عجيبة ، جعلت المؤرخ يقول وهو يرويها : «والله أعلم» .

يحتال للرزق(*)

يعمد الناس إلى ترويج القصص التي تدعو إلى فضيلة، أو تنهى عن رذيلة. فيلبسونها حيناً ثوباً مرحاً، وحيناً يكسونها رداءاً حزيناً. ولكل من هاتين الحالتين ما يتماشى معها، ويضمن شدة تأثيرها، وبقاء هذا التأثير مستمراً. وتنجح بعض هذه القصص في مقاومة الزمن، ومصارعة عوامله، والوصول إلينا كاملة لم ينقص منها شيء يضر بالهدف الأساسي الذي وضعت القصة من أجله؛ فما يتغير أحيانا أو يزيد أو ينقص يقتصر على وضع اسم شخص مكان اسم شخص آخر، أو نسبة الأمر إلى بلدة دون أخرى.

هناك قصة تدور على ألسنة الناس مقتضاها أن الرأي الجماعي له طبيعة تختلف عن الرأي الفردي، وأن الناس نظرياً ومبدئياً قد يجتمعون على شيء لأن

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٦٨٩) في ١٥/٨/١٤١٣هـ الموافق ٦/٢/١٩٩٣م.

بعض الجوانب العملية تغيب عنهم ، وبعضها قد لا تكون واضحة لهم ، فيتفقون على شيء لا يكملون تنفيذه عندما تبدأ خطواته العملية ، فيقصرون عن الهدف ، أو يتجهون إلى غيره دون خيار منهم لذلك ، وإنما يأتي ذلك عمىً ومتابعة لغيرهم . ولعل هذا هو الذي دعا قواد الجيوش ، منذ أقدم العصور ، إلى وضع سيافين في ساقة الجيوش ، يطيحون برأس من تسول له نفسه الانهزام أو التراخي عند الزحف .

والقصة التي تدور منذ زمن بعيد عن هذا الأمر واضح فيها الهدف : يأتي شخص لأناس متذمرين مثله ، أو غير متذمرين ، فيقنعهم ويقرر معهم أمراً ، فيسيرون تجاه رفع أسباب الشكوى ، رغم أن بعضهم قد لا يكون له علاقة بالأمر ، إذ أنه لا يلمسه من قريب أو بعيد ، إلا أن حمّى الروح الجماعية قد تغشته ، وحجبت عن فكره بعض الأمور التي لو تدبرها لما أقدم على المشاركة ، وروح : «مع الخيل يا شقراء» طاغية . ثم عندما

تذهب «السّكرة» وتأتي «الفكرة» يحجم المقدمون، وينكص المندفعون، في وقت قد لا يكون مختاراً ولا ملائماً.

والقصة يقال إنها حدثت في مكة في وقت غابر ويقال إنها حدثت في بغداد، أو دمشق، أو القاهرة، أو في الصين، ولا نهاية لعدد المدن والبلدان التي يقال إنها مسرح القصة، ولعلها لم تحدث أبداً في أي مدينة، أو على أي أرض، ولا في زمن بعيد أو غابر أو سحيق، ولعلها ولدت في ذهن صاحب الفكرة، وجاءت من نسج خياله للعظة أو للتسلية، أو لشد الانتباه.

أهدي للحاكم فيل، ولأن إعاشته وحفظه أمر مكلف لا يستطيع الحاكم مقابلته، تركه يمشي في الأسواق يلتقط رزقه مما يمر به من دكاكين عرضت فيها مؤونة للبيع، فتضرر أصحاب الدكاكين من ذلك، واشتد بهم الحال، فاتفقوا، هم ومن لم يتضرر، أن يذهبوا إلى الحاكم، وأن يعلموه بما يأتي

من الفيل من ضرر ، وما هم فيه من شدة وكرب من جراء ذلك ، وهم على ثقة بأنه سوف لا يرضى لهم الأذى والمشقة ، وسيرفع عنهم هذه المحنة الطارئة . فتجمعوا صفوفا وذهبوا منتظمين ، يقدمهم صاحب الرأي في هذا الأمر . ولم تكن تخلو قلوبهم من هيبة المقـابلة الآتية ، أو رهبة الموقف الذي هم قادمون إليه ، وتدريجيا أخذت هذه الهيبة وهذه الرهبة تكبر في أذهان بعضهم ، وبدأ يتصور أخذاً ورداً وحدّة ، وجفـاءً . ويتصور تقريعاً وتأنيباً وتأديباً ، ومع كل خطوة يتجسم الأمـر في أذهـان بعضهم ، ويعظم تدريجيا حتى طغى هذا على كل ماعداه مما فكروا فيه ، فبدؤا يتسللون لواذاً لِواذاً ، واحداً بعد واحد ، وهم في طريقهم إلى مقابلة الحاكم . وعند مدخل كل زقاق يفلت من نظيم الصفوف شخص أو أكثر بهدوء ، وعـنـد كل منـحـنى ينسـل شخص أو أشخاص ، يتبخرون دون أن يشعر بهم إلا من كان بجانبهم ينتظر دوره في الاختفاء .

فلما وصل رأس الصف إلى باب الحاكم ، ودخل

عليه في مجلسه التفت خلفه فلم يجد أثراً لمن كان معه، لقد اختفوا كلهم أجمعين، وتبددت حبات ذلك العقد المنتظم، فأسقط في يده، إذ لم يكن بإمكانه الآن، وقد وصل إلى الحاكم، وألقى التحية، أن يتراجع أو يتأخر، ولم يتوقع أن يكتفي الحاكم بتلقي التحية، إنه الآن منتظر حاجة هذا القادم، سواء كان ذلك مظلمة، أو طلب إفضال. هنا تأتي حبكة القصة، فقد أدرك الرجل أنه في ورطة، وأنه ليس في موقع قوة بأي حال من الأحوال، ووجد أنه بكل تأكيد في حل مما اتفق مع زملائه عليه، بعد أن أحلوا هم أنفسهم من عهده، وأعفوا أنفسهم من وعده، وخذلوه في وقت عسرة، وتركوه في الميدان وحده، يصارع هذا الظرف، ويحاول الافلات من هذا الموقف المضني. ولعله مع الحنق عليهم لم يفكر فقط من التخلص مما هو فيه لا له ولا عليه، ولكنه أراد أن يلطمهم لطمة مماثلة أو أشد، ويكيل لهم الصاع صاعين.

انتظر الحاكم المهيب منه أن يتكلم، فتكلم،

وقـال قولا حكيـما ، مسدداً ، لا يشوبه تردد ، ولا تعتريه هزة : «أيها السيد الجليل : إننا تدارسنا أمر هذا الفيل المسكين ، بعد أن رأينا في بعض أخلاقه حده ، وفي بعض تصرفـاتـه عنت ، وفي طبعـه صلف ، وبحثنـا جاهـدين عن السبب في ذلك . وقلبنـا الأمـر على جوانبـه ، فاهتـدينـا بعد التأمل والتـدبـر ، إلى ما يكمن وراء ذلـك ، ووجدنا أن السبب فيما هو فيه مما يؤخذ عليه أنه وحيد في هذه البلاد ، فلا أنيس له من جنسه يبدد غيوم وحدته ، ولا شريـك يشاطره أفراحه وأتراحه ، فانعكس ما يشعر به من ضيق على تصرفه المنتقد ، فجئت نائبا عمن خلفي ، راجياً ومسترحما ومستعطفا أن تأمروا بأن يؤتى له بشريكـة تشـاركـه حيـاتـه ، وتـونس وحـدته ، وتبعد عنه الوحشة والكدر . ولن يكون هنـاك زيـادة في المؤونـة ، ولا ضيق في المكـان ، (فاللقمـة الهنيـة تكفي ميّـة) و (سم الخيـاط مع الاحباب ميدان) . ومايكفي واحداً لن يعجز عن اثنين ، والأمر لله ثم لكم ، وفقكم الله للصواب» .

وخـرج الرجل بهذا من المأزق ، وصفع الذين أوقعـوه فيـه إذا كان الحاكم قد استجاب . ولكن القصة لا تبين ما حدث بعد هذا فهدفها قد اكتمل عند هذا الحد . وكثيراً ما تأتي العظة ، أو الدعوة إلى فضيلة ، أو النهي عن رذيلة ، على لسان الحيوان ، أو باشراكـه في ذلـك مع الإنسـان . ولعـل أحـد الأسباب لهذا أن الأطفال ربما يستفيدون منها ، ومما احتـوته من تعليم وتهذيب ، واستفادة من تجارب الكبار في الحياة .

والقصة التي هي في صلب موضوعنا بعنوانه هذا قصة طريفة ، ومثل سابقتها قابلة أن تكون في أي زمن ، وفي أي بلد . والقصـة تُروَى عن حاكم ، كان له قريب لم يجد الحـاكم أنـه يصلح لعمـل يسترزق من ورائه ، وأمر رزقه يهم الحاكم . وكان يود أن يسـاعده ليتجاوز حالة الفقر المدقع الذي هو فيه ، ولم يكن عند الحاكم مال فائض يعطيه منه بانتظام .

والحل جاء من الرجل نفسه، إذا أسرّ في أذن الحاكم كلمات قبلها الحاكم متعجبا، قال له الرجل: «عيني أميراً على القطط» فاندهش الحاكم في أول الأمر، وظنه مازحا، أو أن بعقله مسّاً من جنون؛ إلا أن مظهره يدل على الجد، فأراد أن يتعمق معه في الأمر، عله يتبين له لاحقاً ما لم يتبين له سابقا. فقال له: «ومايتبع هذه الأمارة من عمل والتزام». قال الرجل: «ليس هناك أكثر من أن آتي صباحاً، وأتخطى الجالسين، وأهمس في أذنك بكلمة: (صباح الخير)، وآتي مساء فأهمس في أذنك بكلمة: (مساء الخير) فيظن الناس بي خيراً حينما ترد علي همسا بالاجابة مع ابتسامة تدل على رضاك. هذا كل ماهناك، ويهمني أن تبتسم لي، أما الرد المهموس فإن شئت فرد التحية، وإن تشأ فاستبدلها بأقبح الكلمات مادام لا يسمعها إلا أنا».

وافق الحاكم على ذلك، وصار الرجل يأتي صباحاً ومساء رافعاً رأسه، رفعاً يليق بأمير، وينفذ من أول المجلس إلى حيث يجلس الحاكم في صدره،

فينحني والحاكم مشغول بقراءة المعاملات ، فينحني ويهمس بالتحية في أذنه ويطيل . فيرد الحاكم عليه التحية أو غيرها همساً ولكنه يردفها بابتسامة تكون عريضة إذا كان الرد سلسلة من الشتائم مثل «أبعد الله ديارك» أو «خيبك الله» أو «قطع الله رقبتك كما قطعت سلسلة أفكاري» أو «لا مرحبا بالطاووس الاجوف» ، أو ما إلى ذلك من الكلمات التي يسر بها أمير القطط ، وتملأ جوانحه الفرحة على أثرها .

وبعد سنوات بدأت تظهر في المدينة مبان وعمارات ، تبنى الواحدة بعد الأخرى تباعا ، في أماكن مختارة ، واستغرب الحاكم أمر هذه المباني ، وزادت دهشته عندما أخبر أنها لأمير القطط ، لأنه يعلم أنه أمير بغير مرتب ولا رزق ولا مورد ، ويعلم أنه كان فقيراً مدقعا ، لا يزور الفأر بيته . فاستدعاه ليحل له هذا الأمر المعمّى ، وشدد عليه ، وهدده بالعزل من هذه الوظيفة الوضيعة إن هو لم يفعل . فكشف له السر ، وأبان له المخبأ ، وبيّن له أن هذه النعمة جاءته من هذا المركز الذي تفضل به عليه ،

ومن التحيات التي سمح له بأن يلقيها عليه صبحا ومساءً ، ومن الابتسامة التي كان يكرمه بها حينئذ . فزادت دهشة الحاكم ، لأنه لم ير في هذا ما يأتي بنقود . فأفهمه الرجل بجلية الأمر ، وكشف له عما عناه ، قال : «إني كنت طوال وقت جلوسك للنظر في أمور الناس خارج المجلس ، أتلقف أصحاب الحاجات ، أعرض عليهم وساطتي لديك مقابل مبلغ يدفعون نصفه على الوساطة ، والنصف الباقي على نجاحها .

ويقف أصحاب الحاجات على مرأى مني وأنا أحييك وأنت ترد عليّ وتبتسم لي . والحقيقة أنى أسرّ كلما طالت شتائمك وطالت معها ابتسامتك ، مما يدل على أني بذلت جهداً ، وأنك من محبتك لي ، وتقديرك ، لم تغضب مثلما تغضب على غيري أو مع غيري . هذا هو مصدر ثروتي ، وهذه هي أداة عملي . ومنهج احتيالي لطلب الرزق .

هذا الجانب النفسي أوصل إلى هذا النجاح ،

لمعرفة صاحبه بطباع البشر، وما يمكن أن يؤثر فيهم، ويستفاد به منهم، وقد نجحت خطة هذا الرجل نجاحا متناهياً. وأوصلته إلى ثروة لعل الحاكم نفسه لم يصل إليها.

ويبدو أن الاستفادة من الجوانب النفسية عند الناس ليست وقفا على زمن دون زمن، فقد عرف رجل آخر في زمن آخر كيف يستفيد من العامل النفسي وتأثيره، ودونت كتب الأدب ذلك. وفي القصة الآتية جوانب طريفة، وملفتة للنظر، لأنها تلعب لعبا متقنا على الجانب النفسي بعد دراسة عميقة لنفس بعض الناس، وهذه القصة هي التي أوجبت التقديم لها بالقصتين السابقتين:

روى أبو علي المحسن بن علي التنوخي، قال: كنت ألازم الوزير أبا محمد المهلبي.. واتفق أن جلس يوما مجلسا عاماً، وأنا بحضرته، وقيل له: «أبو السائب في الدار». قال: «يدخل» ثم أومأ إليّ بأن أتقدم إليه، فتقدمت، ومدّ يده ليسارّني،

فقبلّتها . . وقال : «ليس بيننا سرّ ، وإنما أردت أن يدخل أبو السائب فيراك تسارّني في مثل هذا المجلس الحافل ، فلا يشك أنك معي في أمر من أمور الدولة ، فيرهبك ويحشمك ، ويتوفَّر عليك ويكرمك ، فإنه لا يجيء إلا بالرهبة ، وهو يبغضك بزيادة عداوة كانت لأبيك ، ولا يشتهي أن يكون له خلف مثلك» ، وأخذ يوصل معي في مثل هذا الفن من الحديث ، إلى أن دخل أبو السائب ، فلما رآه في سرارٍ وقف ، ولم يُحبّ أن يجلس إلا بعد مشاهدة الوزير له ، تقربا إليه وتلطفا في استمالة قلبه ، فإنه إذ ذاك فاسِدَ الرأي فيه .

فقال الحاجب لأبي السائب : «يجلس قاضي القضاة» ، وسمعه الوزير ، ورفع رأسه ، وقال له : «إجلس ياسيدي» . وعاد إلى سراري . وقال لي : «هذه أشد من تلك ، فامض إليه من غد ، فسترى ما يعاملك به» . وقطع السرار . وقال لي ظاهراً : «قم فامض فيما أنفذتك فيه ، وعد إليّ الساعة بما تعمله» . فتوهم أبا السائب بذاك أننا في مهم .

فقمت، ومضيت إلى بعض الحجر، وجلست إلى أن عرفت انصراف أبي السائب، ثم عدت إليه، وقد قام عن ذلك المجلس. وجئت من غدٍ إلى أبي السائب، فكاد يحملني على رأسه، وأخذ يجاذبني بضروب من المحادثة والمباسطة. وكان ذلك دهراً طويلاً[1].

هذه قصة فيها إيهام للناظر، مثلما في قصة أمير القطط، من إيهام جلساء الحاكم، وأصحاب الحاجات وغيرهم، وفيها مسارّة وهمس، وكسب من وراء هذا الهمس والمسارة. والإيهام في هذه مختلف، وتم بين اثنين متفقين على خطة والكسب المباشر من هذا أدبي، ولكن المجرى واحد، والهدف واحد.

والعامل النفسي في مثل هذه الأمور يلعب دوراً عجيباً فعّالا، ويدخل في أمور كثيرة في الحياة لا تكاد تحصى، وقد لعب على الأقل مرّة دوراً واضحا

(١) معجم الأدباء ١٧٠/٩٦.

في قصة فيها أيضا همس ومسارّة :

كنت قبل سنوات في مجلس رجل غالٍ وعزيز من عليـة القـوم، ودخل مجلسه شاب وسلم عليه وجلس ، وبدا كأن صاحب المجلس يعرفه . وبعد برهة غير وجيزة ، ناداني صاحب المجلس ، وهمس في أذني الكلمات الآتية : «سوف أسألك عن أحد الجالسين فلا تلتفت إليه ، لأن الإنسان إذا سئل عن أحد يلتفت إلى المسؤول عنه دون شعور ، فيعرف هذا أن الحـديث عنه» . ثم سألني : «من الشاب الذي دخل وجلس بجانب فلان ؟» فأخبرته . فقال لي : «إذا عدت الآن إلى مكانك ، فلا تنظر إليه ، واجعل عينيك في الأرض» ، ففعلت ، وأنا مندهش من دقة ملاحظته لهذه الأمور النفسية التي لا يلتفت إليهـا إلا ذكي مثله جرب الحياة ، ومهذب مثله ، يراعي شعور الناس . ويبتعد عما يجرح شعورهم ، أو يخدش إحساسهم .

قدم على قدم(*)

قمت منذ سنوات مع بعض الاخوة برحلة إلى سدوس، البلدة القريبة من الرياض، وكان ذلك على أثر أمطار غزيرة هطلت على المنطقة، وعند نزولنا من المرتفع «الظهرة» إلى الوادي رأينا على يسار النازل أنَّ توالي مواسم الامطار على مر السنين قد أثر في جانب الوادي، فارتفاع مستوى السيل، وقوة اندفاع الماء، قد فعلا فعلهما في مقبرة في أعلى صفحة جانب الوادي. وتبين من أول نظرة أن المقبرة ليست واحدة، وإنما هي ثلاث مقابر، تكونت مع الزمن بعضها فوق بعض. وتبين أن الاثنتين اللتين إلى أعلى إسلاميتان، والدفن فيهما تجاه القبلة، أما الثالثة، وهي السفلى، فهي غير إسلامية، لأن الدفن فيها على غير القبلة. وقفنا نتأمل هذا المنظر الفريد، لأن فيه عدة أمور تلفت

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٦٩٦) في ١٤١٣/٨/٢٢هـ الموافق ١٩٩٣/٢/١٣م.

النظر ، وتوجب التفكير ، فالمسلمون الأول لم يتجنبوا المقبرة القديمة التي دفن فيها من لم يكونوا على السنّة ، بل بنى المسلمون فيها ، أو في جزء منها ، ولا بد أنّ للشرع في هذا حكما ، والأمر الثاني الذي يوجب الوقفة والتأمل ، وربّما الحساب ، هو أنه في حدود أربعة عشر قرنا ارتفع التراب فيها إلى الحد الذي مكن من حفر طبقتين من القبور بلحودها ، واحداً فوق الآخر . علماً بأن الدفن فيها توقف بعد ذلك منذ زمن .

أخذني هذا الوضع المادي الذي رَكِبت فيه أرض على أرض ، وقبر على قبر ، إلى مجال غير مادي ، وهو مجال الذهن والفكر ، وما يأتي منه متفقاً ومتراكباً ، تتوافق فيه الخواطر ، وتوضع فيه قدم على قدم . نجد شخصا يفكر في أمر ثم نجد آخر ، بعيداً عنه في الزمان أو المكان أو فيهما معا ، فكر في الشي نفسه ، وسلك فكره طريقاً مماثلا ، وجادة لا تختلف عن الجادة التي سلكها فكر الآخر .

وقد سبقنا من قبلنا إلى هذه الملاحظة ، فقالوا : « ما أرانا نقول إلا معاداً من قولنا مكرورًا » . وقالوا قبلنا إن التاريخ يعيد نفسه . وبعض الأمور من الطبيعي أن تؤدي مقدماتها إلى نتائج متماثلة ، ولكن بعض الأمور تكون أوضح في هذا من غيرها .

في عنيزة في منطقة القصيم في زمن آبائنا رجل اسمه محمد التمرات على ما أذكر ، ولعله سمي بهذا لما يطلبه من التمر . وكان فيه سذاجة ، وتأتي منه أقوال وأفعال لا يؤاخذ عليها ، لأنها في حدود مقدرته العقلية ، والناس يعذرونه ، ويقال إنه في يوم من الأيام أُخِذ عليه أمر أوجب مساءلته ، فأرسل إليه أمير عنيزة يستدعيه للمحاسبة ، فقال لرسول الأمير : « قل للأمير يجي بحاجته » ، كلمة لا تخلو من منطق إذا ما جردت الفكرة عنوة من هوامشها الاجتماعية ، وقد جعلتها غرابتها من جهة وصحة المنطق فيها من جهة أخرى تبقى وتنقل وتتداول وتسجل ، وتصبح مثلا يأتي به الناس عند استدعاء الطرافة بين الأصدقاء والأحباب . فكثيراً ما تسمع

من يقول لآخر : «لا يا أخي لن أذهب ، يجي الأمير بحاجته» في حين أن ليس هناك أمير وليس هناك حاجة ، وإنما هو مثل طبق على أمر طابق واقعاً ركّب عليه .

قيل مثل هذا القول في أحد كتب التراث ، ولكن الموقف مختلف ، والقائل ذو اعتبار خارق ، ولكن القدم وضعت على أثر القدم السابق .

«روى بلال بن بردة أن عامر بن أبي موسى عبدالله بن قيس الأشعري البصري ، ولي البصرة ، وأنه خرج في جنازة ، وهو أمير على البصرة ، فنظر إلى جماعة وقوفاً ، فقال : ماهذا؟ قالوا : مالك بن دينار يذكر النّاس ، فقال لوصيف معه : إذهب إلى مالك بن دينار فقل له يرتفع إلينا إلى القبر. فجاء الوصيف فأدّى الرسالة إلى مالك ، فصاح مالك : لا ، ما لي إليه حاجة فأجيبه فيها ، فإن يكن له حاجة فليجئ إلى حاجة نفسه .

فلما دفنوا ميتهم قام بلال بمن معه إلى حلقة

مالك» .

الرجال غير الرجال ، والموقف غير الموقف ، والزمن غير الزمن ، والنظرة إلى هذا غير النظرة إلى تلك ، ولكن القدم وقعت على القدم مثلا بمثل ، فالكلمة هي الكلمة ، والطلب في لفظه هو الطلب ، والرد في حروفه هو الرد .

والتماثل في هذا المجال وغيره يوجب الالتفات ، وقد تختلف الصورة ، ولكن يبقى الاطار واحداً ، يذكر الحاضر بالماضي ، والقريب بالبعيد .

وأحياناً لا يدري الإنسان ، عندما يحدث التشابه في زمن ماضٍ عن حادثة لها ما يماثلها في الحاضر ، هل المتأخر ابتدع الأمر إبتداءً من نفسه ، أو أن ثقافته أسعفته ، فنقل ما استفاد منه عن الماضين ، واستقى من حكمتهم وحسن تصرفهم . والأمثلة في هذا لا تعوز المتتبع . هناك قصة تروى كالآتي ، والذين يروونها من أهل نجد :

---

(١) سراج الملوك ١٢٥ .

عنـدما أراد محمد علي باشا غزو بلاد العرب ، وقصـد أخذ الدرعية ، اهتم لهذا الأمر ، وقد كثر حديث المؤرخـين عن غزوه لنجـد ، وعن أوامـر الخليفة العثماني له بذلك ، وقيل من جملة ما قيل أن محمد علي كان متردداً في القبول ، لأنه كان يشعر أن الخليفة كان يريد أن يورطه في هذه المهمّة ، لينهكه حربيـا بحملة عسكـريـة كهـذه ، فينصرف عن طموحه في ضم الشام إلى حكمه ، وإلى ما قد يكون أكـبر من ذلـك . وقـال بعض المحللين أن الأمـر بخلاف ذلك ، وأن محمد علي لم يتردد في القبول ، انتهازاً لفرصة تكسبه مجداً عسكرياً ، ومكسباً مالياً يسـاعده على تنفيذ خططه في التوسع في مد رقعة حكمه إلى الشام وغيرها .

على أي حال سار محمـــد علي في خطة غزو الجزيرة ولم يخل فكره - كما قلنا - من هيبة تجاه هذه المغامرة . ويقال إنه لما قرر أن يرسل جيشا ، بعد أن هزم جيشه الأول بقيادة طوسون في الحناكية ، جمع أبناءه وقواده ، ووضع فنجان قهوة مملوء بالقهوة في

وسط سجادة كبيرة مبسوطة أمامه ، لا يستطيع أحد أن يصـل إلى وسطها دون أن يضع قدمه عليها . وقـال لهم : من استـطاع أن يأخـذ فنجان القهوة ويشربه ، دون أن يريق منه قطرة ، ودون أن يطأ السجادة فهو الذي سوف يفتح لي نجداً .

وعجـزوا جميعـا عن أخـذ الفنجان لبعده عن أطراف السجادة ، وقصور أيديهم عن أن تصله ، فلما عجـزوا جميعا تقدم ابنه إبراهيم باشا ، وأخذ يطوي الـسـجـادة بتؤدة وأنـاة حتى وصـل إلى الفنجان ، فأخذه دون أن يريق منه قطرة وشربه . فقال له محمد علي : «أنت الذي تطوي لي نجداً» . فسلمه قيادة الجيش .

هذه القصة متداولة ، ويكاد لا يجهلها أحد في زمن مضى ، وأصبح بسببها يضرب بإبراهيم باشا المثل في الذكاء والمقدرة . إلا أن الجيل الجديد أصبح أقل معرفة بها من الجيل الذي سبقه ، ولعل السبب أن هذه القصة لم تدون ، وبقيت تتداول شفهيا بين

الناس ، يزيد فيها من يزيد ، وينقص من ينقص . ومنذ أيام وجدت نصا في كتاب سراج الملوك ، يصلح للمقارنة بها ، والقدم فيهما وطئت على القدم :

«لما هم ملك الروم بحصار صقلية أمر أن يبسط بساط في الأرض ، ثم جعل في وسطه ديناراً ، وقال لوجه رجاله : من وصل منكم إلى الدينار ولم يطأ البساط علمت أنه يصلح للملك ، فوقفوا حوله ، ولم يصل أحد إليه ، فلما أعياهم ذلك طوى ناحية البساط من عنده ، وأمر كل واحد منهم أن يطوي مايليه حتى طوي البساط ، فمدوا أيديهم فلحقوا الدينار ، فحينئذ قال لهم : إذا أردتم مدينة صقلية خذوا ما حولها من الحصون والمدن الصغار والضياع والقرى حتى إذا ضعفت أخذتموها»[1] .

المؤدّى واحد ، والهدف واحد ، والاختلاف جاء في فنجان القهوة ، وهو أليق بالعرب ، أهل القهوة

(١) سراج الملوك ٥١١ .

حينئذ ، والدينار أقرب إلى الأوروبيين الذين قد لا يكونون عرفوا القهوة ، وإن كانوا عرفوها فلم تكن انتشرت إلى الحد الذي يجعلها قريبة إلى أذهانهم في موقف مثل هذا .

يبقى التساؤل الآتي : هل محمد علي طاح على الفكرة من نفسه ، أو أنه قد سمع بها فحورها لتتناسب مع هدفه ، وهل جاء الحافر على الحافر دون قصد ، أو بقصد واختيار وترتيب وتدبير . وما هاتان القصتان إلا مثل واحد لما يأتي على هذا المنوال من القصص التي توجب الحيرة ، وتدعو إلى التساؤل . وقد لا يكون إبراهيم باشا فعل ما فعل ، أو قال ما قال ، ولكن الذين أرادوا أن يظهروه بمظهر الذكي استعاروا له القصة مع التحوير الملائم . والله وحده أعلم .

الشعراء وميزان الذهب(*)

الشعر جانبٌ منير من جوانب الأدب، لا يرقى إلى الإجادة فيه إلا شخص أُعطِي الاستعداد الفطري، والصقل الملائم، وتوفرت فيه صفات تُمَيِّز شاعراً عن شاعر.

والشاعر ينبغ فيتلقفه الناس ويتقبلون شعره لما يجدونه فيه من جاذبية ونفع. ويتفاوت الشعراء قوة وضعفاً، ويدخل بينهم الدخيل فيُلصَق بهم رغماً عنهم وعن قرّائهم ومستمعيهم، ولكنّه في النّهاية يموت أو يبقى في الظل أو في أسفل درجات السّلّم.

وللشعراء نُقّاد بعضهم كالمِسَنّ يشحذ ولا يقطع، لو أردتهم أن يأتوا ببيت واحد فقد يعجزون، ولكنّهم قد يغوصون على المعاني البعيدة والصور المتخيلة، فيجلونها لمن ليس ضليعاً في هذا

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٧٠٣) في ١٤١٣/٨/٢٩هـ الموافق ١٩٩٣/٢/٢٠م.

الفن، وقد يستنبطون ما لم يخطر على بال الشاعر نفسه. وهذا يأتي غالباً بعد النقد والتمحيص، لأن الشاعر في حماسهِ لفكرة مرّت بذهنه فأعجبته ينسى ما قد يكون فيها من محاذير، فإذا ما تبلورت في بيت عنده أصبحت مثل ابنته يقبل كل ما قد يكون فيها من عيوب، ولا تسمح له نفسه أن يتخلّى عنها، حتى لو جاءته بالعناء.

وقد يكون النقد أصيلا دعا إليه نظر ثاقب، وملكة ناضجة، وقد يكون مفتعلا دعا إليه حسد وعدواة، ولكنّ الشعر سريع التأثر بالمدح والذمّ، وجلده رقيق، وبشرته ناعمة، يجرحه دبيب النّمل، ويخدشه مرور النسيم، ويصعب طمس ما قيل حتى لو جاء من باب التجني، ولا يمكن تجنّب تأثيره ويبقى نقده ندبة تعكّر صفوه، وتترك كلفا في أسيل خدّه.

هناك أقوال طريفة في هذا المجال، قالها أناس لهم معرفة بالشعر وإن لم يكونوا شعراء، وهم مثل

ناقـد عملة الـذهب والفضة ، يعرف الأصيل من المزيّف ، والوافي من الناقص ، ولكنّه لا يستطيع أن يصنع مثلها . يأتي هؤلاء النقاد بملاحظات مفاجئة يجدها السامع منطقية ومقبولة .

ويعـرف الشعراء مقدار أنفسهم ، ويعتمدون على دالتهم على الناس ، وأنه يسمح لهم بقول ما لا يسمـح به لغـيرهم ، ويـدخلون أحيـانا في حدود الغـرور والأنفـة المتناهية ، ولا يرضى كبارهم أن يُحصَروا في ركن ضيق أو زاويــة محدودة ، فإذا ما حدث هذا فإنهم يخرجون منها بأي وسيلة حتى لو رافق هذا الخروج عنف وقسوة ، ولا يهمهم حينئذ منطق ، ولا يراعون عادة أو تقليداً ، ولا يفكرون إلا في ردّ قول النّاقد سواء كانت الحجة مقبولة أو مرفـوضـة ، ويبقى ردّهم وخـروجهم من المـأزق حديث النّاس ، ولا تخلو روايته من نغمة إعجاب :

أنشد أبو العبّاس أحمد بن يحيى للفرزدق :

يا أيها المشتكي عُكلاً وماجرمت

إلى القبائل من قَتْل وإبْآسِ

إنّا كذلك إذا كانت هَمَرَّجة

نسبي ونقتل حتى يسلم الناس

قال : قلت : لِمَ قُلتَ : «من قتــل وإبـآس ؟» فقال : «ويحك ، فكيف أصنع وقد قلت : (حتى يسلم النــاس ؟)» قال : قلت : «فَبِمَ رفعتــه ؟» قال : «بما يسوؤك وينوؤك»[1] .

وعـلى هذا النسق تماما جاء ردّ الشاعر علي بن عبدالله بن وصيف الناشئ على الخالع عندما أنشد لنفسه ، يروي الخالع فيقول عن بيت ابن وصيف :

تجاه الشّظا جنُب الحمى فالمشرّف

حيال الرّبى فالشاهق المتشرف

فقـلت له : «بِم ارتـفعت هذه الأســماء وهي ظروف ؟» فقال : «بما يسوؤك»[2].

(١) مجالس ثعلب ١/ ٤١ .

(٢) معجم الأدباء ٣/ ٢٨٦ .

وهذا مخرج سهل ولكنه صعب القبول، ولكن الشاعر لا يهمّه قُبِل منطقه أم لم يقبل، ويحذر العقلاء الشعراء الشادين من مصادمة الشاعر الكبير، فإن ملاحاة أمثاله يُعدّ ارتطامَ زجاجٍ بصخرة، وسيكون مآله الإنكسار والتحطّم، ولا ينفع الزجاج فخره بصفائه وشفافيته وجماله ولمعانه وبريقه وفائدته للناس، فعند ارتطامه بالصخرة الحكم حينئذ لله ثم للصخرة، والمؤهل للغلب والانتصار هما القساوة والثقل لا الجمال والصفاء، وهذا ما حدث بين الفرزدق وشاعر ناشئ لا يزال في أول الطريق لم يقبل حكم الفرزدق العادل في شعره، ورأى جهلاً أنه نقصه حقه، واغتاظ من ذلك، وحاول أن يغيظ الفرزدق فجاءت التفاتة الفرزدق له محطمة:

قال يحيى بن عروة: لما قدم الفرزدق المدينة إلى مجلس أبي، فأنشده الأحوص شعراً، قال: «من أنت؟» قال: «الأحوص بن محمّد». قال: «ما أحسن شعرك!» قال: «أهكذا تقول لي؟ فوالله لأنا

أشعر منك» . قال : وكيف تكون أشعر مني وأنت تقول :

يقرّ بعيني ما يقرّ بعينها
وأفضل شيء ما به العين قرّت

فإنه يقر بعينها أن تُنكح ، أفيقر ذاك بعينك ؟ »[1] .

كان الأحوص في غِنًى عن هذه الاستفزاز ، وكان عليه أن يقبل التقدير الضافي الذي أسداه له الفرزدق ، والحكم الذي أصدره عن شعره ، وكان تقديراً مجزياً من أحد فحول الشعراء في ذلك الزمن ، أما وأن الأحوص لم يفعل فقد كانت التفاتة الفرزدق إليه عنيفة وملجمة ، وضربة صائبة ، واختياره متقناً ، ولا يفل الحديد إلا الحديد ، والشاعر يعرف الشاعر ، ويعرف مجارى سيول فكره ، ومرامي أهدافه ، ولهذا جاءت الغمزة قوية وعلى العرق الموجع .

---

(١) مجالس ثعلب ٤٣٤ .

وموازين الشعر الدقيقة يؤتاها غير الشعراء ممن وهبهم الله الملكة النقدية التي تعضدها ثقافة، وينميها ذوق سليم، وتجربة طويلة، وكما قلنا فقد يكون المِسَنّ عنصراً أساسيا لتتمكن السكين من القطع، فالنقد يعيد الشاعر المتعالي إلى مكانه، ويرده إلى جادة الصّواب إذا حاد عنها، ويوقظه من سبات الغفلة. وتبرز في هذا المجال ثقافة الخليفة المأمون وعلمه وسعة اطلاعه:

قال ابن أبي حفصة الشاعر لعمارة بن عقيل الشاعر: أعلمت أن أمير المؤمنين - يعني المأمون - لا يبصر الشعر. فقال عمارة: «من ذا يكون أفرس منه؟ والله إنا لننشد أول البيت فيسبق إلى آخره من غير أن يكون سمعه». قال: «إني أنشدته بيتاً أجدت فيه فلم أره تحرّك له، وهذا البيت فاسمعه:

أضحى إمام الهدى المأمون منشغلا
بالدّين، والنّاس بالدنيا مشاغيل

فقال عمارة: «مازدت أن جعلته عجوزاً في

محرابها ، في يدها سبحة ، فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولا عنها ، وهو المطوّق لها؟ ألا قلت كما قال عمك جرير لعبد العزيز بن الوليد :

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه
ولا غرض الدنيا عن الدين شاغله [1]

وهكذا نبّه النّاقد الشاعر السادر ، الذي أغفله تقديره لشعره ، إلى العيب الفاضح الذي وقع فيه دون أن يدري ، وراح يظن بالخليفة الظنون ، فكشف له الناقد الاستار التي غطت العيب عنه . وقد أعمت الشاعر ثقته بنفسه ، فلم يرجع إلى شعره عندما لم يجد القبول الذي كان يتوقعه ، ولا الحماس الذي أمّله ، فيتلمس السبب فيه ، ويبحث عن النقص في ثناياه ، أو الخلل في جوانبه .

ولشاعر آخر مع خليفة آخر موقف انتقاد تبين منه مدى ثقافة الخليفة ، وسعة اطلاعه ، مما بزّ به الشاعر ، وأظهره صغيراً :

---

(١) أخبار الظراف ١٠٢ .

قال السلامي الشاعر دخلت على عضد الدولة فمدحته، فأجزل عطيتي من الثياب والدنانير، وبين يديه جام، فرآني ألحظه فرمى به إليّ، وقال: «خذه». فقلت: «وكل خير عندنا من عنده» فقال عضد الدولة: «ذاك أبوك». فبقيت متحيّراً لا أدري ما أراد، فجئت استاذاً لي فشرحت له الحال، فقال: «ويحك، قد أخطأت خطيئة عظيمة، لأن هذه الكلمات لأبي نواس يصف كلبا حيث يقول:

أنعت كلبا أهله في كدّه
قد سعدت جدودهم بجدّه
وكل خير عندهم من عنده[1]

وبسبب غفلة الشاعر عما قد يأتي في شعره من عيب لا يدري عنه حتى يكشف له. وقع ابن أبي حفصة أمام معن بن زائدة، فقد جاءه مادحاً، فزلّ زلة واضحة فنبهه معن إلى خطئه فوراً، ولم يتخذ في ذلك بينه وبين الشاعر وسيطا، وأردف قوله له

(١) أخبار الظراف ١٠٤، حياة الحيوان الكبرى للدميري ٢/٢٨٦.

بالمقارنة لتقوى الحجة ضده، ويزيد وضوح الخلل :

وفد الحسين بن مطير الأسدي - مولي بني أسد ابن خزيمة - على الأمير معن بن زائدة الشيباني لما ولي اليمن، فلمّا دخل عليه أنشده :

أتيتك إذ لم يبق غيرك جابر
ولا واهب يعطي اللها والرغائبا

فقال له : يا أخا بني أسد ليس هذا بمدح، إنّما المدح قول نهار بن توسعة في مسمع بن مالك :

قَلَّدَتْه عرى الأمور نزار
قبل أن يهلك السراة البحور[1]

وكان سيف الدولة مقصد الشعراء، وبلاطه مأوى الأدباء، وكان أديباً يشجع الشعراء ويثيبهم، ومن بينهم ابن عمه أبو فراس الحمداني وأبو الطيب المتنبي. ولسيف الدولة موقف طريف مع شاعر من بين اثنين جاءا لمدحه :

---

(١) معجم الأدباء ١٠/١٦٧ .

قال أبو الحسن السلامي : مدح الخالديّان سعيد ومحمّد أبناء هاشم بن وعلة من بني عبدالقيس ، وهما شاعران أديبان ومن خواص سيف الدولة ، مدحاه بقصيدة أولها :

تصدّ ودارها صدد
وتوعده ولا تعد
وقد قتلته ظالمةٌ
فلا عقل ولا قود

قالوا فيها في مدحه :

فوجه كله قمر
وسائر جسمه أسد

فأعجب بها سيف الدولة ، واستحسن هذا البيت ، وجعل يردّده ، فدخل عليه الشيظمي الشاعر ، فقال له اسمع هذا البيت وأنشده ، فقال الشيظمي : «أحمد ربّك فقد جعلك من عجائب البحر»[1] .

---

(١) أخبار الظراف ١١٨ .

أن يهب الله الإنسان وجها جميلاً كالقمر فهذا ما يودّه كل إنسان ، وأن يهبه جسداً قوياً وقلبا شجاعا كالأسد فهذا أمنية كل إنسان ، وسيف الدولة الأمير المرابط على ثغر أكثر النّاس فرحة بتوفر هاتين الصفتين فيه . ولعله أدار هاتين الصفتين في ذهنه كل واحدة بمعزل عن الأخرى فعظمت فائدة كل واحدة منهما ، ولم يخطر في باله أن يضعهما في صورة مادية معا مما يأتي بمنظر مفجع .

ولكن الشاعر - وربما لم تخل نفسه من منافسة وقلبه من حسد - ركب فوراً من ذلك صورة بشعة مخيفة ، قضت على متعة سيف الدولة ، وأزالت إعجابه ، وفتحت له زاوية جديدة غير التي كان نظر منها إلى البيت ، ولعل الجائزة طارت من يد الشاعر عند هذا المنحنى .

أما الشاعر الذي قال البيت فقد اصطاد الفكرة لما عنّت له ، وأنساه بريقها وحماسه لها التثبت منها ، وما قد يكون عليها من مداخل ، وجاءه الخوف من

مأمنه ، والزلل من مواقع اطمئنانه ، وباغته السيل الجـارف من حيث لم يقـدر . وهكذا تأتي ختلات الزمان من خبايا الثقة وزوايا الاطمئنان .

وتـأتي في حادثة أخرى ملاحظة نقد هادئة من سيف الـدولـة ، وهـو صاحب البـاع الـطويل في الأدب ، وفي العلم بمقوماته ، وتأتي الملاحظة لائقة بمقامه ، وتقديره للشعراء ، وحرصه على عدم جرح كرامتهم ، وعلى عدم صده لهم بما يكدرهـم ، ولكنه لا يغمض العـين على القـذى ، ولا يسكت عن الخطأ ، فيجمع بلباقة بين التنبيه وعدم الجرح فيه :

قال الخالع : حدثني الناشئ قال : «لما وفدت على سيف الدولة . . أنشدته قصيدة أولها :

الدهر أيامه ماض ومرتقب

وقلت فيها :

فارحل إلى حلب فالخير مُنْحَلِبٌ

من نيل كفّك إن لاحت لنا حلب

فِقال : يا أبا الحسن، بيت جيد لكنّه كثير اللّبن»[1].

ويتنـاطـح رجـلان من رجـال الأدب في قول شاعـر، ويعـرضـان قولـه، كل من زاويته، على مقـاييسهـما النقدية، وهي صورة من صور اهتمام القوم في زمنهم، ويقفون عند هذا النوع من الأدب عندما يستوجب الأمر الالتفات، ورغم أن الشاعر يميل إلى الكبرياء، ويتظاهر أحيانا بعدم الاكتراث بالنقاد، إلا أنه في الحقيقة يرقب معاييرهم من طرف خفي، ظانًّا أنهم لا يعلمون أنه يحسب لهم حسابا، وهم يعلمـون أنـه لابد أن يعـطي، وهـو يقـول شعره، رأيهم اعتباراً، ولو لم يفعل لأبعد في الخطأ أكثر مما يفعله الآن نزولاً على حكم الضرورة رغم قوله :

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصموا

(١) معجم الأدباء ١٣/ ٢٨٩ .

ويتناطح النقاد أحياناً في نص والشاعر الذي قاله في منجًى من اللّوم، وتكون نظرة النقّاد الخاصة هي مصدر الاختلاف، فيأتي الاختلاف بعدة آراء تدل على تمعّن ودقة فحص :

قال أبو نصر الزجاج : كنت جالسا مع أبي الفرج الاصفهاني في دكان في سوق الورّاقين، وكان أبو الحسين علي بن يوسف بن البقال الشاعر جالساً عند أبي الفتح بن الحرّاز الورّاق، وهو ينشد أبيات إبراهيم بن العباس الصّولي التي يقول فيها :

رأى خلَّتي من حيث يخفى مكانها
فكانت قذى عينيه حتى تجلت

فلما بلغ إليه استحسنه وكرره، ورآه أبو الفرج فقال لي : قم إليه فقل له : قد أسرفت في استحسان هذا البيت، وهو كذلك، فأين موضع الصنعة فيه؟ فقلت له ذاك، فقال : قوله : «وكانت قذى عينيه»، فعدت إليه وعرّفته، فقال : عُدْ إليه فقل له : أخطأت، الصنعة في قوله : «من حيث يخفى مكانها».

قال ياقوت معلّقا :

أصاب كل واحد منهما حافة من الغرض ، فإن الموضعين معاً غايةُ الحسن ، وإن كان ما ذهب إليه أبو الفرج أحسن[1] .

لو عرف الشاعر ما دار عنه بين هؤلاء الأدباء الثلاثة لسرّه ذلك ، لأن الاختلاف بين هؤلاء النقاد ، خلافاً للامثلة السابقة ، لا يخدش شعره ، ولا يقلل قدره ، بل يرفعه .

ويطيب للأدباء أن يتعاركوا على شعر الشعراء ، وأن يتصارعوا حول مَوائد الشعر الشهية ، وهم بهذا يكشفون عن مقدرتهم ، ويعلنون عن تفوقهم على أقرانهم ، ويحاولون أن يظهروا مجادليهم بمظهر أقل منهم . ولأجل هذا فهم يبحثون عن المتشابه في الشعر ، فيدرسونه بأناة وتؤدة ، ثم يفاجئون بنتائج بحثهم الند بصورة أحجية أو لغز ، ويكون ذلك على حين غفلة ، ويأخذونهم به على غرة ، ليسجلوا

---

(١) معجم الأدباء ١٣/ ١١٢ .

عليهم ضعفا، ويكون ذلك عادة أمام شهود لهم قيمتهم وقدرهم، وليسجلوا لأنفسهم تفوقاً وامتيازاً، وتصبح الحرب بعد ذلك سجالا، يتصيد كل واحد منهم صاحبه فيها بين آونة وأخرى، ويعد العدّة ليوقعه فيما أعدّ له من أحبولة :

سأل اليزيدي الكسائي بحضرة الرشيد، قال : «انظر في هذا الشعر عيب؟» وأنشد :

ما رأينا خربا نقـ
قَر عنه البيض صقرُ
لا بكون العير مهراً
لا يكون المهر مهرُ

(الخرب : ذكر الحباري).

فتعجّل الكسائي الجواب وقال : «قد أقوى الشاعر». فقال له اليزيدي : «انظر فيه». فقال : «أقوى، لا بدّ ينصب (المهر) الثاني على أنه خبر». قال : فضرب اليزيدي بقلنسوته الأرض، وقال : أنا أبو محمد، الشعر صواب، وإنما ابتدأ فقال :

(المهر مهر)» .

فقال يحيى بن خالد الوزير : «أتكتني بحضرة أمير المؤمنين ، وتكشف رأسك ؟ والله لخطأ الكسائي مع أدبه أحبّ إلينا من صوابك مع سوء فعلك» . فقال : «لذة الغلبة أنستني من هذا ما أحسن»[1] .

هذه الجلسة فيها ما يستحق الوقفة في عدة نواحٍ منها ، فهي أولاً تذكِّر ببشكاتٍ لعب الورق عندما يفاجئ لاعب قبيله وينتصر عليه ، عند ذلك يضرب المنتصر بالورق الأرض ، ويهلل ويكاد يزغرد ، فالفرحة ومظهرها لا تعرف زمانا عن زمان ، ولا تفرق بين جلسة أدب وجلسة لعب ، ما دام هناك ترصد وانتصار .

وثانياً يدل ما ورد في هذه القصة على الترصد الذي أعدّ له اليزيدي عدّته ، وأكمن له الكمين ، ونصب له الشباك ، وهيأ المخابئ ، ليطبق على الفريسة في الوقت الذي اختاره .

---

(١) معجم الأدباء ١٣/ ١٧٨ .

وثالثاً لوحظ أن التحمس للهدف قد أنسى اليزيدي أمراً مهمّاً ما كان يجب أن يغفل عنه ، لقد كان في حضرة الخليفة ، والمقام لهذا يقتضيه أن يكون رزينا ثقيلا ، ليجني ثمرة انتصاره بطريقة تليق بمقام مجلس الخليفة ، وهذا ما دعا الوزير إلى ردّه إلى جادة الصواب ، فأيقظه بهذا من نوم ، وأعاده إلى عقله ، ونبهه من غفلته ، فأفاق وكأنه قد صُبّ عليه ذنوب من ماء .

وضاعت لذة النّصر من جراء هذه الغفلة ، ومن عدم فحصه للشباك الذي نصبه ، لقد فرّ طائر النصر ، وخليت يد الصائد بالحكم الذي أصدره الوزير ، وأكّد فيه أنه في هذا المجلس ليس العلم وأحابيله هي المهمة وإنّما الأدب وحسنه هو ما يليق بهذا المجلس الشريف .

وفي قصة أخرى ضاعت لذة نصر كانت مرتقبة عندما تحفزت مجموعة من الشعراء لتوقع شاعراً ، ففوجئت به يغلبها من حيث لم تحتسب ، وكان

النصر كاسحاً بشهادة المهزومين أنفسهم :

ورد في معجم البلدان في ترجمة محمد بن أحمد الهاشمي الملقب بأبي العبر :

قال أبو عبدالله الشعيري ، وكان شاعراً من أهل بغداد : «اجتمعتُ مع جماعة من الشعراء في مجلس نتناظر ونتناشد ونتساءل ، ونعدّ شعراء زماننا ، فمرّ بنا أبو العبر فقلنا : هذا أيضا يُعدّ نفسَه في الشعراء» ، فمال إلينا وقال : «والله أشعر منكم وأعلم» . فقلنا قد اختلفنا في بيت فاشتبه علينا ، فهل نسألك عنه ؟ «فقال : «نعم» ، فسألناه عن هذا البيت :

عافَتِ الماء في الشتاء فقلنا
بـرّديـه تصـادفيـه سـخينا

كيف تصادفه سخيناً إذا بردته ؟ فقال : «أخفي عليكم ؟» قلنا : «نعم» ، فقال : «هُوَ ليس من التبريد وإنما هو صرف مدغم ، ومعناه (بل رديه) من الورود ، فأدغموا اللام في الراء كما قال الله

تعالى : ﴿ بل ران على قلوبهم ﴾ ، وقوله : «راق» .

قال : فاستحسنا ما فسّره ، وأقررنا له بالفضل .

فقال : إني أسألكم بيتا كما سألتموني ، أما ترون إلى قول دغفل :

إن على سائلنا أن نسأله
والعبء لا تعرفه أو تحمله

فقلنا : «سل» . فقال : ما معنى قول القائل :

يا من رأى رجلا واقفاً
أحرقه الحرّ من البرد

كيف يحرقه الحرّ من البرد؟ قال : فاضطربنا في معناه ، فلم نخرّجه ، فسألناه عنه ، فقال : هذا قولي ، وذلك أنني مررت بحداد يبرّد حديداً فمسست تلك البرادة ، فأحرقت يدي ، وإنما البرد مصدر برد الحديد برداً ، وليس هو من الشيء البارد . فأقررنا بفضل معرفته[1] .

(١) معجم الأدباء ١٧/١٢٤ .

وبعض ما يقال في هذه القصص قد يكون متخيلا ولم يحدث، وإنما هي فكرة طريفة خطرت في بال أديب، فرصدها وأثبتها، وادعى، بسلسلة الرواة، أنها حقيقة، أو علقها على شخص له شهرته في هذا المجال، ولكن لا بد أن يبقى مدخل ضعف يمكن عن طريقه أن يدخل الشك، أو يتم التأكد من وضع القصة، ولكن تبقى فائدتها في أنها تمثل الفكر العربي في ذلك الزمن، وفي ذلك المجتمع، ففي القصة الآتية طرافة وفائدة، ولكن هناك مدخل يمكن أن يتبينه المتمعن، وقائل القصة لم يتنبه له، إلا إذا كان الخلل جاء من الرواة:

بينما كثير عزة كان مارّاً بالطريق يوماً إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي، فقال لها: «تنحي عن الطريق»، فقالت له: «ويحك ومن تكون؟» قال: «أنا كثير عزة». قالت: «قبحك الله، وهل مثلك يتنحى له الطريق؟» قال: «ولِمَ؟» قالت: «ألست القائل؟»:

وما روضة بالحسن طيبة الثرى
يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من أردان عزة موهنا
إذا أوقدت بالمجمر اللدن نارها

ويحك يا هذا ، لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ريحها ، لِمَ لا قلت مثل سيدك أمرئ القيس :

وكنت إذا ما جئت بالليل طارقا
وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

فقطعته ولم يحر جواباً[1] .

مدخل الضعف في قوله لامرأة عجوز عمياء تنحي ، وهو لا أمير ولا عامل خليفة ، وفوق هذا لم تراع القصة سنها وعجزها بالعمى ، والأحْرى بالمسلم المثقف مثل كثير عزة أن لا يكون خلقه متدنيا إلى هذه الدرجة . وجانب آخر من الضعف هو أن الشعر وخطأه فيه لا دخل له في تردي أدبه

---

(١) المستطرف ١/١٢٦ .

وخلقه في طلبه ما ليس من حقه، وبهذه الطريقة المنتقدة. وإذا كان في ذهن صاحب القصة أن الشعر هو دالته في شعوره بالتميز على المارة، فإنه ليس كل المارة يأخذون هذا بالاعتبار.

والذي يرجح بعد التأمل أن صاحب القصة لاحظ الخلل في بيت فأحب أن ينتقده بطريقة فنية ومبتكرة، فركب عليه القصة، فجاءت له بالمطلوب. والقصة تشهد أنه دقيق الملاحظة، واسع الاطلاع.

هذا منطق(*)

تعود الناس أن يقولوا إذا ما اقتنعوا بقول : «إنه منطق» ، أي أنه يحمل رأيا مسكتا له وزنه ، ولم يعد بعده قول ، فقد قطعت جهيزة فيه قول كل خطيب . ولو أتى أحد لينقضه للزمه لذلك جهد وعناء ومشقة ليزحزحه من مكانه ، وليجلس فيه غيره مما يحمل منطقا أقوى وأصوب .

وبعض الأقوال التي تتسم بالمنطق لا تأتي على النسق الذي تعارف عليه الناس ، وقد يكون المنطق فيها في غرابتها ، وفيما بنيت عليه من قواعد أدت إلى نتيجة تتفق مع القواعد والمقدمات ، فالرجل الذي ركب في القطار بدون تذاكر ، وألصق على ظهره طابعاً ، واعتبر نفسه طرداً ، معه منطق ، وعندما جاء مفتش القطار وطالبه بالتذكرة فأشار الراكب إلى طابع البريد الذي عَلَى ظهره ، ضربه المفتش

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٧١٠) في ١٤١٣/٩/٦هـ الموافق ١٩٩٣/٢/٢٧م .

بجمع يده على ظهره ضربة كاد ينخلع لها كتفه ، وقال له هذا ختم البريد . كل من الاثنين معه منطق : الراكب والمفتش ، هذا باعتباره لنفسه طرداً يكفى لانتقاله طابع بريد يلصق عليه ، وهذا بعلمه أن الطابع يحتاج إلى ختم البريد لينتقل إلى الجهة المرسل إليها . وكل طرد يتناسب ختمه معه .

على أي حال التي سوف نسوقها من التراث ، وما أكثر المنطق في التراث ، لن تكون من هذا النوع من طابع البريد وختمه ، ولكنها أمثلة تُري مسارب عقل الإنسان ، ومقدرته على اصطياد مرامي الاقناع ومواقعه ، وهي صور منيرة للتراث ، ولو تتبع القارئ مثل هذه المواقف ، وما جاء فيها من أقوال وأجوبة لوجد ما ينير فكره ، ويأخذ بلبه ، ويعطيه من المتعة ما لا يحتاج معه إلى مزيد . ويكاد كل خبر من هذه الأخبار وكل قول من هذه الأقوال أن يكون مؤهلاً أن يكتب عنه مقالة وحدهُ ، يبين فيها ما كمن خلفه من فكر وثقافة وظرف ، وما بلوره من فكر وعقل :

فهنـاك موقف بديع لأبي حنيفة مع سائل سأله مستفتيًا فيما ظن أن له جوابا دينيا، ولكن المستفتي النـابه لم يجد أن سؤال الرجل يحتاج إلى إجابة من الفقـه، كما توقـع السائل، وإنما وجد الاجابة مما يقتضيه العقل ويدخل في نطاق الدين مثل أي تحرز يدعو إلى عقل الناقة والاتكال على الله في حفظها :

«جاء رجل إلى أبي حنيفة فقال له : إذا نزعت ثيـابي، ودخلت اغتسل، فإلى القبلة أتوجه أم إلى غيرهـا؟ فقال له : الأفضل أن يكون وجهك إلى جهة ثيابك لئلا تسرق»[1].

في الاغتســال في النهـر ليس على الإنســان أن يستقبـل القبلة، ومرح أبي حنيفة المعروف عنه لم يدعـه يترك المســألة تمر دون أن يجيب عليها بهذه الاجابة المرحة المفيدة. ثم أليس في الاجابة منطق هو عين الصواب؟!

ويقــوم الجــدل عادة بين سقــراط وزوجتـه،

(١) المراح في المزاح ٣٤٣.

لتفاوت عقليتهما، هذا فيلسوف عميق، وهذه امرأة بسيطة، ولهذا يأتي رده عليها عند الجدل منطقيا :

لما قُدِّم سقـراط ليقتل بكت امرأته، فقال : ما يبكيك؟ قالت : تقتل ظلماً. قال : أوكنت تحبين أن أقتل حقا؟ ![1].

إن في هذا التساؤل منطقا بني على اللفظ بدقة قياسا بقياس، والزوجة المسكينة، في هذا الموقف الحزين، خانها اختيار الكلمة بدقة، وبدلا من أن تقـول إنها بكت لأنها ستفقـده، استثـارت كلمته المنطقية هذه.

ويبدأ شاعر بقوله :

عليك باقلال الزياره إنها
تكون إذا دامت إلى الهجر مسلكا

فيحس أن هنـاك اعـتراضا لدى السامع، وأن هذا مبني على ما في الزيارة من فضل وأجر، رغم ما

---

(١) المحاسن والمساوىء ٣٩٦، الكشكول ٢/ ٣٤٩.

هو معـروف في المثـل الـذي يقول : «زرغبا تزدد حبا» ، فيسارع الشاعر ليعضد قوله بمنطق قبل أن يتمكن الاعتراض من السامع فيقول :

فإني رأيت القطر يسأم دائماً
ويُسأل بالأيدي إذا هو أمسكا[1]

إنـه المنـطق الـذي لا يستطيع أحد أن ينكره ، فالدليل مادّي ملموس .

ويظن الناس أن «الشعبي» بعلمه وفقهه يعرف كثيراً من أمور الدين ، وإنه لا يعوزه الرد على أي استفتـاء أو استفســار في هذا المجـال ، ولكنهم يفـاجؤون بأن هنـاك ما لا يستـطيع الشعبي الرد عليه ، وإن الاقرار بهذا العجز لا يحرجه لأن عنده رداً منطقيا يحتمى خلفهُ ، ويتقي به الملامة ، وسنجد أن الرد منطقي حقا .

«سئـل الشعبي عن مسـألة فقال : لا أدري ، فقيــل ألا تستحي من قولــك هذا وأنت فقيــه

(١) الموشى ٤٦ .

العراقيين؟! فقال: إن الملائكة لم تستح إذ قالت: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾»[1].

أليس في هذا حجة دامغة، ومنطق صارخ بصوت عالٍ مدوٍّ.

ويتعدى الولاة حدودهم أحيانا في معاملتهم للرعيّة، فيشكو الناس إلى الخليفة، وقد يسمع لهم فيعزل الوالي، أو يعدل معاملته لهم، أو لا يستجيب ويبقي الوالي، ولا بد أنه كان هناك آلاف المرات التي شكا الناس ولاتهم إلى الخلفاء، وتنوعت النتائج في هذا، إلا أن حالة واحدة بقيت مضيئة في الزمن بين الحالات لما فيها من منطق:

تظلم أهل الكوفة إلى المأمون في والٍ كان عليهم. فقال المأمون: لا أعلم في عمّالي أعدل وأقوم منه، فقام رجل فقال: إن كان عاملنا بهذا الوصف فحق أن تعدل بولايته، فتجعل لكل بلد منه نصيبا، لتسوي بالعدل بينهم، فإذا فعل أمير

(١) محاضرات الأدباء ٢١.

المؤمنين ذلك يصيبنا منه أكثر من ثلاث سنين . فضحك وعزله[1] .

أرأيت كيف أن هذه الاضاءة المنطقية المؤدبة ، قد آتت أكلها ، وحصل أصحاب المتكلم على ما أرادوا بسبب عطف الله عليهم ثم بريق ذهن صاحبهم بهذه الفكرة الصائبة .

ويغفل المرء أحياناً عن المنطق وهو قريب منه ، فيذكره به من لا يتوقع لذهنه أن يبرق بالمنطق فيمطر الصدق :

لما جعل ابن الزيات في التنور قال له خادمه : ياسيدي قد صرت إلى ما صرت وليس لك حامد ، قال : وما نفع البرامكة صنيعهم؟ قال : ذكرك الساعة ، فقال : صدقت[2] .

غابت الحكمة والمنطق عن السيد وحضرَتْ للخادم، وغفل عنها الوزير وتنبه لها تابعه ،

---

(١) محاضرات الأدباء ٧٩ ، الكشكول ٢/٣٥٣ .

(٢) محاضرات الأدباء ١٥١ .

فسبحان من يؤتي الحكمة من يشاء من عباده .

وقد يظن أحد المفكرين أنه عثر على منطق وحكمة وقول صدق فيبوح به لمن هو مثله ، ويظن أنه كسب عند صاحبه بهذا منزلة ، فيفاجأ هذا بمنطق غامر يعلو ما ظنه موجا كاسحًا ، فيفاجأ هذا بما لم يكن له بالحسبان :

«كان إبراهيم النخعي في طريقه ، فلقيه الاعمش ، فانصرف معه ، فقال له : يا إبراهيم ، إن الناس إذا رأونا قالوا : أعمش وأعور . قال : وما عليك أن يأثموا ونؤجر ، قال : وما عليك أن يسلموا ونسلم»[1] .

منطق يقابل منطقا ، ومنطق ينطح منطقا حتى يدمي رأسه ، ويكسر منه قرنه ، والأعمش غلب لأنه أراد الخير له ولغيره ، وكف الأذى عن نفسه وعن غيره ، أما إبراهيم فأراد أن يأخذ ما في كفة ميزان أجر الناس ليضيفها إلى كفة حسناته ، وأن

---

(١) العقد الفريد ٢ /٢٣٧ .

يخفف من وعـاء آثـامه بصبها في وعاء الآخرين ، عقاباً لهم وتأديباً ، وشتان بين النيتين ، وفرق بين النظرتين .

وكـما حدث في قصـة ابن الزيات مع خادمه ، وكيف وجـدت الحكمـة المضيئة ، والقول الحق ، والمنطق الصائب مع الخادم وجد كل هذا أيضا مع امـرأة عجـوز ، اجتمـع عليهـا من يعتـبرون من أصحــاب الـرأي والفكـر والسلطة والتجـارب ، وغلب منطقها منطقهم ، لأن الله كان معها ، ومن كان الله معه فلا يخاف ظلما ولا هضما ، ولا يخاف بخسا ولا رهقا ، والقصة تروى هكذا :

«بنى بعض أكابر البصرة داراً ، وكان في جواره بيت لعجوز يساوي عشرين ديناراً ، وكان محتاجاً إليه في توسيع الدار ، فبذل لها فيه مئتي دينار ، فلم تبعـه ، فقيل لها إن القاضي يحجر عليك بسفهك حيث ضيعت مئتي دينار لما يساوي عشرين ديناراً . قالت : لم لا يحجر عَلَى من يشتري بمئتين ما يساوي عشرين ديناراً ؟

فأفحمت القاضي ومن معه جميعاً، وترك البيت في يدها حتى ماتت»[1].

لقد ربط الله على قلبها بالطمأنينة، فلم تفقد ملكة العقل الناضج، وقوة الذهن الصافي، وقد اهتدت إلى هذا المنطق الواضح الوضيء، وقد عميت أبصار الآخرين أن يروا من هو السفيه الذي يجب أن يحجر عليه، إذا كان ولابد من الحجر. لقد كانت هذه المسكينة أولى أن تذهل عن هذا في محنتها أمام هؤلاء الاشخاص المهمين، وضغطهم وإغرائهم.

والذي يتكلم وهو يظن أنه متسلح بسلاح قوي يغلب الآخرين عادة بمنطقه، ويكون ألسن بحجته إلا إذا جادله من هو أفقه منه، أو من وفقه الله إلى نص يرفد دعواه، أو يرد بها دعوى الآخر ردّاً كاملا. وفي القول الآتي منطق، وحجة سامقت حجة، والاثنان غرفا من معين واحد، ولكن الأول غرف مقدار غرفة، والثاني ملأ إناءه، وغلب:

---

(١) الكشكول ١/٢٨٢.

«قال رجل لصاحب منزل : أصلح خشب هذا السقف ، فإنه يقرقع . قال : لا تخف فإنه يسبح ، قال : أخاف أن تدركه رقة قلب فيسجد»[1] .

لقد ظن مالك البيت أنه قد وضع حجة قوية أمام الساكن الذي خاف على حياته من سقوط السقف ، ومن تطريقه ، علامة احتمال الانهيار ، ولكن الساكن الذكي ، سريع البديهة جاهز المنطق ، فاجأه بما لم يخطر على باله ، وكان له من مخزونه مخزون مماثل . وعلى هذا فالمنطق يحتم إصلاح السقف .

والمهلب بن أبي صفرة أحد ولاة الدولة المرموقين ، ولهذا لا يستغرب أن يقول قولاً يظهر فيه المنطق ، وفي قوله الآتي ما يبين ذلك :

قيل للمهلب : مالك لا تبني في البصرة داراً ؟ فقال : أنا لا أدخلها إلا أميراً أو أسيراً ، فإن كنت أسيراً فالسجن داري ، وإن كنت أميراً فدار الأمارة

(١) الكشكول ١ / ٣٧٥ .

داري[1] .

وتسيطر العاطفة العمياء أحيانا على إنسان فتبعده عن الصواب ، وعن جادة العقل ، ويأتي بأمور غريبة عن مجتمعه وعن غير مجتمعه ، ويمعن في مزاولة ما تقتضيه هذه العاطفة من فعل حتى يصبح الأمر في نظره ونظر من حوله طبعيا ، حتى يأتي من يوقظ الجميع من رقدة الامعان في الخطل ، وتحطم طريقته المنطقية على صخرتها جسم العاطفة الهش . ويأتي هذا ممن لم يتوقع أن يأتي منه هذا البصر والنباهة ، ولكن حرقة الالم أحيانا تنضج الفكر وتسدده :

خرج بعض ملوك الفرس يتصيد ، فرأى في طريقه أعور ، فأمر بضربه وحبسه تشاؤماً برؤيته ، واتفق أنه صاد صيداً كثيراً ، فلما عاد أمر باطلاق الأعور ، فقال : أيأذن لي الملك في الكلام؟ قال : تكلم . قال : لقيتني فضربتني وحبستني ، ولقيتك

---

(1) الكشكول ٢/ ٣٥١ .

فاصطدت ورجعت سالماً ، فأينا أشأم على صاحبه ؟

فضحك الملك وأمر له بجائزة[1] .

وتلهم التقوى الإنسان المنطق ، وتدله على القول الفصل ، فينطق بما يكون حجة قوية ، يفاجأ بها من تصدى لصاحبها بما ظنه حقًّا ، وقد يكون حقا ، إلا إن الحجة قد تقابلها حجة ، ويكون هناك منطق ومنطق ، وحجة مقبولة أمام حجة أخرى مقبولة :

قيل للاحنف في شهر رمضان : إنك شيخ كبير ، وإن الصوم يهدك ، فقال : إن الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذاب الله[2] .

وينطق حكيم بالمنطق الصائب فيقول :

لا تشرب السم اعتماداً على ما عندك من الترياق[3] .

---

(١) الكشكول ٢ / ٣٦٩ .

(٢) الكشكول ٢ / ٢٠٤ .

(٣) الكشكول ٢ / ٢٤١ .

ولا يسعك إلا أن تقول لهذا القائل : صدقت ، لأنك عند التدبر والتفكير تجد أن الحذر يجب أن يسيطر ويسود ، فقد لا تمكِّن المرءَ قوةُ السم من تناول الترياق وشربه وقيامه بما امِّل منه . وقد يكون الترياق مغشوشاً أو فاسداً ، أو ليس لهذا النوع من السم . وهو قول يصدق على كثير من جوانب الحياة ، وأبرز أمر ينطبق عليه هو الذي يستدين أملا أن يسدد عندما يحصد زرعه ، أو يبيع بضاعته ، أو تنتج غنمه ، أو تلد أبقاره أو جماله ، أو يبيع أرضه ، أو يؤجر بيته وهكذا .

وقد يأتي المنطق من وحي الثقافة والعلم والفقه ، فيأتي أحيانا مفاجئا ومدهشا كما حدث في جدل قام بين سليمان بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز ، وكان لسليمان رأي وجيه ، ولكن منطق عمر كان مفاجئا :

لما أراد سليمان بن عبدالملك أن يستكتب كاتب الحجاج يزيد بن مسلم قال له عمر بن عبدالعزيز :

أسـألـك يا أمـير المؤمنين أن لا تحيي ذكر الحجاج باستكتـابك إياه، فقال : يا أبا حفص إني لم أجد عنده خيانة دينار ولا درهـم . قال عمر : أنا أوجدك من هو أعف منه في الدينار والدرهم . قال : ومن هو؟ قال : إبليس ، وقد أهلك هذا الخلق[1] .

ولعمر بن عبدالعزيز منطق مسكت آخر ، ولكنه في هذه المرة في جانب الحجاج ولحمايته نوعاً ما ، بل وللحماية منه حتى لا يأخذ أجر الناس باثمهم ، وهو منطق قوي :

«قال رجل : كنت جالسا عند عمر بن عبدالعزيز ، فذكر الحجاج ، فسببته ، ووقعت فيه ، فقال عمر : إنّ الـرجل ليَظْلِم بالمظلمة فلا يزال المظلوم يشتم الـظالم ويسبـه حتى يستوفى حقه ، ويكون للظالم فضل عليه»[2] .

هذه أمثلة لبعض أقوال وأفعال لا تكاد تعد أو

---

(١) سراج الملوك ٢٢٣ .

(٢) سراج الملوك ٤٤٦ .

تحصى مبثوثة في التراث ، تنير صفحته ، وتشهد لمن قالها بالفضل ، والعقل الرزين ، إذا سمعها المرء لا بد أن يسلم بأنها منطق سليم ، وحكمة بالغة ، وجاءت غطاء محكماً لإناء من القول محكم . وللعربي وللمسلم أن يجد فيها حجة في أن آباءه برقت في أذهانهم أفكار فريدة هي إنتاج عقل ناضج متدبر .

وقد حاولت أن أجعلها منوعة حتى تعطي فكرة للجوانب المختلفة التي طرقوها ، وتكون رمزاً يهتدي به المستفيد ، ويتابعه المستزيد .

صبر الرجال وجلدهم(*)

جرى الحديث عن صبر الرجال وجلدهم، وأخذ الحديث مناحي مختلفة، وتشعبت الأقوال فيه، وجاءت بكل مدهش وغريب وطريف، وأبان بعضها عن صبر متناهٍ، وعزم فريد، وجلد عجيب، وأدلى كل واحد من الجالسين بدلوه، وأتَى بقصة أو حادثة رآها بعينه، أو سمعها ممن يثق به، ومن جملة ما ذكروه ما يروى في المجالس، وعلى أفواه الناس، عن شجاعة بعض آباء أبناء جيلنا ممن خاضوا الحروب، وعانوا من ويلاتها، واكتووا بنارها، وقاسوا آلامها. ولم يمر الحديث دون ذكر شجاعة الملك عبدالعزيز وصبره وجلده، وما يروي عنه مرافقوه أو معاصروه من أنّ حِزام الرصاص الذي كان يتحزم به في وقعة كنزان، قرب الاحساء، ثار ومزق جلد بطنه مما أظهر أمعاءه،

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٧١٧) في ١٣/٩/١٤١٣هـ الموافق ٦/٣/١٩٩٣م.

وقد صدها - رحمه الله - في مكانها بيده ، وربطها حتى عاد من المعـركـة . وزيادة في إظهار الجلد ، وتضليل العدو أملك على عروس في تلك الليلة ، ودخل بها ، وأبعد بهذا إشاعة أنه أصيب ومات .

وقد روى الدكتور رشاد فرعون - رحمه الله - في حلقة تليفزيونية في إحدى المناسبات بعض ما لمسه من صبر الملك عبدالعـزيز - رحمه الله - وجلده ، فقص قصتين هو شاهد عيان فيهما :

الأولى أن الملك عبد العزيز وهو يلعب بالرمح ، في العرضة ، مع بعض محبيه وأتباعه ، انغرس الرمح في مشط رجله ، واخـترق القدم ، ونفذ من أسفل القـدم ، فاجتمع عليه من حوله ، وهالهم المنظر ، وتـرددوا في انتـزاع الـرمـح ، فلم تدم حيرتهم أو ألمهم ، ولم ينتظر - رحمه الله - رأي الطبيب ، فانتزع الرمح فجأة بيده من قدمه بقوة وجسارة وشجاعة ، أمام دهشة المشاهدين من الحاضرين .

والحادثة الثانية أن الطبيب وهو يكشف عليه في

أحـد الأيام لاحظ نتوءاً تحت الجلد في موضع من جسم الملك عبـدالعـزيـز - رحمـه الله - وقـد تبين للدكتور رشاد - رحمه الله - بعد المعاينه والفحص أن هنـاك رصاصة قديمة تحت الجلد، قد بنى عليها اللحم، لم يتنبـه لها الملك عبدالعزيز - رحمه الله - واستحسن الطبيب إخراجها، لأنها جسم غريب، وأخذ يستعد لتخدير الموضع، فانتقد الملك فكرة التخدير، وأخذ المشرط من يد الطبيب بعد أن علم هدفه وما سوف يقوم به، و «بذح» الجلد، وقال للدكتـور الآن تستطيع إخراجها بالضغط عليها، وتم ذلك، وقفزت الرصاصة خارجة بدون «بنج» كما دخلت بدونـه. ولم يبد من الملك عبدالعزيز - رحمه الله - أي تألم.

وعندما تدور أحاديث مثل هذه يتعجب المرء من بعض الناس في زماننا هذا كيف يترددون عن قبول ضرب إبـرة الـدواء، على بسـاطتها، وتفاهة الألم الذي يأتي منها، أو يتردد من غزة التعطيم على قلة ألمها وعظم فائدتها. ويتذكر المرء هنا أن الله «خلق

وفرق» والشجاعة ليست وقفا على زمن ، ففي زماننا نجد أناسا يقابلون الشدائد بصبر وجلد ، لا يقل عن جلد السابقين ، أو ما يروى عنهم ، أو ما دون من أخبارهم .

ويجد المرء ، عندما تدور الأحاديث الضافية عن أمر من الأمور التي تصف مظهراً من مظاهر الحياة ، أنه يُشد إلى الماضي ، وما دون عنه ، وما أمتَلأت به كتب التاريخ والأدب من حوادث تكاد تتكرر مع مرور الزمن ، وتعود بصور مماثلة تماماً ، أو مقاربة ، ويكاد لا يختلف فيها إلا الأسماء أو الأماكن .

من القصص التي وردت في كتب التراث ، وتشير إلى ما تميز به صاحب القصة من صبر وجلد ، مع شجاعة متناهية ، قصة رواها معاذ بن الجموح ، وذكرها صاحب المحاسن والمساوئ قال :

سمعت الناس يوم بدر يقولون : أبو الحكم لا يُخَلَصَنْ إليه ، يريدون أبا جهل ، فلما سمعتها جعلته من شأني ، فصمدت نحوه ، فلما أمكنني

حملت عليـه ، فضربته ضربة أطْنَنْتُ قدمه بنصف ساقه ، فوالله ما شبهتها ، حين طاحت ، إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى .

قال : وضربني عكرمة بن أبي جهل على عاتقي فطرح يدي ، فتعلّقَتْ بجلدة من جنبي ، فأجهضني القتـال عنـه ، فلقـد قاتلت عامـة يومي ، وإني لاسحبها خلفي ، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها حتى طرحتها[1] .

وعنـدمـا يحزب الأمـر تظهر الشجاعة التي قد تكـون مخبـأة ، وتبـدو حينئذ عندما تظهر شجاعة خارقـة ، ومن القصص التي تظهـر القـوة والصبر وشـدة التحمـل ونسيـان الألم ، والمجيء بأغـرب الأفعال الخارقة للعادة القصة الآتية :

قدم أعـرابي على عمر بن الخطاب - رضي الله عنـه - يستحمله ، فقـال : «خُذ بعـيراً من إبـل الصدقة» ، فنظر إلى بعير منها فتعلق بذنبه ، ونازعه

---

(١) المحاسن والمساوىء ٤٨٢ .

البعير، فاقتلع ذنبه. فقال عمر: «هل رأيتَ أشدَّ منك؟» قال: «نعم»، خرجت بامرأة من أهلي أريد بها زوجها، فنزلت منزلا أهله خلوف، فدنوت من الحوض، فإذا رجل قد أقبل ومعه ذود له، فصرف ذوده إلى الحوض، وأقبل نحو المرأة، ولا أدري ما يريد، فلما قرب منها ساورها، فنادتني، فلما انتهيت إليه كان قد خالطها، فجئت أدفعه، فأخذ رأسي فوضعه بين ذراعه وجنبه، فما استطعت أن أتحرك حتى قضى ما أراد، ثم قام فاضطجع. وقالت: «نعم الفحل هذا لو كانت لنا منه سخلة».

فأمهلت حتى امتلأ نوماً ثم قمت إليه، فضربت ساقه بالسيف فأطننتها، فوثب فهربت، وغلبه الدم، فرماني بساقه فأخطأني وأصاب بعيري فقتله.

فقال عمر: فما فعلت المرأة؟ فقال: هذا حديث الرجل، فكرر عليه مراراً، كل هذا وهو يقول: هذا حديث الرجل[1].

(١) المحاسن والمساوىء ٤٨٢.

وهنـاك قصة ثالثة تمثل الرِّجل وقطعها والصبر والجلد وقلة الاكتراث . وهي ما حدث لحكيم بن جبلة العبدي عندما شدّ عليه رجل في الحرب فقطع رجله ، فزحف إلى رجله حتى أخـذهـا ورمى بها قاطعها فقتله وقال مرتجزاً :

يارجل لا تراعي فإن معي ذراعي

ثم حبـا إلى المقتـول فاتكـأ عليـه ، فقيل له : ياحكيم من ضربك ؟ فقال : وسادتي[1] .

والحديث في هذا المجال لا ينتهي ، وما هذه إلا نماذج تدل على غيرها ، وتنوب عنها في إعطاء صورة لجلد الرجال وصبرهم وقوتهم .

---

(١) المحاسن والمساوىء ٤٨١ .

قــول وتعـليل(*)

القول يرمى على عواهنه قد لا يلقى القبول الذي يريـده قائله ، ولكنـه إذا اسنـد بالتعليل ، وعضد بالسبب وجـد الـطريق ممهـداً إلى ذهن المستمع ، ولعـل هذا يعود إلى قوة تأثير التعليل في الاقناع ، لظهور الحجة وبروزها أولا ، ويعود ثانيا إلى عزة النفس عند الإنسان ، فهو لا يرتاح إلى صيغة الأمر أو الفــرض أو النهي ، حتى يضــطر ظاهـراً إلى المجاملة حياء ، أو إلى الخنوع خوفاً ، أو الاستسلام لمكسب ، أو أمام طغيان جبروت أو سيطرة ، وهو يحب أن يكون شريكاً في الرأي ، وله حرية القبول أو الرفض .

والتعليل ، وإعطاء الدليل ، وشرح الأسباب ، وإظهـار ما قد يكـون خلف الكلمات هو الطريق الممهد للولوج إلى العقل والقلب ، وهو الذي يدل

(*) نشرت في صحيفــة عكــاظ بالعـدد (٩٧٢٤) في ١٤١٣/٩/٢٠هـ الموافق ١٩٩٣/٣/١٣م .

على عناية المتكلم بالامر المراد تعليله وتبريره ، وأنه قد أجيل في الذهن وأنضج ، وأخذ حقه من التفكير ، ومن تقليب الأمر على جميع جوانبه . وفي حياة الناس اليومية ، وما يمر بهم فيها ، وما يؤكد هذا ، وفي التراث من الأقوال الطريفة ، والأقوال المبهجة ، ما هو ممتع ، مغذ للفكر ، وموسع للثقافة ، ومنبه للذهن ، ويدل على تميز أوجب عندهم تسطيره ، فمثلا :

كان ابن المقفع من الكتاب المبرزين ، ومن الأدباء المشهود لهم بالفضل في مجال التأليف الرزين ، ومثله في ذلك الزمان ، يتوقع ألا يعسره فن من فنون الأدب ، ولكنه لم يعرف له شعر ، فكان هذا مجالَ تساؤل من بعض معاصريه ، ومحلَّ تعجب منهم ، ولهذا سألوه عن هذا النقص المعيب في نظرهم ، فرد عليهم معللا مقنعا ، وبعبارة بليغة رصينة ، لم يسلك فيها طريق الشرح المباشر الساذج ، ولكنه اختار صورة من صور البيان فامتطى سنامها ، وهي أقوى في هذا المجال :

قال ابن المقفع لما سئل لِمَ لا تقول الشعر مع علمك به؟ قال: «أنا كالمِسنّ أشحذ ولا أقطع»[1].

بيّن ابن المقنع عمق صلته بالشعر، وأوضح أنه لا يستغنى عنه، ولكنه شرح هذا بأن بيّن أن له دوراً فيه غير قوله، فله تذوقه، وله تفهمه، وله نقده، وإظهار دخائله، وكشف الجيد منه والرديء. إنها إفادة على قصرها وافية، جاء بها تعليل ذكي.

وهناك قول آخر جاء ومعه التعليل:

سئل أحد الحكماء من العرب متى عقلت؟ قال ساعة ولدت. فأنكر عليه السامعون هذا القول، فالرضيع في نظرهم، وما تعارفوا عليه، لا يعقل. فقال الحكيم معللا، ومبينا ما بنى عليه حكمه:

«أما أنا فقد بكيت حين خفت، وطلبت الأكل حين جعت، وطلبت الشدي حين احتجت، وسكت حين أعطيت».

(١) المصون في الأدب ٦.

يقـول : «هذه مقـاديـر حاجـاتي ، ومن عرف مقـاديـر حاجـاته ، إذا منعها ، وإذا أعطيها ، فلا حاجة به في ذلك إلى أكثر من ذلك العقل» ، ولذلك قال الأعرابي :

سقى الله أرضا يعلم الضّبّ أنها
بعيد من الآفات طيبة البقل
بَنَى بيته منها على رأس كدية
وكل امرئ في حرفة العيش ذو عقل(١)

لقد أثار هذا الاعرابي دهشة سامعيه بما قرره من قول غريب عن الضب وعقله ، ولكنه علل قوله بما يزيـل الاستغـراب ، ويقضي على الـدهشة ، فجاء بقـول صادق المعنى ، رصـين العبـارة ، مرتب الفكرة ، فكسب نتيجة الموقف .

وصفاء ذهن الأعراب ، الذي طالما تحدثنا عنه ، وطالما أشدنا به ، لم يدع هذا الأعرابي يكتفي بما ساق من حجـة جاء بها واستقـاهـا من عقله وتجـربتـه

---

(١) الحيـوان ٧/٥٦ .

وملاحظته ، لأنه خشي ألا تكون مجزية ومقنعة لمستمعيه ، فأردفها بنص رصين ، قوي في مدلوله ومعناه ، معتبر في أسلوبه ومبناه ، مغرق في القوة ، وهو الشعر ، وقد خرج عن مجال الإنسان إلى مجال الحيوان ، وسواء علم أو لم يعلم ، فإنه قد وقع على موضوع جدل كبير بين المفكرين ، وهو هل الحيوان يتصرف عن غريزة ، أو أن له عقلا يهديه ، أو هما معاً . وهذا الأعرابي الذي لم ينكر الغريزة أثبت أن للضب عقلا يهديه إلى اختيار بيته في مرتفع من الأرض ، وبجوار مبقلة يقتات منها ما يصلح لغذائه ، فهو اختار النفع باختيار الأرض التي تنبت البقل ، وحرص على تجنب الضرر باختيار البيت على مرتفع حتى لا تؤذيه السيول ، وما الحياة إلا الحرص على جلب المنفعة ، والبعد عن المضرّة .

ومن لا يحلو له أن يعيش مع الأعراب في أقوالهم الأصيلة ، ويصحبهم في نزهاتهم الفكرية ، وإبداعهم الذهني ، لما به من صفاء الحقيقة ، ونقاء السريرة ، وعفو الطرح ، والبعد عن التكلف ، ولما

يجده المتتبع من أنهم يغرفون من نبع معين لا ينضب ، وهو قريب من متناولهم ، ولا عجب فاللغة لغتهم ، واللغة والفكر متلازمان ، يأخذان مرتبة واحدة ، ومرتقىً واحداً .

والمثل الآتي يدخل في موضوعنا هذا ، ففيه قول تلاه تعليل مقبول :

قيل لأعرابي أتحسن أن تأكل الرأس؟ قال : نعم . قيل : وكيف تصنع به؟ قال : «أبخص عينيه ، وأسحا خديه ، وأعفص أذنيه ، وأرمي بالمخ إلى من هو أحوج مني إليه» .

قيل له : إنك لأحمق من رُبَع . قال : «وما حمق الرّبع ؟ والله إنه ليتجنب العدواء ، ويتبع أمه في المرعى ، ويراوح بين الأطْباء ، ويعلم أن حنينها رغاء ، فأين حمقه ؟»[1] .

ومن يقرأ هذا النص يشعر أن السائل إنما أراد أن يتندر على الأعرابي ، كما هي عادة أهل الحضر تجاه

(١) الحيوان ٧/٢٢ .

أبنـاء البـاديـة ، فاختار موضوعا يقبل السخرية ، ولكنه وقع على باقعة ، فالأعرابي عندما سئل هذا السؤال الغريب لم يثر ولم يغضب ولم يرفض الردّ ، وإنما جاء به مضيئًا هادئًا واقعاً بديعاً ، وغرف محتوى قولــه من عقــل رزين ، وفكـر ثاقب ، وابتكـار مدهش ، ولمـا فوجئ السـائـل بالرد المتقن خرج الحضري من جلده المستعار ، وتبين على حقيقته ، فهاجم الأعرابي بوصف غير لائق ، واتهمه بالغباء ، ولم يكتف بذلــك بل حدد غبـاء الأعـرابي بغبـاء الفصيـل الذي نتج في الربيع ، وهو أول النتاج ، واختار الفصيل لصغر سنه ، وتوقع أتصافه لذلك بالغباء ، لأنه يتبع أمه دون فهم أو إرادة ، أو معرفة لما يجري في محيـطه ، وهذا إمعان من الحضري في احتقار البدوي وإهانة .

ولكن البدوي ردّ ردّاً مفاجئاً ، لأن الفصيل من بيئتـه وأحـرى به أن يعـرف عنـه خيراً مما يعـرف الحضري ، وأثبت أن الحضري جاهـل جهلا تاما بالفصيل . وفي رده نرى أنه لم يفلت خيط المنطق

الـذي كان بيـده عندما بدأ الاجابة أول مرّة ، إذ استمر في الطريق نفسه ، والمنهج عينه ، وبيّن بأناةٍ جهل ساكن المدينة وغباءه في أن يعلم أن للرُّبَع ذكاء وأي ذكاء ، ودلل على ذكائه وعقله بالفطرة التي فطره الله عليها ، وبما يأتي به من أفعال ألهمه الله إياها ، وأقـدره عليهـا ، رغم حداثة مولده ، ورقة بنيته ، وعجمة أمه ، فهو يتجنب الضرر والأذى وهذا عقل وفهم وذكـاء ، ولا يجعل أمه تغيب عن ناظره لأن غذاءه منها ، واحتماءهُ بها ، وهذا عقل وفهم وذكاء ، وهـو يرضـع أثداءها مراوحةً ، لئلا يُنهك بعضها ويُحـيّن بعضها مما يعود على الضرع بالأذى ، وهذا عقـل وفهم وذكـاء ، وهـو يفـرق بين أصوات أمه المختلفة ، فهذا صوت مناداة ، وهذا صوت تحذير ، وهـذا صوت حثّ ، وهـذا صوت غضب ، وهذا عقل وفهم وذكاء .

ألم يُجد الأعرابيّ في ردّه هذا كل الإجادة ، وألم يجد التعلَيل ، ويتقنه كل الاتقان ؟

ونــترك الأعـرابي منتصراً، ونـدلف إلى مجلس الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، ونتعرف على أمر يشغل باله، فيكشف ما يجول في ذهنه، ويأتي بتعليل يضعه بين يدي جلسائه :

يقـول أبـو الحسن المـدائني : لما شد عبدالملك أسنانه بالذهب قال : «لولا المنابر والنساء ما باليت متى سقطت»[1].

في هذا القول تعليل صادق، برّر به عبدالملك شدّ أسنـانـه المخلخلة بالـذهب، وحصر الحـاجة الملحـة في ذلـك في أمـرين : الأمـر الأول صعود المنـابـر، وإلقـاء الخطب مما يقتضي النطق السليم المؤثر في المستمعين، فالأسنان السليمة أداة مهمة لهذا الأمـر الخـطير. والأمـر الثاني خاص بالنساء فتخلخل الأسنان في عينهن عيب غير قليل التأثير، ولهذا فهو يريد أن يستره عن نسائه، أو يخفف وقعه بانشغـالهن عن العيب ببريق الـذهب، ومعروف

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٦٠.

تأثير الذهب على المرأة . فهو لا يريد أن تزهد فيه نساؤه لانهن يعتبرن أن تخلخل الأسنان نذير بسقوطها ، وسقوطها نذير بدء الشيب ، وبدء الشيب ضعف . لهذا لجأ إلى شد أسنانه بالذهب وسدّ ما قد يكون هناك من ثغرات .

ونتنقل من خليفة إلى خليفة ، ومن أمر شخصي إلى أمر يخص الدولة ، والخليفة هنا خليفة له لفتات ذكية وبارعة في إدارة الدولة ، ووضع الأسس لتقويتها ، وقد ترك في هذا تراثا مجيداً دل على أنه إداري حازم ، ومخطط بارع ، هذا الخليفة هو عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - ، وقد اتخذ خطوة تجاه أحد العاملين فأوجبت هذه الخطوة لغرابتها تساؤل هذا الكاتب العامل تحت أحد ولاته ، فأعطى عمر تعليلا يتناسب مع عظمته وفكره :

««عزل عمر زياداً عن كتابة أبي موسى الاشعري في بعض قَدَمَاته ، فقال له زياد : أعن عجز أم عن خيانة ؟ قال : لا عن واحدة منها ،

ولكني أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك»[1] .

إن عزل كاتب مهم مثل زياد أمر لا يأتي إلا بسبب وجيه ، لهذا حرص زياد أن يعرف ما أوجب عزله ، ليحمي سمعته ، ويبرئ نفسه إن كان هناك تهمة قد ألصقت به ، فكان مدخله إلى هذا ما يوجب العزل عادة ، وهما العجز عن القيام بالعمل ، أو التراخي فيه ، أو خيانة الأمانة ، أو التساهل فيها . ولم يتردد زياد في أن يسأل الخليفة سؤالا مباشراً ، فطمأنه عمر - رضي الله عنه - أنه لم يأخذ عليه خطيئة ، ولم ير منه نقيصه ، والأمر خلاف ذلك تماما ، وهو أن فيه من الكفاية فوق ما يحتاجه الناس من كاتب ، وأنه يكفيهم من هو أقل منه كفاية وفضلا ، وعليه فزياد أولى أن يكون في مركز يتناسب مع حدة فكره ، وقوة ذهنه . ومَن غير عمر يمكن أن يفكر في مثل هذا بهذه الدقة في الملاحظة ، والجرأة ، والمبادرة في اتخاذ الخطوة

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٦٠ .

الـواجب اتخـاذها . إنه لم يظلم زياداً المسلم ، ولم يبخسـه حقـه ، وإنما الناس مرضى ويحتاجون إلى دواء أقل تركيزاً ، وجملة عمر حملت مدحاً مغلفاً .

هذه جملة من الأقـوال المعضدة بتعليل مقنع ، تدل على حرص في الانصـاف في القول ، واعطاء الاعتبار الكافي للمخاطب بدرجات تتفاوت ، وقد سجلهـا الأدبـاء في كتبهم ، وتنـاقلوها تقديراً لها وإعجاباً بها ، وليس هناك ما هو أجمل من تكريم الفكرة التي توحي باعطاء المخاطب التقدير الذهني بدلا من إعـطاء الحقـائق بطريقة الإملاء أو الأمر دون أن يراعَى في هذا جانب القبول الطوعي من المخـاطب أيّـاً كان موقفه حتى لو كان مستفزاً أو متحدياً أو متهجماً ، والأدب العربي مليء بمثل هذه الصور من القول وسنده من التعليل ، وهو منحًى فكري سليم ، وإذا ساد هذا المنحى دلّ على خطو متقـدم في ميدان الحضارة ، ووجد المرء متعة وهو يتابع ورود هذه الأمور وأمثالها ، ويعتز بمفكري

تلك الأزمـان الـذين حرصـوا على أن يدونوا مثل ذلك ، فلنا بهم الفخر والاعتزاز ، ولهم منا الدعاء والتبجيل .

من فروع الشجاعة(*)

من قال إن الشجاعة هي البطولة في ميدان القتال فقد ظلم الشجاعة ظلماً قاسياً، فما الشجاعة في ميدان القتال إلا فرع واحد من فروع الشجاعة، وهناك فروع أخرى قد لا يدري بعض الناس أنها من أهم فروع الشجاعة، وآثارها لها من الخطورة ما قد يفوق آثار الشجاعة في ميدان القتال، وإذا فكر الإنسان في إقدام المرء على عرض فكره على الناس فهو شجاع، وخلاف الشجاعة أن يتردد خوفاً من النقد والتجريح لما كتبه، ومهما كان رأي الإنسان صائباً، وعبارته صادقة، وتركيبها صحيحاً، وأسلوبه قوياً، وعرضه بليغاً، فإنه لابدّ أن يكون بين الناس من لا يرى ذلك فيما كتب، وقد يجهر بذلك بخشونة وعنف، وهذا ما يخشاه غير الشجاع، . من يحسب لكلمة الشاذ

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٧٣١) في ٢٧/٩/١٤١٣هـ الموافق ٢٠/٣/١٩٩٣م.

حسابها، وينسى رأي المؤيدين الصامتين على كثرتهم، وتبقى كلمة الناقد وتحليله هي التي تتراقص أمام عينيه، وتسكن روحهُ في يقظته ونومه، وتؤدي إلى تجهم الأمر في ذهنه، فيحجم بعد إقدام، ويئد الافكار خوفاً وذعراً، فهذا أبعد ما يكون عن الشجاعة.

وهناك من هو خلاف ذلك من يملأ نفسه بالثقة بما يدور في ذهنه، ويقدر أن هناك غيره ممن يقف معه معضداً له، ولا يبقى في ذهنه إلا هؤلاء الانصار، والمؤيدين، ومن هم على شاكلته في الرأي، ومنهجه في المنحى، فهو يكتب وهو يعلم أنهم له معضدون، ولفكرته أنصار. هؤلاء الكتاب غير المترددين يتركون آثاراً حميدة في مجتمعهم، وللمجتمعات القادمة، ويبقى إنتاجهم، وتعرف أفكارهم، وتجهل أفكار الذين جبنوا عن إظهار ما لديهم، خوف النقد والمهاجمة، ويكاد يكون وراء كل أثر من آثار الثقافة التي انحدرت إلينا، وأصبحنا نتمتع بما في جناتها الغناء من أفكار

ناضجة ، رجل شجاع سَلَّ قلمه ، وكتب في الحقول المختلفة التي تكونت لنا عبر العصور والأزمان ، وما قد يكون وُجِّه للسابقين من نقد أصبح هو نفسه يقرأ بشوق وتلهف ، ولعله كان الجمرة التي أظهرت رائحة الند الزكيّة .

والسابقون من مفكرين لم يجهلوا أثر لذعة النقد ، فقد أدى بهم فكرهم وتجربتهم إلى معرفته ، والاكتواء بناره ، ولكنهم تحملوها ، وخاضوا غمار حربها غير هيّابينْ ولا وجلين ، وقد دونوا نظرتهم إلى هذا حثا منهم لغيرهم ، وتشجيعاً لهم على مقابلة الصعاب والتغلب عليها :

أورد الجاحظ في كتاب الحيوان ما يأتي :

«وينبغي لمن كتب كتابا ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ له ، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلا ، ولا يرضى بالرأي الفطير ، فإن لابتداء الكتاب فتنة وعجبا ، فإذا سكنت الطبيعة ، وهدأت

الحركة، وتراجعت الاخلاط، وعادت النفس وافرة أعـاد النـظر فيـه، فيتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب»[1].

وإذا كان الجاحظ يرى أن الناس كلهم أعداء لمن كتب كتابا، فإنَّ على المرء أن يغمض عينيه، ويسير غير آبه بهم، إلا أن عليه في الوقت نفسه أن يعـد للأعداء أسلحة قاطعة يتسلح بها، وحصونا منيعة يتحصن داخلها، وينبه الجاحظ إلى خطورة الابتـداء، ومـا يصـاحبها من بريق يوجب الفتنة والغفلة عن الزلّات بسبب العجب، وينبه أيضا إلى أن الكاتب عندما يكتب لأول مرة فإن مزاجه يكون فيـه حدة واندفاع، وعليه حينئذ أن يترك ما كتب حتى تهدأ حركـة اندفاعه في فكرته، ويراجع بعد مدة ما كتب، ليتبين له الخلل، وليكون التصنيف والتبويب والتقسيم أكثر اكتمالا، وفي هذه المرحلة

---

(١) الحيـوان ١/٨٨.

يكون إنتاجه أنضج ، ويسعى للسلامة من السهام بتوقيها بالحيطة والتصحيح ، وقبل ذلك واكثر منه البعد عن العيب مما قد يسمه بها يركسه .

هذا جانب واحــد من جوانب الشجاعـة في الفكر ، والفكر مداه واسع ، وأفقه رحب ، ومداه عميق ، ولا حدود لما يأتي منـه شجاعة أو غيرها . ومن أنواع شجاعة الفكر ما يقدم عليه خطيب في موقف مهم ، وليس له إلا عيناه تنظران إلى مئات الأعين ، ولكن الذهن من حسن حَظه يصبح بعيداً عمن أمــامـه ، يطارد الأفكـار ، وينتقي المعاني ، ويسبح في عالم غير العالم الحاضر ، ليصوغ ما يقبله في عبارات مؤثرة ، يساعده على كل ذلك شجاعة القول ، والاستطراد فيه . ومع هذا فالخوف والرهبة قد يطلان برأسهـا على بعض الخـطبـاء ، ويعبسا بوجهيهـا ، ويفعلان ذلك في بعض الخطب دون بعض ، وقد اشتهر قول عبدالملك بن مروان :

«أشاب بنا طلوع المنابر ، وتوقع اللحن» .

رداً على من لاحظ بزوغ شمس الشيب بوجهه قبل الأوان .

ولأن الأمر يشغل ذهن عبدالملك ، ويأخذ حيّزاً واسعاً من تفكيره تراه يعيد القول في كِبَرِهَمّ خطبة الجمعة ويكرره فيقول عندما قيل له :

«عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين !» قال : كيف لا يعجل عليّ وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرّة أو مرتين . (يعني بذلك خطبة الجمعة)[1] .

ولعل رهبة الخطبة عند عبد الملك لا تقتصر على الكلمات والجمل وصياغتها ووزنها ، والحذر من اللحن فيها ، وإنما يدخل ضمن ذلك المعاني ، لأنها تعالج أمور الحكم ، ويتوقف تأثيرها عليها ، وعلى الاهتمام بها ، وإليك أنموذج من خطب عبدالملك :

قال عبد الملك على المنبر :

«ألا تنصفوننا يا معشر الرعية ! تريدون منّا سِيرة

(١) البيان والتبيين ١/ ١٣٥ .

أبي بكر وعمر ، ولم تسيروا في أنفسكم ولا فينا بسيرة رعية أبي بكر وعمر . أسأل الله أن يعين كُلًّا على كُلٍّ»[1] .

هذه الكلمات المختصرة ، وهذه المعاني الجامعة ، لا تأتي إلا بعد تفكير وتدبر ، ولقد رسم فيها عبدالملك سياسة ، وبيّن أنه بناها على دراسة نتج عنها منطق ، وحجة بالغة ، وأبان عما يعانيه من رعيته بسبب عدم ملاحظتهم ما حدث على المجتمع من تغير لمسهم هم مثل غيرهم . ولهذا جاءت صرخته قوية ، وحجته مقنعة .

وأمر الخطب وقصرها أو طولها مبني على أسس تعورف عليها ، ولهذا يحسب الخطباء حسابا يتماشى مع هذه الأصول ، وقبولها أو رفضها يعتمد على مراعاتها أو الجهل بها ، أو تجاهلها . من هنا يأتي الهمّ منها ، والناس يقظون ومتنبهون ، ولعل بعضهم يتسقط الزلات ، وإذا كان الخطيب واحداً ،

(١) سراج الملوك ٣٤٨ ، محاضرات الأدباء ٦٧ .

واجتهاده واحداً، ورأيه واحداً، فهناك جمهور كبير، وجمع غفير، لهم اجتهاد متعدد الجوانب، ورأي متباين الأهداف والمقاصد، ونعطي مثلا هنا لرأي أبداه أحد المستمعين لخطيب له مقامه، وله اعتباره، وقد راعى في خطبته أصلا ثابتا موثقا من أصول الخطب جهله المنتقدون مما جعلهم في موقف ضعف، وجعل الخطيب في موقع قوة :

قال أبو الحسن المدائني : «تكلم عمار بن ياسر يوما فأوجز فقيل له : لو زدتنا، فقال : أمرنا رسول الله ﷺ بإطالة الصلاة، وقصر الخطب»[1].

وتتوالى العبارات والأقوال عن همّ الخطبة، وما يحمله الخطيب في نفسه لها من هيبة، سواء كانت خطبة جمعة أو غيرها، وأنواع الخطب كثيرة، والمواقف التي تقتضيها متعددة. ويقول الكميت بن زيد، وهو خطيب معروف :

«إن للخطبة صعداء، وهي على ذي اللبّ

(١) البيان والتبيين ١/٢٧٨.

أرمى»[1] .

و «صعداء» هذه لا تجعل بين الخطبة وحشرجة الموت انقطاع نسب ، واللبيب العارف بنتائج الخطبة هي عليه أشد من الجاهل بذلك ، لأن من يجهل التأثير في راحة نفسية ، نتيجة الغفلة عن سوء ما يتلفظ به .

ويقول عبيد الله بن زياد ، وهو خطيب مصقع : نعم الشيء الأمارة ، لولا قعقعة البُرُد (البريد وخيله) ، والتشزّن للخطب (أي التأهب لها)[1] .

لقد قرن عبيد الله الخطبة وهمها بهم البريد وتوقع الأخبار السيئة التي يحملها البريد من نواحي الأمارة البعيدة ، وجعل الأمارة نعمة ، ينغصها أمران : البريد والخطبة ، فكأنهما سبعان ينهشان لذة الأمارة .

وإذا كان لخطبة الجمعة همّ لأن فيها رسم للسياسة في بعض الأحيان فيبدو أنّ هناك ما هو

---

(١) البيان والتبيين ١ / ١٣٤ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١٣٤ .

أعـظم همًّا من خطبـة الجمعة، لأنّ خطبة الجمعة القول فيها واسع الميدان، تجول فيه خيول اللسان يمنـة ويسرة، لا يحدّهـا حدّ، ولا تقف أغـراض الوعظ فيها والإرشاد عند نهاية، والخطبة ذات الهم الأكـبر عنـد بعض المتكلمـين هي خطبة النكاح، لضيق مجال القول فيها، مما يوجب ترداد المعاني، وتنويع الألفاظ والعبارات، وهذا يجعل الأمر صعبا على ملقي الخطبة، لضيق مجال القول، مما قد يؤدي إلى الحصر والتلكؤ، وربـما يرتجّ على الخطيب في هذا الموقف الدقيق.

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - :

«ما يتصعدني كلام كما تتصعدني خطبة النكاح»[1].

وعمـر من هو في الفصـاحـة، وسداد الرأي، وسعـة الفكـر. وهكذا يثبت إن للشجاعة ميادين رحبة غير ميادين القتال.

---

(١) البيان والتبيين ١/ ١٣٤.

أنفس مضيئة(*)

أعطى الله بعض الناس أنفسا مضيئة ، سطعت فيها أنوار المحبة والرضى ، فهي تنظر إلى الأمور نظرة خيّرة متسامحة ، تصبغ كل شيء يقع نظرها عليه بالبياض ، ولا تعرف للظلمة طريقاً إلى داخلها ، فيرى بعض الناس أمراً خاطئاً يستحق عليه مرتكبه المؤاخذة والعقاب ، وتراه هي بغير هذا المنظار ، تراه طبعيا يستوجب تلمس العذر ، وغض البصر ، والبعد عن الملامة والعقاب ، ويرى بعض الناس عملا جاء عن سوء نية وترصد ، ويجب أن يقابل بما يستحقه صاحبه من الاستنكار والمقاومة ، ويراه بعض من أعطاهم الله نوراً في الصدر عملاً وقع فيه صاحبه بحسن نية ، أو مدفوعاً ، أو مغرراً به ، ويستحق صاحبه أن يعزّى ، وأن يرثى له ، وهكذا يقف الفريقان في صفّين متخالفين ، هذا في

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٧٤٠) في ١٢/١٠/١٤١٣هـ الموافق ٣/٤/١٩٩٣م .

جانب مظلم ، وهذا في جانب ساطع منير :

قالت امرأة يحيى بن طلحة له :

«أما ترى أصحابك إذا أيسرت لزموك ، وإذا أعسرت تركوك . فقال : هذا من كرمهم يأتوننا في حال القوة منا على الإحسان إليهم ، ويتركوننا في حال الضعف عنهم»[1] .

لقد سطعت الإضاءة في صدر يحيى فرأى في ضوئها ما لم تره امرأته ، وبدلاً من أن يلومهم ، وأن يعتبر أنهم إخوان فقط في وقت الرخاء ، ولايعرفونه وقت الشدة والحاجة ، اعتبرهم أصحاب فضل عليه ، وأوّل غيابهم على أنه رحمة منهم به ، لمعرفتهم أنه لا يتحمل مجيئهم في حالته الحاضرة .

وليست إضاءة النفس بعيدة عن المهلب بن أبي صفرة عندما أراد مُجالِس له أن يشحذ له سلاحا يقابل به شاتمهُ ، إلا أنه برّد حرارة حماس صاحبه بكلمات مضيئة ، كشفت عن نفس يسطع فيها نور

(١) محاضرات الأدباء ٢٤٦ ، الكشكول ٢ /٣٤٧ .

لا يتوافر إلا لقليلين ممن عرفوا قيمة الحياة بجوانبها المختلفة ، فاختاروا ما يملأ مردوده صدورهم بالسعادة ، ويبعد عنهم ما يقع فيه كثيرون من الذين لم ينضج العقل والاحساس عندهم :

«شتم رجل المهلب فلم يجبه ، فقيل له : حلمت عنه ؟ فقال : لم أعرف مساويَه ، فكرهت أن أبهته بما ليس فيه»[1] .

إن المهلب رجل مشتوم، ومع هذا فلم تأخذه العزة بالإثم فيرد على الشتيمة بمثلها ، بل تلمس الطريق إلى الخير، فوجده في عدم مقابلة الإساءة بمثلها ، وإنما بمقابلتها بالإحسان والتسامح ، ووجد عذراً يقنع به نفسه ، ويرضيها حتى لا تثور ، فتقع في الإثم ، والإنزلاق ، مع شدة الغضب في مزلق بهت الرجل فيما قد لا يكون فيه ، وقد أفلح المهلب فيما سعى إليه .

ويسطع النور في أحلك الأوقات في صدر من

---

(١) المحاسن والمساوىء ٣٨٠ .

وفقِـه الله ، فلا يفتـأ ينير المحيط من حوله ، ويعم الآخـرين بفيضـه ، ويؤثر في أنفسهم ، فتلحقهم العدوى الخيرة ، وتنير صدورهم ، ويشاركونه هذه النعمة الفضلى :

«قدم رجل من الخوارج إلى عبدالملك ليقتله ، فدخـل على عبـدالملك ابن له صغـير وهـو يبكي لضرب معلمه له ، فقال الخارجي : دعوه يبكي فهو أفتح لحزمه ، وأنفع لبصره . فقال له عبدالملك : ما شغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ فقال : ينبغي للمرء أن لا يشغله عن الخير شيء ، فعفا عنه»[1] .

لقد وضع هذا الرجل الخير نبراساً مضيئاً يسير في هديه ، ويتساوى الناس عنده في ضوئه ، فلم يشغله النـطع والسيف المعـدان لقتله من حاكم يعـده خطراً ، ولقـد عزل هذا الرجل نفسه عن المحيط الذي هو فيه بجسمه ، وهيأ لها محيطاً خيِّراً ارتضاه ، ولم يخنه هذا المحيط ، ولم تخذله هذه النيّة الحسنة .

---

(١) محاضرات الأدباء ٢٨٩ .

ولقد أضاء نور العقل والحكمة والتسامح صدر الشعبي وهو يسمع شتم رجل آخر له ، فلم يرد الشعبي على قوله :

«إن كنتَ صادقاً فغفر الله لي ، وإن كنتَ كاذباً فغفر الله لك»[1] .

إن الشعبي لم يكتف بأن يقول : «سامحك الله» ، ولكنه استسلم لعلمه ، وغلبت عليه ثقافته ، فسبك ما دار في ذهنه من معنى ، وصاغه في عبارة نبيلة ، وهل هناك أكثر نبلاً وشرفاً من الدعاء إلى الله . إن الشعبي حلل الهجوم تحليلاً علمياً ، وأعطى لكل قسم من جانبي الهجوم الحكم العادل الذي يستحقه ، فخرج مبروراً إن شاء الله .

ومن إضاءة النفس ما نسب إلى سليمان الداراني ، إذ روي عنه أنه قال :

«إني لألقم اللقمة أخاً من إخواني فأجد طعمها في فمي»[1] .

---

(١) العقد الفريد ٢/٢٧٦ .

(١) الكشكول ٢/٢٢٠ .

نسي هذا الـرجـل نفسه أمام فرحة الآخرين، واستقى سعادته من سعادتهم، فأتته مضاعفة من هذا الـطريق، ولا شك أن أمثال هذا الرجل من الناس قلائل.

والتسامح مع من يستحق ذلك وهو أهل له نور يشع في النفوس الكريمة، فيضيء جوانبها، وهو لمن أبداه طبع، ولكن من لم يعتده يفاجأ به، ولهذا يُروى ما يأتي منه في هذا المجال ويُشاد به، وتسير به الـركبـان، ويـدون في الكتب ويقتبس ويعـاد ويكرر، ويكون له طعم يتجدد مع الزمن.

«قالت امرأة مالك بن دينار له في أثناء مجادلته: يامرائي. فقال لها: لبيك! هذا إسم ما عرفني به أحد منذ أربعين سنة إلا أنت»[1].

تُرى هل يمكن أن يحوم طير الطلاق على رأس هذين الـزوجـين وفي صدر أحدهما نور التسامح هذا؟! إن الجـواب يُعطـى للكلمـة القاسـية بهذه

(١) الكشكول ٢/ ٣٤٠.

الصيغـة ، وفي هذا الإطـار ، وبهذه الروح ، يأتي كذنوب من ماء بارد صب بغزارة على نار أريد لها أن تلتهب ، فتلتهم سعـادة بيت ، ولكنّـه أخمـدها فرمّد جزل حطبها . ومالك – رحمه الله – قطع على إبليس طريق الفتنـة المؤدية إلى القطيعة والفرقة ، ولا بد أنـه أبكـاه بدلا من أن يضحكـه ، وأبـدل ابتسامته تقطيباً ، وقد تدارك الله – سبحانه وتعالى – مالكـا بلطفـه ورحمته وهداه إلى القول الصائب ، والمنطق الحسن ، ووضعه في مقر المؤمن المحتسب ، فأضفى عليه من السكينة ما جعله يخرج من مصيدة إبليس ناجحا فالحا .

ويسطع النور كذلك في صدر أويس القرني ، فيسـاعـده على رؤيـة فضيلة التسامح والتغاضي ، والنظر إلى أبناء الآخرين نظرة أبوة حانية ، فيتحمل الأذى لهدف سام نبيل ، وفي ذهنه أمر نبيل آخر ، وهو الإبقاء على مقدرته على أداء الصلاة بطمأنينة وراحة ، وعلى المحافظة على مواعيدها :

كان أويس القــرني إذا رآه الصبيـان يرمـونـه بالحجـــارة وهــو يقــول : «إن كان لا بد فارمـوني بالحجارة الصغار كي لا تدموا ساقي فتمنعوني عن الصلاة»[1] .

ويعرف عن الأطفال عادة تنحرهم لمن يعتقدون في مظهره أو تصرّفه ما يخرج عن مألوفهم . ويعرف أيضا أن معجمهم في صفات الناس ضيق ، وتحت كلمة مجنون يُدخل هؤلاء الصغار أناساً كثيرين ، ولعلهم رأوا في أويس من الاستقامة ما لم يعتادوه ، فأدخلوه في خانـة المجـانين في معجمهم ، وأخذوا يُتبعون هذه الصفة ما يلزمها في نظرهم من الأذى ، ورمي صاحبها بالحجارة ، وشتّان بين نظرتهم إليه ، ونـظرتـه إليهم ! إن قلبه كان معلقاً بالصلاة ، ولم يتذكر في هذا الموقف المجحف إلا هي . إن هناك نوراً يمسح جنبات صدره ، ويا له من نور !

ويسطع نور بهيج خيّر في صدر أحد النسّاك في

(١) سراج الملوك ٤٣٠ .

وقت لو أن غيره تعرض لمثل موقفه لأظلمت نفسه، وتسبب في إظلام حياة الآخرين، ولكنّ الله منّ على هذا الرجل بما يتمناه كثيرون ممن سُلبوا نعمة التغاضي والتسامح، وهما أمران لا يقدر عليهما إلا ذو العزم من الرجال:

«كان لبعض النّسّاك شاة، فرآها على ثلاث قوائم، فقال: من فعل هذا بها؟ فقال غلامه: أنا، قال: لم؟ قال: لأغمك بها، قال: لأغمنّ من أمرك بها، أذهب فأنت حرّ»[1].

هنا يشع النور، هنا يسمو المرء، هنا يهيمن الخير، وتعلو النفوس، وتصفو الصدور، ولا يبق إلا ضوء في كل مكان من منحنيات النفس ودروبها. لم يقف الناسك عند العفو، ونسيان ما حدث، ولكنه تعداه إلى ما هو أبعد، لقد ذهب إلى آخر نقطة فيها رآه فضيلة، فعفا وأحسن وجاد. ولعل نسكه لم يبق له قبل ذلك إلا شاته يقيت نفسه

---

(١) سراج الملوك ٤٣٣.

بحليبها ، وغلامه الذي يساعده في أمور الحياة ومكابدتها . لم يكتف كما وعد بأن يغم إبليس الذي سوّل للغلام الأذى ، بل أجهز عليه ، وعلى خطته ، إجهاز القوي المؤمن .

والنور الذي يسطع داخل النفس فيضيء جوانبها نور شامل وقوي ، ولهذا فصاحبه لا ينتظر حتى يحدث الخلل فيتسامح عنه ، ولكنه أحيانا يعمد إلى ما يماثل المِسَنّ يشحذ به همته تجاه الإحسان والتغاضي والتسامح ، وكأنه يخشى أن تكون الملكات الطيبة تضعف ، والصفات الحسنة تبهت ، وهو لا يريد لها ذلك ، وإنما يريد لها أن تبقى نشطة قوية تؤدي دورها على الوجه الذي يراه أكمل ، وأوفى لرضاه :

«كان ليحيى بن زيد الحارثي ، وهو شاعر من أهل الكوفة أديب ، غلامُ سوءٍ ، فقيل له : لِمَ تمسك هذا الغلام؟ فقال : لأتعلم عليه الحلم»[1] .

---

(١) سراج الملوك ٤٣٤ .

هذا مع أن يحيى معـــروف ببعض النـواقص، ومنتقد في بعض جوانب الحياة، ولكن لعل الله أن يغفر ما يؤخذ عليه ما دام يطلب شيئاً من مكارم الأخلاق.

وتأخذ الأضواء النفسية زوايا مختلفة، فتشع منها على حياة المرء، ولا يرضى بها وحده، ولكنه يسمح لها بأن تشع على حياة الآخرين، مما يجعلهم يقرون له بالفضل، ويأخذونه قدوة في سيرهم في الحياة، وهـو امرٌ إذ شع ضياؤه في مجتمع، وأصبح طابعه وديدنه عاد عليه بالسعادة الحقة:

قال العتبي:

«أخـبرني رجل من أهل منبج قال: قدم علينا الحكم بن حنـطب، وهـو مملق فأغنانا، قال له: كيف أغنـــاكم وهـــو مملق؟ قال: علمنـا مكـارم الأخلاق، فعاد غنينا على فقيرنا»[1].

إن الحكم بن حنطب لم يأمر بأمرٍ خيرٍ ويخالفه،

---

(١) العقد الفريد ١/٣٠٢.

ولم ينه عن أمر سوء ويفعله ، وإنما جعل من نفسه قدوة حسنـــة ، فآمن القـوم بقـولـه لما رأوا فعله ، وقلدوه ، واحتـــذوا حذوه ، ولم يكن عنـده مال ، ولكن كان عنده خطة خير ، قوامها أن يلتفت الغني للفقير في ضوء ما حث الله عليه ، ولا بد أنه أقنعهم بما جعلهم ينسون الدنيا طلباً للآخرة ، وأن يكسب غنيهم سعـادة مقابل ما ينفقه في هذه الدنيا ، وأن يتسبب في إسعاد مجتمعه ، والآخرة في النهاية خير وأبقى .

إن منبج قد سعدت بكاملها لأن المجتمع فيْها قد توازن ، والمصلح إذا صفت نيّته ، وأتقن ما يدعو إليه ، وبذل نفسه ، وعرف مجتمعه جيداً ، وجعل من نفسه قدوة ، سبقه النجاح ، وانتشر ما يدعو إليه وقُبِـل ، والناس يدركون ما فيه نفعهم مع الوقت والتـدبـير ، والبضـاعـة الرابحة كل يطلبها ، وإذا راجت بضاعة فلأن الناس قد عرفوا قيمتها وحاجتهم إليهـا ، وسعـوا حينئذ في احتيازها ، وتسابقوا إلى

ذلك ، وزاد اتساع دائرتها ، وهذا ما حدث في منبج .

ولهذا حث الإسلام على عطف الغني على الفقير ، وأعطى ثواباً مجزياً للمتصدق ، لأن هذا يجعل بين الفئتين الفقيرة والغنية جوًّا عامراً من المودة والمحبة ، ويـزيل ما قد يرسب في النفوس من حقد وحسد يكـون سبباً في قصور المجتمع عن بلوغ السعادة التي يتمنـاها كل واحد . والإسلام رفع من شأن الصـدقـة ، وجعل إعطاءها للمحتاج قرضاً حسنا لله - سبحـانـه وتعـالى - يوفيـه صاحبـه أضعـافـا مضـاعفـة ، ﴿ومن أوفى بعهـده من الله﴾ . وقـد أوجب الله الزكاة لأنها أقل الأسباب في إيجاد التكافل المـالي في المجتمع ، وترك للناس الصدقة يتبارون فيها ويتسابقون ، كل بمقدار ما تسمح به نفسه ، وهي فرصـة للمـرء ليعـرف نفسـه على حقيقتها ، ويضعهـا في المكان الذي يرتضيه لها في المجتمع . ولذة العطاء لا تجد لدى الذين وهبهم الله ضياء في صدورهم .

وفي قصة أخرى من التراث يسطع النور ليس فقط في صدر أبي حنيفة ولكن في ذهنه وفكره أيضاً، وأبو حنيفة الإمام أقرب إلى أن يكون من الذين صدورهم وعقولهم مسرحاً للنور الفياض، لأن ما استوعبته هذه الصدور والعقول من قرآن وحديث وفقه قد هيأها لأن يكون ما يخرج منها من عواطف وأفكار مضيئة للناس طريقهم في الحياة:

«جاء رجل إلى أبي حنيفة وقال: يا إمام: دفنت مالا من مدة طويلة، ونسيت الموضع الذي دفنته فيه، فقال الامام: ليس في هذا فقه فأحتال لك، ولكن اذهب فصل الليلة إلى الغداه، فإنك ستذكره إن شاء الله تعالى: ففعل، فلم يمض إلا أقل من ربع الليل حتى ذكر الموضع الذي وضعه فيه، فجاء إلى أبي حنيفة فأخبره، فقال: قد علمت أن الشيطان لا يدعك تصلي الليل كله، فهلا أتممت ليلتك كلها شكراً لله تعالى؟»[1].

(١) ثمرات الأوراق ١٧٢.

وهكذا مرة ثالثة نرى أن إبليس قد هزم، ودحرت خططه، بسبب هذه الأنوار الساطعة التي وفق الله من أنارت صدره، فاستطاع أن يعرف طريق النجاة والفلاح. وأبو حنيفة خير من يعرف سد الطرق التي ينفذ منها إبليس وحيله، وهذه إحدى الوسائل التي نجح فيها أبو حنيفة - رحمه الله - بل لقد ضحك على إبليس في هذه القصة بدلاً من أن يضحك الخبيث من أحد عباد الله - سبحانه وتعالى -.

معاوية وعمرو بن العاص(*)

إن أخبار معاوية وصلته بعمرو بن العاص في الأدب العربي وتاريخه لا تنقطع، فالرواة مغرمون في الحديث عنهما غراماً يلفت النظر، ويدعو للتمعن، لما تظهره الرواية من جوانب، ولما تحرص على استقصائه والتفنن في تبيانه، فأحياناً يحاول الرواة إبراز جوانب الذكاء وسرعة الجواب والرد المفحم عند أحدهما، فيأتون بخبر فيه جدل وأخذ ورد ينتهي بترجيح عقل معاوية وتفوقه على عمرو في الذكاء، أو يسردون قصة ينتهي النقاش بينهما فيها إلى ما يجعل عمرواً متفوقاً على معاوية في العقل والذكاء، فإذا تتبع المرء هذه القصص، وما فيها من حوار وتبصر، فإنه يميل إلى الحكم عليها بأنها موضوعة، إما كلها أو جزء منها، ويرجّح أن ما ورد فيها من رأي ومنطق إنما هو رأي الراوي ومنطقه،

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٧٤٧) في ١٩/١٠/١٤١٣هـ الموافق ١٠/٤/١٩٩٣م.

وأنه من شيعة هذا أو عدوه .

والمرء وهو يتبصر فيما بين يديه مما روي عن هذين الرجلين كأنه ينظر إلى عراك قائم بين حزبين سياسيين ، ولعل الأمر لا يكون بعيداً عن هذا ، فالقبيلة والعشيرة أنذاك ميدانان للتفاخر السياسي ، وتبدأ المفاخرة أحيانا بطريق غير مباشر فتركز على أيام الجاهلية ، وما كان فيها من أمجاد وانتصارات ، ويتجاهل الراوي الإسلام أو يذهل عنه وينساه في حموة الفخر ، ولا يلتفت إلى ما قضى به من نبذ العنصرية العمياء . وتوحي الرواية أحيانا بأن عَمراً كان طموحاً للخلافة ، ويراها قريبة منه لو أن الأحداث عصفت بمعاوية أثناء نزاعه مع الخليفة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ، أما إذا لم يحدث مكروه لمعاوية ، وثبتت قدمه فلا أقل من أن يحظى عمرو بنصيب وافر من المقام والتقدم في خلافة معاوية ، وتصبح مصر وحكمها جزءاً مُرضِيا لعمرو إلى حد ما ، بل إن الدائرة العائلية لعمرو تري أن حكم مصر يجب أن يكون لعمرو ، وأن

يبقى لعقبـه من بعده ، وقد ورد ما يدل على هذا دلالــة واضحــة في خبر منـزوٍ في ثنـايـا إحـدى القصص، ولكنــه يُلقي ضوءاً باهــراً على ما هو مستقر في أذهان دائرة عائلة عمرو :

كان وردان ، مولَى عمرو بن العاص ، لما عقد له معـاوية من أمر مصر ، أقبل يحك عقبه ، وعمرو غافـل عنـه ، فلما خرج قال له : «إنما ذكّرتك أن تشترط مصر لعقبك من بعدك» ، قال : «ما شعرت»[1] .

وهنـاك قصـة يَصِف الـراوي فيهـا تميز عمرو بالعقـل ، ويجعله مضرب المثـل به ، وليزيد الأمر ثبـاتـاً ، ورسـوخاً في الأذهان ، وليخرجه إخراجاً بديعـاً يغري السامع بقبوله ، ويبعد الشك عنه ، فإنـه ينحل الرواية عمر بن الخطاب ، وقول عمر لا يستهـان به ،ولا يهمـل أو يترك ، بل إن الناس أقـرب إلى أخـذ ما يروى عنـه على عواهنه ، فلا يناقش أو يفحص، فالمشجب النبيل الشريف هنا

---

(١) من اسمه عمرو من الشعراء ١١٠ .

إذاً هو الخليفة عمر بن الخطاب، وهذه هي القصة:

«كان عمر بن الخطاب إذا رأى رجلا يتلجلج في كلامه قال: إن الذي خلقك وخلق عمرو بن العاص واحد»[1].

فإن كان عمر - رضي الله عنه - أراد أن يهدئ روعه، ويزيل ارتباكه، فعمر قريب من هذا، وأهل له، ويبقى الشك في مقارنة الرجل بعمرو، فلماذا تنحصر في عمرو فليس عمرو أولى الصحابة بالاختيار، فهناك من هو أقرب لِلَّسَن وأكبر في المقام، ويترجح أن الراوي أراد أن يصدر شهادة لعمرو تجعله يقف في قمة الفصاحة ورباطة الجأش. وهذا يدخل الرواية حيز الانتحال.

أما إذا كان القصد أن عمر - رضي الله عنه - أراد أن يقلل من شأن الرجل المتكلم ويلمزه لعدم مقدرته على الافصاح عن قصده، ولتلجلجه -

(١) من اسمه عمرو من الشعراء ١١١.

سواء قال ما قاله عمر والرجل يسمع أو قاله بعد أن انصرف - فعمر يمنعه من هذا قوة إيمانه ، وبعده عن التجني ، وعمر معروف بعفة اللسان ، وببعده عن مثل جرح أخيه المسلم عندما يتحدث إليه فيتعثر في خطابه للخليفة طبيعة أو هيبة ، ولا يمكن أن يتصور أن يهزأ عمر بالرجل من خلف ظهره ، أو يهزأ بمن لا يستطيع أن يبين ، خاصة إذا علمنا أن مثل هذا القول إذا كان مجابهة يزيد من ارتباك المخاطِب ، فلا يدلي بحجته ، أو يعرض حاجته ، فيضيع بهذا حقه ، وعمر يعرف أن القصور في الابانة من خلق الله لا يد للمخلوق فيه ، وإذا كان في غيابه فهي نميمة وعمر أبعد الناس عن ذلك . ولكن الراوي نسي كل هذا في حماسه لتبجيل عمرو ، والله أعلم .

ويأخذنا الشك والعجب ونحن نقرأ نصاً آخر أريد به المفاضلة بين معاوية وعمرو كالعادة ، ولا يبرره ما قد يقال من أنه جاء على سبيل المزاح ، فمقام معاوية وعمرو ، وصلة أحدهما بالآخر -

خليفة وعامله - تجعلنا نستبعد أن يكونا قالا ما روي عنهما ، ونعتقد أنهما في هذه القصة مظلومان كما ظلما في نصوص أخرى :

ذكر المسعودي أن عمرو بن العاص لما قدم من مصر على معاوية أنشد معاوية :

يموت الصالحون وأنت حيّ
تخطاك المنايا لا تموت

فأجابه عمرو :

أترجو أن أموت وأنت حيّ
ولست بميت حتى تموت[1]

يحتاج الأمر إلى إطار قوي نادر حتى يمكننا أن نقبل مثل هذه الدعوى في هذه القصة . والأمر يستحق أن يدرس ، وتمحص فيه النصوص ، لأنه نمط متواتر : يأتي الجدل بين اثنين ولا بد أن يتغلب فيه أحد الشخصين على الآخر ، وغالباً ما يكون

(١) تمام المتون ٦٣ .

المغلوب هو البادئ به . ويتبين مظهر آخر أحيانا في هذه المجادلات ، وهو استعراض فضائل أصولهما وقبيلتهما أو عشيرتهما أو عائلتهما .

ومن القصص التي يصعب تصديقها ، وتحمل ضعفها في باطنها القصة التي تروى عما وقع بين معاوية وعمرو بن العاص من حوار جاء كالتالي :

«قال معاوية لعمرو بن العاص : هل غششتني منذ استنصحتك ؟ قال : لا ، فقال : ولا يوم أشرت عليّ بمبارزة علي ، وأنت تعلم من هو؟ فقال : كيف وقد دعاك رجل عظيم الخطر كنت من مبارزته إلى إحدى الحسنيين : إن قتلتك تعجلت من الله تعالى ملاقاة الشهداء والصديقين . قال : وهذا أشد من الأول ، فقال : أو كنت من جهادك في شك ؟ فقال : دعني من هذا»[1] .

ويكاد المرء يشم في هذا الخبر جميع ما هدف إليه ، وهو تبجيل عمرو ، ورجحان كفته على كفة

---

(١) محاضرات الأدباء ٥٨ .

معاوية ، وإدانة معاوية بأن جهاده مشكوك فيه أنه لله ، لأنه ما لبث أن سلّم لما بدأت الحلقة التي أعدها صاحب الحوار تضيق ، وختمها بما يبين أن معاوية لا حجة عنده . والأديب الذي صاغ هذا الحوار أبرز فيه الأفكار التي جالت في ذهنه ، وعلّقها على هذا المشجب القوي العالي بشعبتيه المهمتين ، وهل هناك أقوى من صحابيين يقال على لسانهما ما شعر مؤلف القصة أنه يمكن أن يجول بخاطر من فكر في موقف معاوية أثناء وقعة صفّين .

وتتضح محاولة ترجيح كفة أحدهما على الآخر في القصة التالية :

«قال معاوية لعمرو بن العاص ما بلغ من عقلك ؟ قال : ما دخلت في شيء قطّ إلا خرجت منه ، فقال معاوية : لكني ما دخلت في شيء قطّ أريد الخروج منه»[1] .

إن صح أن معاوية سأل عَمراً هذا السؤال فلم

(١) العقد الفريد ٢ /٢٤٢ .

يكن معاوية يريد مقارنته بنفسه ، ولكن لأن أساس الفكرة في ذهن الراوي هي المقارنة فقد جاء بها ، ولم يفكر أن هناك من قد يلحظ أن البدء لم يكن يطلب هذه النهاية ، فجاءت في غير محلها وقلقة . هذا إضافة إلى أن قول عمرو له مرمى يختلف عن مرمى معاوية ، وحكمة تختلف عن حكمته ، ولكل قول حالته .

وفي قصة أخرى يقف الرجلين متجادلين في قصة أريد لمعاوية أن يكون هو الغالب ، وإن كان لا يستبعد أنها حدثت ، لأنه ليس فيها ما يجعل ما قالا بعيداً عن الواقع ، والحوار الطبعي بين خليفة ونائبه على مصر :

دخل عمرو بن العاص على معاوية وبين يديه بنته عائشة فقال : «من هذه يا أمير المؤمنين ؟» فقال : «هذه تفاحة القلب» . فقال : «انبذها عنك يا أمير المؤمنين ، فوالله إنهن ليلدن الاعداء ، ويقربن البعداء ، ويورّثن الضغائن» . قال : «لا

تقل ذلك يا عمرو ، فوالله ما مرض المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا أعان على الأحزان مثلهن ، ورب ابن أخت قد نفع خاله »[1] .

ويلاحظ أنه وضعت في القصتين السابقتين أفكار عالية ، في كلمات تبدو في ظاهرها رصينة ، ويبدو الأسلوب فيهما ممثلا لتلك الفترة ، ليتكافأ الرجلان فيما أريد لهما أن يتبارزا فيه ، وأصول الحرب أن تكون بين قرنين متماثلين ، حتى إذا غلب أحدهما الآخر يكون قد غلب من يستحق أن يغلب ، لا تافها لا يستحق أن يبارز ، أو رعديداً يسهل التغلب عليه من أي أحد .

إلا أن الضعف في القصة الأخيرة السابقة جاء من ناحية المعنى ، والروح الدينية ، فقول عمرو أشبه بقول أحد رجال الجاهلية وعمرو مسلم لا يجهل موقف الإسلام من ا لمرأة ، ثم كيف أن بنت الرجل تلد عدوّاً لأبيها في زمن الإسلام ، وكيف

---

(١) العقد الفريد ٢ /٤٣٨ .

تورث الضغينة ، فإن حدث هذا فالـولـد فيه لا يختلف عن البنت .

ويأتي الرواة بقصة أخرى عن معاوية وعمرو ، ويجعلون موضـوعهـا التـأني ، ويـظهـرون عمرو بمظهر المعترض على تأني معاوية في الأمور ، وهي سياسة معروفة عن معاوية ، ويبدو أن عَمـراً كتب بذلك لمعاوية فرد عليه معاوية بقوله :

أما بعد : فإن التفهم في الخير زيادة ورشد ، وإن المتثبت مصيب ، وإن العجل مخطئ ، وإن لم ينفعه الرفق ضره الخرق ، وإن لم تعظه التجارب لم يدرك المعـالي ، ولم يبلغ الـرجل أعلى المبالغ حتى يغلب حلمُه جهلَه ، والعاقل يسلم من الزلل بالتثبت وترك العجلة ، ولا يزال العجل يجتني ثمرة الندم[1] .

ويحـاول راوٍ أن يقرن معاوية بعمرو ، ويقارن بينهما قبل أن يصبح معاوية خليفة بزمن غير قصير ، وقبل أن ينضوى عمرو تحت لواء معاوية ، فيروي

(١) المجتنَى ٤٨ .

قصة يقول إنها دارت بحضرة الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - ورغم أن عاملي عمر ، معاوية وعمرو ، جاءا من قطرين مختلفين إلا أن الراوي أو واضع القصة ، وجد مدخلا هزيلا يدخلان فيه في مواجهة أمام عمر ، وتأرجح الأمر فيه بين معاوية وعمرو في إظهار دهاء كل منهما . ولا أظن أن عمر خَبّ يفوته ما فعله عمرو لو كان حدث ، أو ما تصرف به معاوية ، ولكن مؤلف القصة نسي عمر ، واهتم ببؤرة ما ركز عليه تفكيره ، وتروى القصة كالتالي :

قال أبو حاتم عن العتبي :

«قدم معاوية من الشام وعمرو بن العاص من مصر ، على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأقعدهما بين يديه ، وجعل يسائلهما عن أعمالهما إلى أن اعترض عمرو في حديث معاوية ، فقال له معاوية : أعملي تعيب وإليّ تقصد : هُلمّ تخبر أمير المؤمنين عن عملي ، وأخبره عن عملك . قال عمرو : فعلمت أنه بعملي أبصر منّي بعمله ، وأن

عُمـراً لا يدع أول هذا الحـديث حتى يصـير إلى آخـره ، فأردت أن أفعـل شيئاً أشغل به عُمر عن ذلك ، فرفعت يدي فلطمت معاوية . فقال عمر : تاالله ما رأيت رجـلا أسفـه منـك ، قم يا معاوية فاقتص منه .

قال معاوية : إن أبي أمرني ألا أقضي أمراً دونه . فأرســل عمـر إلى أبي سفيـان ، فلما أتـاه ألقى له وسادة ، وقال : قال رسول الله ﷺ : إذا أتاكم كريم قوم فأكـرمـوه . ثم قصّ عليه ما جرى بين عمرو ومعـاويـة ، فقـال : لهذا بعثت إليّ ؟! أخوه وابنُ عمه ، وقد أتى غير كبير ، وقد وهبت ذلك له »[1] .

ونسي الـــراوي أن يعـود عمـر إلى المـوضـوع الأسـاسي الـذي أدى إلى الصفعـة ، وهو أمر من الأهمية بحيث أنه لا ينسى ، ألم يؤدِّ هذا إلى صفعة من عامل مهم للخليفة إلى عامل مهم ، وألم يتبين أن هنـاك مخالفـات لم يدر عنها الخليفة ويجب أن

(١) العقد الفريد ١ /١٧ .

يعرف عنها . وفي سبيل تعزيز مقام معاوية وعائلته أدخل في القصة جملة مفتعلة لا داعي لها ، تعارضها قصة سبق أن أوردتها في الجزء الخامس من «أي بني» ، وهي تعدل ميل الكفة هنا ، وهي كالتالي وواردة في كتاب «المنتقى من أخبار الأصمعي» :

حدث الاصمعي عن جويرية بن أسماء فقال : إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قدم مكة ، فجعل يجتاز في سككها فيقول لأهل المنازل : «قُمُّوا فناءكم» فقال : «نعم ، يا أمير المؤمنين ، يجيء مُهاننا» ، ثم إن عمر اجتاز بعد ذلك فرأى الفناء كما كان فقال : «يا أبا سفيان ألم آمرك أن تقمّوا فناءكم» قال : «بلى ، يا أمير المؤمنين ، ونحن نفعل إذا جاء مهاننا» فعلاه بالدرة بين أذنيه فضربه . فسمعت هند ، فقالت : «أتضربه ؟! أما والله لرب يوم لو ضربته لاقشعر بك بطن مكة» . فقال عمر : «صدقت ولكن الله - عز وجل - رفع بالإسلام أقواما ، ووضع به آخرين»[1] .

---

(١) المنتقى من أخبار الاصمعي ١٥١ .

فإذا كانت القصة الأولى حادت عن الجادة يميناً فهذه حادت شمالاً، وبقي الوسط، وفيه الحق، خالياً.

وهناك قصة متقنة السبك عن علاقة معاوية بعمرو، وتروى كالآتي:

«وقف علي - رضي الله عنه - بين الصفوف في وقعة صفين، ثم نادى: يامعاوية، علام يقتل الناس؟ أبرز إليّ وأبرز إليك، فيكون الأمر لمن غلب. فقال له عمرو بن العاص: أنصفك الرجل، فقال له معاوية: أردتَها يا عمرو؟ والله لا رضيت عنك حتى تبارز عليا، فبرز إليه متنكراً، فلما غشيه عليّ بالسيف رمى بنفسه إلى الأرض وأبدى له سوأته، فضرب عليّ وجه فرسه، وانصرف عنه.

فجلس معه معاوية يوما فنظر إليه فضحك، فقال عمرو: أضحك الله سنك، ما الذي أضحكك؟ قال: من حضور ذهنك يوم بارزت

عليّـا إذ اتقيتـه بعـورتك ، أما والله لقد صادفت منّـانـا كريـما ، ولـولا ذلـك لحزم رفغيـك (أصل فخذيك) بالرمح .

قال عمرو أما والله إني عن يمينك إذ دعاك إلى البراز فاحولّت عيناك ، وربا سحرك (أي انتفخت رئتك) ، وبدا منك ما أكره ذكره لك»[1] .

هذه قصة لا تتصور أن يقع الجدل الذي فيها بين خليفـة وعامله ، ولا رئيس ومرؤوس ، خاصة إذا كان الخليفـة معـاويـة وواليه عمرو بن العاص ، والأقـرب أن يقبلَ ما جاء في القصة التالية ، وهي تظهر الرئيس القادر مع مرؤوسه الخاضع :

كتب معاوية إلى عمرو بن العاص ، وبلغه عنه أمر : «وفقك الله لرشدك ، بلغني كلامك فإذا أوله بطر ، وآخره خور ، ومن أبطره الغِنَى أذله الفقر ، وهما ضدان مخادعان للمرء عن عقله ، وأولى الناس بمعرفة الدواء من يبين له الداء ، والسلام» .

---

(١) العقد الفريد ٤ / ٣٣٩ .

فأجابه عمرو :

طاولتك النعم ، وطاولت بك ، علوّ إنصافك يؤمن سطوة جورك ، ذكرت أني نطقت بما تكره ، وأنا مخدوع ، وقد علمتُ أني ملت إلى محبتك ولم أخدع . ومثلك من شكر سعي معتذر ، وعفا زلّة معترف[1] .

وهذا قول مقبول من معاوية ، وقوته ظاهرة ، وهي لائقة بالخليفة عندما يسمع ما يغضبه من عامله ، وقول من عمرو وردهُ واعتذاره لائق به ، وانتقاء الكلمات ، وجودة المعاني وتتابعها تؤكد أصالة الحادثة .

وبسهولة أيضا ، وبدون تردد أو عناء يقبل كلام عمرو في معاوية عندما يأتي هكذا :

ذكر عمرو بن العاص معاوية فقال : «احذروا قرم قريش وابن كريمها ، من يضحك عند الغضب ، ولا ينام إلا على الرّضا ، ويتناول ما فوقه

(١) العقد الفريد ٢٤٨ .

من تحته»[1].

وقد يقبل من عمرو أن يسأل معاوية فيقول:
«والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان!»

فرد معاوية عليه بقوله:
«شجاع إذا أمكنتني فرصة، وإن لم تكن لي فرصة فجبان».

ولكن قبول هذا يجب أن يكون بحذر، وأن يهيأ له الإطار الذي يمكن أن يقبل في حدوده، فقد يكون عمرو رآه في موقفين أوحيا بمثل هذا السؤال.

وقد يقبل أيضا سؤال معاوية عمرو بن العاص حين سأله: ما العيش؟

قال: «ليخرج مَن هاهنا من الأحداث»، فخرجوا. فقال: «العيش كله اسقاط المروءة»[1].

---

(١) العقد الفريد ١/ ٢٥، ٤/ ٣٦٣.

(١) العقد الفريد ٦/ ٢٢١، ٦/ ٣٨٠.

ولكن لا يقبل القول بأن عَمـراً رد بهذا الرد ، فإذا كان اسقـاط المروءة قد يجبر عليه الإنسان في ظرف من ظروف الحياة القاسية الملحة فلا يكون بحال من الأحوال هو العيش ، ولا يتصور أن يرد به عمرو على سؤال معاوية .

والحديث عن صلة عمرو بمعاوية ، وما يحاول بعض الوضاعين أن يرسموه من صور تُبين ما يقوم بينهما من جدل ينتهي بغلبة ذكاء أحدهما على الآخر يطول ، وأكتفي بما أوردت منه ، وأغلبه من «العقد الفـريـد» . ومعاوية خليفة امتلأ التاريخ بأخباره الحقيقية والمختلقة ، ومثله عمرو ، ويحتاج القارىءأن يسـير فيـما يقـال عنهـما بتؤدة تعطيه فرصة التمعن والتـدبـر والمقارنة ، علّه يستطيع أن يرجح بعض الأخبـار على بعض، ويقبـل منهـا ما تطمئن إليه النفس ، ويقبله العقل ويستسيغه ، وينبذ ما يشعر بغثـاثته وافتعاله ، لأنه يخدم فكرة سائدة ، روجها تعصب من نوع أو آخر .

إصابة الهدف(*)

يصيب المرء الهدف مادياً إذا أمسك بأداة وأرسلها إلى غرض نصبه ، وقصده بإتقان ، وهو ماهر في الرمي ، عارف بأصوله ، متدرب على أنواعه وفنونه ، فمرسل الحجر على غرض يصيبه إذا كان المرسل متصفا بهذه الصفات ، ومرسل السهم يصيب الهدف إذا كان متقنا ومتدربا ، ومرسل الرصاصة من البندقية ، أو مرسل القذيفة من المدفع ، أو مطلق الصاروخ من مكمنه فوق دبابة ، أو بارجة ، أو من حضن طائرة ، يصيب كل من هؤلاء هدفه ، متى توفرت لديه المقدرة على ذلك ، وكان مهيأً لذلك بطبيعته ، مع اكتمال في أعضائه ، وإذا كان هذا صحيحا وصادقا وواقعا في الأمور المادية مثل الحجر والرصاصة والقذيفة والصاروخ ، فإنه صادق أيضا فيما يرميه العقل من أفكار ، وما

(*) نشرت في صحيفة عكاظ بالعدد (٩٧٥٤) في ٢٦/١٠/١٤١٣هـ الموافق ١٧/٤/١٩٩٣م .

يطلقه الذهن من آراء ، فهذه الأمور المعنوية تنطلق أحيانا بإتقان ، وتصيب الهدف المقصود ، والغرض المنصوب . فالمرء إذا نظر إلى السهم المنطلق ، ورآه يصيب الهدف قال : أصاب الهدف ، وكذلك إذا سمع قولا صحيحا صادقا أطلقه صاحبه ، فأصاب به كبد الحقيقة قال : أصاب الهدف ، فكما يصيب صاحب المادة يصيب صاحب الفكر الصافي ، والذهن الحاد الناضج :

«فعندما يقول حكيم لرجل يستكثر من العلم ولا يعمل به : يا هذا ، إذا أفنيت عمرك في جمع السلاح فمتى تقاتل ؟ !»[1] .

قال السامع في داخل نفسه صدق ، ولقد ، والله ، أصاب الهدف في قوله هذا ، لأن الذي أكثر من خزن العلم ، ولم يطبقه في عمله ، فعمله ناقص ، والجزء الناقص لعله أهم من الجزء الذي حازه ، فقليل العلم مع العمل به خير وأجدى من

---

(١) الكشكول ٢ / ٣٨١ .

كثرة العلم دون الاستفادة منه . فإذا تصور الإنسان شخصا يجمع الغذاء ويخزنه ، ولا يطفئ به جوعه ، ويغذي به جسمه ، فمآله إلى الموت جوعا ، وما ناله من جمع ما جمع إلا التعب ، ومن يجلب الماء ويخزنه ولا يطفئ به ظمأه ، مآله إلى الموت لا محالة ، ولم ينفعه جمعه ، وضاع تعبه سدى ، وكذلك جامع المال دون الاستفادة منه لسكنه وملبسه وغذائه ، وهكذا كل أمر تصبح الوسيلة ، وهي أداة ، هدفا .

وعندما يقول عبدالله بن المقفع لرجل سأله : لِمَ لا تقول الشعر مع علمك به ؟ قال : «أنا كالمسَنّ ، أشحذ ولا أقطع»[1] .

فالسائل على حق ، والمجيب على حق ، فقد أصاب ابن المقفع الهدف برده الموجز المُعْجِب هذا . فابن المقفع لم تكن السليقة تسمح له أن يقول الشعر ، رغم أنه يعرفه جيداً ، ويعرف مجاريه ، وأنواعه وفنونه ، وظواهره وخفاياه ، وينقد بجدارة

(١) المصون في الأدب ٦ .

الشعراء على أسس موضوعة معتبرة ، ولكنه لم يهيأ لقول الشعر وقرضه ، فهو تماما مثل المسن ، حديد صلب ، قادر بطبيعته وتكوينه أن يجعل السكاكين «الداثرة» حادة قاطعة ، ولكنه لا يقطع ، إذ ليس هذا من طبيعته .

ويقال - والله أعلم فيما يقال عادة عن الحجاج - أن قولا وجهه الحجاج ليحيى بن سعيد جاء رد يحيى عليه فيه مصيبا الهدف ، مما لم يسع الحجاج - وهو الحجاج ! - إلا أن يعجب به :

قال الحجاج ليحيى بن سعيد : إنك تشبه إبليس ، فقال : وما ينكر الأمير أن يكون سيد الإنس يشبه سيد الجن ؟! فأعجبه جوابه[٢] .

وعلينا هنا أن لا ننظر في هذا الجواب لنرى إصابة الهدف فيه ، ولكن ننظر أيضا إلى تحاشي يحيى في أن يسأل الحجاج عما إذا كان رأى إبليساً ، وكيف ومتى وأين ، وماذا فعل حين رآه ؟ لا . إن يحيى أخذ

---

(٢) الكشكول ٢/٤٠٢ .

منحًى آخر ، مدح نفسه فيه ، ولو بالتمثل بإبليس في سيادته .

وإبليس لا يدخل في أمر إلا ويفسده ، ورؤيته ، أو إدعاء هذه الرؤية تأتي بالأذى ، وقد أضاعت في سنة من السنوات صيام الناس ، والقصة طريفة ، وتجري هكذا :

جاء رجل ساذج إلى قاض ذكي ، وادّعى أنه رأى هلال رمضان ، فقال له القاضي : لعل ما رأيته هو «ذنيب» إبليس ، فقال الرجل : لا . إني أعرف جيداً ذنيب إبليس ، فلم يكن هو ، وإنما كان الهلال .

وهكذا سقطت شهادته ، ولم يصم الناس على رؤيته ، بسبب معرفته بذنب إبليس ، أليس في هذا تأكيد على نجاسة إبليس واسمه ؟!

ويسيطر الغضب على شخص فيرمي قذيفة كلامية تخطئ الهدف ، وتبعد عن المرمى ، فيرد الخصم القذيفة بهدوء ، فيصيب مرسلها ، ولا

يملك المرء وهو يراها ذاهبة آيبة إلا أن يقول: أخطأت في ذهابها الهدف، وأصابته في العودة، وقد تجمّع الخطأ والإصابة في النص الآتي:

«تقدم السيد الحميري إلى سوّار بن عبدالله مع خصم له، فقال سوّار للسيد، في بعض خطابه: وكان مغيظا عليه، لسوء مذهبه وهجائه: يا ابن اللخناء! فقال السيد: ابن اللخناء خصمي هذا. فقال الخصم: خذ لي بحقي، فلم يقدر القاضي على ذلك، لأن عليه مثل ذلك، فقال: قوما»[1].

والغضب يعمي ويصم، وهو ريح تهب، كما قيل، على سراج العقل فتطفؤه، والغضب لا يشل حركة اليد أو يرعشها، ولكنه فوق هذا يشل العقل، ويجعله يشذ عن طريقه، وقد يقضي على الفضيلة في الإنسان، ويوقعه في الزلل، وهذا هو ما حدث لسوّار، مع فضله وعلمه وأمانته. والملفت للنظر هنا هو سرعة بديهة الحميري، وإدراكه

---

(١) المصون ١٨٢، الكشكول ٢/١٨٢، انظر الاغاني ٧/١٣.

الفوري لموقع الزلل وعظَمه، واستغلاله لهذا، مما أكسبه الجولة بلا عناء، والذي ضاع حقه، فيما يبدو، في هذه الزوبعة، هو الخصم المسكين، وكسب شتيمة فادحة لم يحسب حسابها.

ويصيب الشعراء - وبينهم حكماء - الهدف كثيراً، وتأتي إصابتهم في غلافها الشعري حلوة على القلب، يقول أحدهم:

إذا قسى القلب لم تنفعه موعظة
كالأرض إن سبخت لم ينفع المطر[1]

لقد أصاب هذا الشاعر الهدف في قوله، وفي المثل الذي جاء به، ولكن الواعظ لا ييأس من رحمة الله، وهو - سبحانه - الذي يحيي العظام وهي رميم، ويبعث من في القبور، والقادر على كل شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإذا أراد لقاسي القلب الخير هيأ له أسبابَ لينهِ، كالأرض السبخة إذا قيض الله من يعالج سبختها،

---

(١) سراج الملوك ٦٧.

صلحت للزراعة .

وتوجه أسهم فكر إلى هارون الرشيد ، فيردها بترس العقل ، وهو الخليفة الفقيه الورع ، ثم يرسل هو سهما من جعبته ، فيصيب الهدف ، ويستسلم من أمامه ، وقد حاول بسهامه أن ينجو فلم يتح له ذلك :

«يروى أن الرشيد أحضر رجلا ليوليه القضاء ، فقال : إني لا أحسن القضاء ، ولا أنا فقيه ، فقال له الرشيد : فيك ثلاث خلال : لك شرف ، والشرف يمنع صاحبه من الدناءة ، ولك حلم يمنعك من العجلة ، ومن لم يعجل قلّ خطؤه ، وأنت رجل تشاور في أمرك ، ومن شاور في أمره كثر صوابه . وأما الفقه فتضم إليك من تفقه به ، فولي فما وجدوا فيه مطعنا»[1] .

ما قاله هارون الرشيد قول رصين ، وحجة بالغة ، وتحليل دقيق متقن ، سد المنافذ على القاضي

---

(١) سراج الملوك ٤١٢ .

المتهـرب ، وأصـاب هارون الـرشيـد هدفـه خير إصابة ، فلم يأمره وهو الخليفة أمراً جافًّا متسلطاً ، وإنما جاءه عن طريق سد الأبواب التي قد يأتي منها عذر القاضي ، وقد ذكر بعضها ، وهي عدم الفقه ، وكـانت النتيجـة أن القاضي صار عند حسن ظن الخليفة ، ووفق تحليله وتقديره . إن أقوال هارون الرشيد حرية أن تكتب بماء الذهب ، فالشرف وقاء لصاحبه من الدناءة ، وهي سبة وعار ، والحلم وقاء من العجلة ، وفيها زلل وتعثر ، والاستشارة أحرى أن تؤدي إلى الصواب .

وعمرو بن العاص عرف بذكائه ، وحسن منطقه ، وقوة حجته ، وجودة أقواله ، ولهذا لم يستغرب منه أن يصيب الهدف في قوله الآتي : ولله دره على هذا القول :

«موت ألف من العليـة أقـل ضرراً من ارتفاع واحد من السفلة»[1] .

---

(١) سراج الملوك ٤١٦ .

أن يخسر المرء ألف ريال صحيحة أصيلة ، خير من أن يكسب ريالا واحداً مزيفاً ، يعتمد عليه وقت السعة ، ظناً منه أنه صحيح ، وبقيمته ، فيفاجأ وقت الضيق ، وعند الحاجة ، بأنه لا يفيد ، بل قد يضر لأنه قد يدخل صاحبه في دوامة من التحقيق والتهم : من أين جاء به ؟ وممن ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ وقد يوصله في نهاية الأمر إلى السجن والأذى المبرح .

وابن الجوزي – رحمه الله وغفر له – أرسل قذيفة مدفع على عصفور صغير بدد أجزاء جسمه ، وقطعته شذر مذر ، في حين أن حصوة صغيرة كانت تكفي للقضاء عليه وإسكاته ، وقصته كالآتي :

«أنشد ابن الجوزي في بعض مجالس وعظه :

أصبحتُ الطفَ من مرّ النسيم على
زهر الرياض يكاد الهم يؤلمني
من كل معنى لطيف أجتلى قدحا
وكل ناطقة في الكون تطربني

فقام إليه إنسان ، فقال : ياسيدي الشيخ ، فان كان الناطق حماراً ؟ فقال : أقول له : ياحمار اسكت »[1] .

ويخطىء آلاف من البشر في عصر الجاهلية بعبادتهم الأصنام ، وتطيش أسهمهم عن الهدف السامي في العبادة ، فيصرفونها لغير الله ، جهلاً وضلالاً ، فيأتي غاوي بن ظالم السلمي ، وقيل إنه أبو ذر الغفاري ، وقيل عباس بن مرداس السلمي ، فيجد أن الثعلب قد بال على صنمه ، فيحنقه هذا على نفسه ، ويستيقظ من سدرته ، ويصحو من رقدته ، وتدور عجلة فكره ، وتقف على حقيقةٍ غابت عنه طوال سنين عمره التي مرت ، فيدرك أنه لا يمكن أن يكون إلهاً ذلك الذي لا يستطيع أن يحمي نفسه ، ويهش الثعلب عن رأسه ، ويذب أذاه عنه ، فالثعلب أوغل في الإهانة وبال في رأس الصنم ، ولهذا ثأر الشاعر لكرامته ، وأخذته الحمية على فكره وعقله فقال :

---

(١) ثمرات الأوراق ٤٩ .

إلهٰ يبول الثعلبان برأسه
لقد ذل من بالت عليه الثعالب[1]

وهو مثل الرجل الذي استقسم الازلام، يستشيرها في الخروج لأخذ ثأر من قاتل أبيه، وكلها تنهاه عن الخروج، فغلبه صفاء الفطرة، وحطمها وقال: والله لو كان المقتول أبوك ما منعتني، وفي هذه اللحظة تبينت ضحالة معتقده فيها، كما تبينت لغاوي.

والأدب العربي مليء بمثل هذه اللمحات التي تري جوانب متعددة من إصابة الهدف في القول، نتيجة إصابة الهدف في الفكر، وهذا باب واسع إذا فتح أرى رياضا غناء من بهجة الفكر، وجواهر الكلم، وأكد مظهراً من مظاهر حضارتنا وعمقها وعراقتها.

(١) الحيوان ٦/٣٠٣، لسان العرب المحيط مادة ثعلب.

الفهـــارس

(١) فهـرس المواضيـع ٣٩٣

(٢) فهـرس الاعــلام ٣٩٤

(٣) فهـرس الأمـاكـن ٣٩٩

(٤) فهـرس المصـادر ٤٠١

(١)

فهرس المواضيع

* المقدمة ٣
* معلومات تهتز ٥
* شعاب الحيرة ١١
* نتيجة الاختبار ١٧
* شبوات الأقلام ٢١
* متعة الفكر ٢٧
* الأركان الثلاثة ٣١
* طرائف الجاحظ ٣٦
* الأمثال تتشاجر ٤١
* فكرة نابية ٤٧
* خيال مجنح ٥٦
* منظر بشع ٧٠
* مجمع الآراء ٧٤
* الكريم الغريب ٨٥
* مغالطة محمودة ٩٠
* التبر في الترب ٩٤
* في اللغة العربية ١٠٣
* صور تتكلم ١٠٧
* من حزم عمر ١٢٠
* أولو العزم ١٣٧
* درجات السلم ١٤٤
* السحاب والغيث ١٥٣
* كاني ماني ١٦٨
* تماثل القصص ١٧٨
* أهمية اللغة العربية ١٩٠
* قال للمخفق : أحسنت ١٩٧
* الأطفال والحيل ٢٠٧
* قذائف بين اثنين ٢١٨
* الشجاعة أم العقل ٢٢٦
* مراكز اتصال مجهولة ٢٣٩
* يحتال للرزق ٢٥٣
* قدم على قدم ٢٦٧
* الشعراء وميزان الذهب ٢٧٦
* هذا منطق ٣٠٠
* صبر الرجال وجلدهم ٣١٦
* قول وتعليل ٣٢٣
* من فروع الشجاعة ٣٣٦
* أنفس مضيئة ٣٤٦
* معاوية وعمرو بن العاص ٣٦١
* إصابة الهدف ٣٨٠

(٢)
فهرس الأعلام

(ا)

إبراهيم باشا : ٢٧٣ ، ٢٧٥
إبراهيم بن العباس الصولي : ٢٩٠
إبراهيمالنخعي : ٣٠٧
أحمد بن عبيد بن ناصح : ٢١٩
أحمد بن علي النسائي : ٣٨
أحمد بن المعدل : ٥٨
أبو العباس أحمد بن يحيى : ٢٧٨
الأحنف بن قيس : ١٥١، ٣١٢
الأحوص : ٢٨٠ ، ٢٨١
ابن أسادة : ٨٨
إسحاق بن إبراهيم البربري : ٢٥ ، ٢٦
الأصمعي : ١٠٥ ، ١٣٥ ، ١٥٥ ، ١٧٢ ، ٣٧٤
أصيل الهذلي : ١٥٥ ، ١٥٦
ابن الأعرابي : ١٧٥
الأعمش : ٣٠٧
امرؤ القيس : ١٩٤
بنو أمية : ٤٥ ، ١٤٨
أويس القرني : ٣٥٢، ٣٥٣
الأيوبيون : ٣٥

(ب)

البابليون : ٢٢
بجيلة : ١٢٩
فرقة البحرية : ٣٤، ٣٥
يوم بدر : ٣١٩
أبو بكر الخطيب : ٨، ٩
أبو بكر الصديق : ٣٤٢، ٣٤٥
أبو بكر الهذلي : ١٥٥
بلال بن بردة : ٢٧٠
بهلول المجنون : ٦٨ ، ٦٩
الملك الظاهر بيبرس : ٣٤

(ت)

تغلب : ٢١٦

(ث)

ثعلب أبو العباس : ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٨

(ج)

الجاحظ: ٣٦،٣٧،٣٨،٤٠،٢٢٢،٣٣٨، ٣٣٩
جامعة الملك سعود : ٣١
جرير : ٢٨٣
جرير بن عبدالله البجلي : ١٢٩ ، ١٣٠
جعفر بن محمد : ٦٨ ، ٦٩
أبو جعفر : ٣٤
جعفر بن يحيى : ١٩٢
الجهشياري : ٢٤٦
أبو جهل (أبو الحكم) ٠ ٣١٩
ابن الجوزي : ٦٣، ٣٨٩
أبو الجوزاء : ٢٤٩
جويرية بن أسماء : ٣٧٤

(ح)

أبو حاتم : ٣٧٢
حافظ إبراهيم : ١١٨
الحجاج : ١٧٢، ٣١٤
عبد بني الحسحاس : ١٣٢
الحسن : ٢١٦
أبو الحسن السلامي : ٢٨٤، ٢٨٦
الحسن بن سهل : ١٩٣
الحسن بن عثمان الزيادي البغدادي : ٢٤٦
الحسين : ٢١٦
الحسين بن مطير الاسدي : ٢٨٥
أبو نزار الحسين بن صافي النحوي - ملك النحاة : ٩٦
الحكم بن حنطب : ٣٥٦
السيد الحميري : ٣٨٥
حنظلة بن صفوان الكلبي : ٢٥١
أبو حنيفة السائح : ٦٨
أبو حنيفة : ٢٨٢، ٣٠٢، ٣٥٩، ٣٦٠
حوسر : ٢٢٨

(خ)

خالد بن صفوان : ٤٥
خالد بن الوليد : ٤٨
الخالع : ٢٧٩، ٢٨٨
الخليل بن أحمد : ١٩٥
يوم الخندق : ٩
أبا الخندف : ٢٢٢
أم الخندف : ٢٢٢

(ر)

أبو ذر الغفاري : ٣٩٠
أبو رافع : ٢١٦
بنو ربيعة بن مالك بن زيد مناة من تميم : ١٦٠
الرسول ﷺ : ٨، ٩، ١٠، ٦٠، ٦٦، ٦٨، ١٢٤، ١٥٦، ١٦٦، ١٦٧، ٢١٦، ٢٤٩، ٣٤٣، ٣٧٣
رشاد فرعون : ٣١٧
الرشيد بن الزبير : ٣٨، ٤٠
الرياشي : ١٠٥

(ز)

زياد بن أبيه : ٣٣٢، ٣٣٣
الزمخشري : ١٧٦
أبو نصر الزجاج : ٢٩٠
ابن الزيات : ٣٠٦، ٣٠٨

(س)

أبو السائب : ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥
سارية : ٢٤١، ٢٥١
سران : ١٣٥
سريع (مولى عمرو بن حريث) : ١٥٦
سعد : ١٢٦
بنو سعد : ١٥٨
سعد بن معاذ : ٩
السيد نصر بن أحمد : ٢٣٣
سعيد بن هاشم بن وعلة الخالدي من بني عبد القيس : ٢٨٦
السفاح : ١٤٦، ١٤٧

أبو سفيان : ٩، ٢٧٣ ، ٣٧٤
سقراط: ٣٠٢، ٣٠٣
سليمان الديلمي : ٣٨
سليمان بن عبد الملك : ١٥٦ ، ١٥٧ ، ٣١٣
الوزير سليمان بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين : ٣٩
سهل بن صدقه : ٢٢٥
سوار بن عبد الله : ٢٧٥
ابن سيده : ١٨٣ ، ١٨٧
سيف الدولة : ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨
ابن شبرمة القاضي : ٢٣٧ ، ٢٣٨
الشعبي : ١٧٢ ، ٣٠٤، ٣٥٠

(ش)

الشيظمي : ٢٨٦

(ص)

صالح بن عبد الرحمن : ١٥٩
صعصعة : ٢٢١
أبو علي الصنعاني : ٢٣٣
الصليبيون : ٣٥
أبو علي الصواف : ٨٣، ٨٤
الصينيون : ٢٢

(ط)

طوسون : ٢٧٢
أبو الطيب : ٢٨٥

(ع)

عامر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري البصري : ٢٧٠
ابن عباس : ٢٤٨
بنو العباس : ٤٥
العباس بن عبد المطلب : ٢٥٠
عباس بن مرداس : ٣٩٠
عبدالرحمن بن عوف : ١٣٥
الملك عبد العزيز : ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨
عبدالعزيز بن عبدالملك : ١٤٨
عبدالعزيز بن الوليد : ٢٨٣
عبدالله بن حميد : ٨٧
عبدالله بن زياد : ٣٤٤
عبدالله الشعيري : ٢٩٥
عبدالله بن المقفع : ٣٨٢
عبدالمسيح بن عمرو بن بقيله الغساني : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣
عبدالملك بن عبدالعزيز الماجشون : ٥٨
عبدالملك بن مروان : ٢٩ ، ٣٣١، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٩
العتبي : ٣٥٦، ٣٧٢
العثمانيون : ٢٢
العجاج : ٢٩
بنو عسقلان : ١٨٤
عضد الدولة : ٢٨٤
عكرمة بن أبي جهل : ٣٢٠
عكل : ٢٧٩
أبو علي بن دينار ابن عبدالله : ٢٤٧
علي بن أبي طالب : ٨، ٩، ١٨، ١٩، ٣٦٢، ٣٧٥
عمارة بن عقيل : ٢٨٢

عمارة بن ياسر : ٣٤٣
عمر بنَ الخطاب : ٦٨، ٧٢، ٧٣، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ٢٤١، ٢٥٠، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٣٢،، ٣٣٣، ٣٤٢، ٣٤٥، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٧٢، ٣٧٣، ٢٧٤
عمرو بن العاص: ٢٢٤، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨٤
أبو عمرو بن العلاء : ١٩٢
عمر بن العلاء : ١٠٥
عمير بن سعد : ١٣٥
عميرة : ١٣٢
عنترة بن شداد العبسي : ١٠٩، ١١٠، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١٢٧
أبو العيناء : ٦٤، ٦٧

(غ)

غاوي بن ظالم السلمي : ٣٩٠

(ف)

فارس الدين أقطاي : ٣٤
يوم الفتح : ٩
أبو الفتح الحراز : ٢٩٠
أبو فراس الحمداني : ٢٨٥
أبو الفرج الأصفهاني : ٢٩٠، ٢٩١
الفرزدق : ١٢، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١
الفضل بن سهل : ٢٥
قس بن ساعدة الأيادي : ١٧١
قطز : ٣٤

(ك)

كثير عزة : ٢٩٧، ٢٩٨
الكسائي : ٢٩٢، ٢٩٣
الكميت بن زيد : ٢٤٣

(م)

مالك بن أنس : ٥٩، ٦٨
مالك بن دينار : ٢٧٠، ٣٥١
المأمون : ١٩٣، ٢٨٢، ٣٠٥
المبرد : ٥٤، ١٠٤
محارب بن دثار : ٢٢٩، ٢٣٠
محمد بن أحمد أبو العبر : ٢٩٥
محمد التمرات : ٢٦٩
محمد بن جرير الطبري : ٨٣
أبو الفرج محمد بن جعفر : ١٤٧
محمد بن خالد الصريفيني : ١٣٩، ١٤٢، ١٤٣
أبو علي المحسن بن علي التنوخي : ٢٦٣
محمد بن عبدالله بن عثيمين : ٢٨
محمد علي باشا : ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٥
محمد بن هاشم بن وعلة من بني عبدالقيس الخالدي : ٢٨٦
مجلة المختار : ٢٤٤
أبو الحسن المدائني : ١٥٦، ٣٣١، ٣٤٣
المستمر بن سليمان : ٢٤٩
ابن مسعود : ١٣٣
المسعودي : ٣٦٦

مسلمة بن عبدالملك : ٢٩ هـ
مصطفى صادق الرافعي : ٨٥
معاوية بن أبي سفيان : ٩، ١٥١، ٢٢١، ٣١٩، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩
المعتز: ٢١٩
معن بن زائدة الشيباني : ٢٨٥
معقر بن حمار البارقي : ١٨٠
المغيرة بن شعبة : ١٣٤
ابن المفضل : ٢٣٨
ابن المقفع : ٣٢٤، ٣٢٥
المهدي : ١٤٩، ١٥٠
الوزير أبو محمد المهلبي : ٢٦٣
المهلهل : ١١٥
أبو ميادة : ١٧٦

(ن)

الناشي : ٢٨٨
نافع : ٦٨
الملك الصالح نجم الدين أيوب : ٣٥
أبو نخيلة الراجز: ٤٥
نصر بن سيار: ٢٢٠
نصيب الشاعر : ٢٩ هـ
نور الدين محمود : ٩٦، ٩٧، ٩٩

(هـ)

هارون الرشيد : ١٥٤، ٢٩٢، ٣٨٧، ٣٨٨
هشام بن عبدالملك : ٢٥١
هشام بن عمر الغوطي : ٥٤

(و)

وردان (مولى عمرو بن العاص) : ٢٦٣
ابن وصيف : ٢٧٩
الوليد بن عبدالملك : ١٥٩

(ي)

ياقوت : ٩٦، ٢٩١
يحيى بن خالد : ٢٩٣
يحيى بن زيد الحارثي : ٣٥٥
يحيى بن سعيد : ٣٨٣
يحيى بن صلحة : ٣٤٧
يحيى بن عروة : ٢٨٠
أبو محمد اليزيدي : ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤
يزيد بن المهلب : ١٥٦
يزيد بن المهلب : ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠
النبي يعقوب : ٢٤٤
يموت بن المزروع : ٢٢٥

(٣)

فهـرس الأماكن

(ا)

الاحسا : ٢٠١
أصفهان : ٨٨
أفريقية : ٢٥١

(ب)

البصرة : ٤٦ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ١١٩ ، ٣٠٨ ، ٣١٠
بغداد : ٩٥ ، ١٤٢ ، ٢٥٥

(ج)

الجزيرة العربية : ١٥٣

(ح)

الحجـاز : ١٠٤
الحناكية : ٢٧٢
الحيرة : ٤٨ ، ٤٩

(خ)

خراسان : ٢٢٠
خيبر : ٨

(د)

الدرعية : ٢٧٢
دمشق : ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٥٥

(س)

سدوس : ٢٦٧

(ش)

الشام : ٢٧٢

(ص)

صقلية : ٢٧٣
الصين : ٢٥٥

(ع)

عنيزة : ٢١١ ، ٢٦٩

(ق)

القاهرة : ٣٨ ، ١٩٨ ، ٢٥٥
القصيم : ٢٦٩
القناطر الخيرية : ١٩٨

(ك)

كنزان : ٣١٦
الكوفة : ١٣٤ ، ٣٠٥

(ل)

لندن : ١٠٠

(م)
المدينة المنورة: ١٥٦
مصر: ٩٤، ١١٨، ١٣٩، ١٤٢، ٣٦٢
مكة المكرمة: ١٥٥، ٢٠١، ٢٥٥، ٣٧٤
منبج: ٣٥٦، ٣٥٧
المنصورة: ٣٥

(ن)
نجد: ٢٧٢

(٤)
فهرس المصادر

١ - *أخبار الظراف والمتماجنين*
للأمام أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي
تحقيق : عبد الأمير مهنّا
دار الفكر اللبناني - بيروت
الطبعة الأولى

٢ - *أخبار القضاة*
لوكيع ، محمد بن خلف بن حيان
عالم الكتب - بيروت

٣ - *أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر امرائها*
تحقيق : إبراهيم الأبياري
دار الكتاب المصري - ١٩٩٠م
المكتبة الأندلسية (١)

٤ - *آداب الملوك*
أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي
تحقيق : الدكتور جلال العطيّة
دار العزب الإسلامي - الطبعة الأولى ١٩٩٠م

٥ - *أدب الدنيا والدين*
أبو الحسن الماوردي
شرح وتعليق : محمد كريم راجح
دار إقرأ - بيروت

٦ - *كتاب الأغاني*
أبو فرج الأصفهاني

تحقيق : لجنة من الأدباء
دار الثقافة - بيروت
الطبعة السادسة - ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م

٧ - *كتاب الإمتاع والمؤانسة*
أبو حيان التوحيدي
تحقيق : أحمد أمين ، أحمد الزين
منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت - لبنان

٨ - *باهلة - القبيلة المفترى عليها*
حمد الجاسر
دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر
الرياض - الطبعة الأولى - ١٤٠١هـ/ ١٩٩٠م

٩ - *بهجة المجالس ، وأنس المجالس ، وشحذ الذهن والهاجس*
الإمام أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري القرطبي
تحقيق : محمد مرسي الخولي
دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان

١٠ - *البيان والتبيين*
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : عبدالسلام محمد هارون
الطبعة الأولى - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١١ - *تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون*
خليل بن أيبك الصفدي
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
المكتبة العصرية - صيدا - بيروت

١٢ - *ثمـرات الأوراق*
تقي الدين أبو بكر بن علي محمد بن حجة الحموي
صححه وعلق عليه : محمد أبو الفضل إبراهيم
الطبعة الأولى - مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧١م

١٣ - *كتـاب الحيـوان*
أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : عبدالسلام هارون
دار إحياء التراث

١٤ - *حياة الحيوان الكبرى*
كمال الدين الدميري
دار إحياء التراث العربي - بيروت

١٥ - *ديـوان عنـترة*
تقديم كرم البستاني
دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م

١٦ - *زهر الآداب وثمر الآداب*
أبو اسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني
تحقيق : الدكتور زكي مبارك

١٧ - *سـراج الملـوك*
محمد بن الوليد الطرطوشي
تحقيق : جعفر البياتي
رياض الريس للكتب والنشر ١٩٩٠م

١٨ - *سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون*
لجمال الدين بن نباتة المصري
تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم
المكتبة العصرية - صيدا، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

١٩ - *شرح ديوان الحماسة*
أبو تمام حبيب بن أوس الطائي
تحقيق : محمد محيى الدين عبدالحميد
مطبعة حجازي - القاهرة - ١٣٥٧هـ

٢٠ - *الشـــيب*
سـعيد كامل الكوسا
دار الفكر - الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م

٢١ - *العقد الثمين من شعر محمد بن عثيمين*
الطبعة الثالثة - الرياض ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م

٢٢ - *كتاب العقد الفريد*
أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
تحقيق : أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الأنصاري
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة
١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م

٢٣ - *عيــون الأخبــار*
أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري
تحقيق : الدكتور يوسف علي طويل
دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان

٢٤ - *فـي طـرق البحــث*
عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر
الطبعة الأولى - الرياض : ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م

٢٥ - *الكشــكول*
لبهاء الدين العلوي
تحقيق : الطاهر أحمد الزاوي
طبع بدار إحياء الكتب العربية «عيسى البابي الحلبي وشركاه»

٢٦ - *لسان العرب المحيط*
محمد بن مكرم بن علي بن منظور
تقديم : عبدالله العلايلي
إعداد وتصنيف: يوسف خياط ، ونديم مرعشلي
دار لسان العرب - بيروت

٢٧ - *مجالس ثعلب*
أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب
شرح وتحقيق : عبدالسلام هارون
دار المعارف ، الطبعة الخامسة

٢٨ - *مجالس العلماء*
أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي
تحقيق : عبدالسلام هارون
سلسلة التراث العربي - الكويت - ١٩٦٢م

٢٩ - *المجتنَى*
أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري
دار الفكر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م

٣٠ - *المحاسن والمساوىء*
إبراهيم بن محمد البيهقي
دار صادر - بيروت - ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م

٣١ - *محاضرات الأدباء ، ومحاورات الشعراء والبلغاء*
الراغب الأصبهاني
دار الآثار - بيروت
اختصار : إبراهيم زيدان

٣٢ - *المخصص*
أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي

«المعروف بابن سيده»
دار الفكر - بيروت

٣٣- *المراح في المزاح*
بدر الدين أبو البركات محمد الغزي
(ضمن مجموعة الرسائل الكمالية «٢»)
مكتبة المعارف - الطائف

٣٤- *المستطرف في كل فن مستظرف*
شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح الابشيهى
تحقيق : الدكتور مفيد محمد قميحة
دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
الطبعة الثانية - ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

٣٥- *المصون في الأدب*
أبو أحمد الحسن بن عبدالله العسكري
تحقيق : عبدالسلام هارون
(التراث العربي - إصدار وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت)
١٩٦٠م

٣٦- *معجم الأدباء*
ياقوت الحموى - شهاب الدين أبو عبدالله
دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان

٧)- *معجم البلدان*
شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي
دار صادر - بيروت

٣٨- *من اسمه عمرو من الشعراء*
أبو عبدالله بن داود بن الجراح
تحقيق : الدكتور عبدالله بن ناصر المانع
مطبعة المدني بمصر - الطبعة الأولى - ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م

٣٩- *المنتقى من أخبار الأصمعي*
القاضي أبو محمد عبدالله بن أحمد الربعي
انتقاء الحافظ ضياء الدين محمد بن عبدالواحد المقدسي
تحقيق : محمد مطيع الحافظ
دار طلاس للدراسات - الطبعة الأولى - ١٩٨٧م

٤٠ - *الموشّى أو الظرف والظرفاء*
أبو الطيب محمد بن اسحاق بن يحيى الوشاء
دار صادر - بيروت

٤١ - *نزهة الألباء في طبقات الأباء*
تحقيق : الدكتور إبراهيم السامرائي
مكتبة المنار - الأردن
الطبعة الثالثة - ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م

***

تم الجزء الثاني بحمد الله

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ – ٤٩٨٠٧٧٦ ★ الرياض

نبذة عن المؤلف :

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية .
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة .
- حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ .
- حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ .
- عيِّن في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود .
- عيِّن وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ .
- درَّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب .
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف .

كتب صدرت للمؤلف :

- نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب الشيخ أحمد المنقور في التاريخ .
- ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب «عثمان بن بشر» .
- ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب «في طرق البحث» .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة العربية .
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة الانجليزية .
- حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » ونشره .
- حقق كتاب : « حسن المناقب السّرية ، المتفرعة من السيرة الظاهرية » لشافع ابن علي ، ونشره عام ١٣٩٦هـ .
- من حطب الليل ، نشر في عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .
- ألَّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب « أي بني » في خمسة أجزاء .
- ألَّف عام ١٤١٤هـ كتاب « إطلالة على التراث » الجزء الأول وبين يديك الجزء الثاني .

التوزيع

يطلب الجزء الأول والثاني من كتاب « إطلالة على التراث » ، والأجزاء الخمسة من كتاب « أي بني »

من مؤسسة الجريسي للتوزيع

الرياض ١١٤٣١ ص . ب ١٤٠٥ - ت : ٤٠٢٢٥٦٤
جدة ت : ٦٨٢٦١٠٥ - الدمام ت : ٨٢٧١٨١١
القصيم ت : ٣٦٤٤٣٦٦ - خميس مشيط ت : ٢٢٢٠٧٥٨

ردمك : ٢ - ١١٥ - ٢٧ - ٩٩٦٠ (مج ٢)

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ ★ الرياض